

(١٧٧)

﴿حديث الأمر بذكر الله تعالى عند كل شيء﴾

عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِذَا اسْتَجَنَحَ اللَّيْلُ أَوْ كَانَ جَنَحَ اللَّيْلِ فَكُفُّوا صَبِيحَانُكُمْ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ فَاذَا ذَهَبَتِ سَاعَةٌ مِنَ الْعِشَاءِ فَخَلَوْهُمْ وَاغْثَقَ بِأَبْكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ وَأَطْفِئْ مَصْبَاحَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ وَأَوْكِ سِقَاكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ وَخَرِّ إِيَّاكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ وَلَوْ أَنْ تَعْرِضَ عَلَيْهِ شَيْئًا

ظاهر الحديث يدل على خمسة أحكام منها الاخبار بانتشار الشياطين أول الليل وكثرتهم في ذلك الوقت والأمر بكف الصبيان ذلك الوقت عن التصرف والأمر بغلق الباب وذكر الله تعالى إذ ذاك والأمر بتوكية السقاء وذكر الله تعالى إذ ذاك والأمر بتغطية الاناء وذكر الله تعالى إذ ذاك وإن لم يجد ما يغطيها يعرض عليها شيئاً والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال هل هذه الأوامر كلها على الوجوب أو الندب وما الحكمة في ذلك وهل انتشار الشياطين في تلك الساعة لحكمة تفهم أوليس لنا سبيل إلى ذلك وهل ماسى فيها من منع الصبيان يفهم أيضاً علة أوليس وهل ذلك خاص بالصبيان أو يتعدى إلى غيرهم وما الحكمة في ذكر الله تعالى عند تلك الأفعال وما يستترتب عليه من الحكم وهل يتعدى إلى غير ذلك أوليس أما قوله استجنع أو كان جنح الليل فهو شك من الراوى

وفيه دليل : على تحريمهم رضوان الله عليهم في النقل كما ذكرنا قبل ﴿وأما قولنا﴾ هل الأمر على الوجوب أو الندب فاللفظ محتمل لكن الأظهر فيه الندب لأنه ليس من طريق التعبدات وإنما هو من طريق الارشاد إلى ما فيه الخير والسبب فيه وفي دفع الضرر لأنه إذا استقرت بها واحدة واحدة بان لك ذلك فمنها غلق الباب لأن فيه تحصيناً من العدو الذى يريد ضرك فى مال أو بدن وتوكية السقاء وهو من باب التحوط على النفس والماء والوعاء لأنه إذا لم توك السقاء قد يتعاق فيه حيوان أو يدخله فان هوام الأرض تنتشر فى الليل أكثر منها بالنهار وقد يدخله حيوان فيموت فيه أو يبق بالحياة فمضى لا استعمال الماء أن يدخل فى جوفه أو يناله من سمه ومن هذا الباب نهى عليه الصلاة والسلام عن الشرب من فم السقاء خيفة أن يكون هناك شيء يتأذى بسببه وإطفاء المصباح من جهة الاحتياط على المال والنفس وقد نبه عليه الصلاة والسلام فى حديث آخر حيث قال «إن الفويسقة تضرم البيت على أهله نارا» أو كما قال عليه الصلاة والسلام وهى الفارة فانها تأتى المصباح وتأخذ طرف الفتيل فتجره وهو موقود فتحرق البيت وما فيه وقد يكون نوم أهله

ثقيلا فيحترقون بالنار (ويترتب) على هذا من الفقه أنه لا ينبغي لأحد أن ينام ويترك مصباحه موقودا فان تركه قد يطرأ عليه منه ضرر فيتعلى العتب عليه لأنه خالف السنة وتسبب فيما كان به ضرر اللهم إلا إن كان له عذر من مرض أو ما يشبهه فصاحب العذر معذور وأما تغطية الاناء فهو من باب توقي الضرر لأنه قد جاء «أن ليلة في السنة ينزل بلاء من السماء فكل إناء وجدته مكشورا حل فيه وتلك الليلة مجهولة وأيضا قد يأتي من الحيوان الذي فيه السم والضرر فيشرب من ذلك الماء ويقع من سمه في الاناء أو يقع هو بنفسه فيلحق لشاربه بشرب ذلك الماء ضرر في نفسه كما تقدم وقوله عليه الصلاة والسلام (ولو تعرض عليه شيئا) (هنا بحث) وهو أن يقال كيف يقوم مثلا عودا أو خيط إن أعرضته على الاناء مقام تغطيته كله لأن شيئا يقع على القليل والكثير فتكون هذه الإشارة هنا تبين فائدة قوله عليه الصلاة والسلام (واذكر اسم الله) فان المانع للضرر كله والجواب للخبر كله هو ذكر اسم الله تعالى فأمر عليه الصلاة والسلام باظهار الحكمة في عمل الأسباب من غلق الباب وتوكية السقاء وغيرهما وجعل من شرطها ذكر الله تعالى عند الفعل لأنه سبحانه هو الواقى لأنه عز وجل يقول في محكم التنزيل (قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن) وذكر الله تعالى هو الحصن الأعظم والملاجئ الأكبر فلها لم يجد للحكمة سبيلا وهي تغطية الاناء بقيت القدرة ظاهرة فقال عليه الصلاة والسلام ذكر اسم الله عند قوله ولو تعرض عليه شيئا فأفاد ذلك أن اسم الله هو الواقى ولم يعد عليه السلام ذكر الله عند قوله ولو تعرض عليه شيئا لأنه عطفه على قوله واطفأ مصباحك واذكر اسم الله وما عطف على الشيء فهو مثله فذلك سكنت عنه اختصارا وقد قال بعضهم إنه كان له إناء ولم يكن له ما يغطيه فعرض عليه عودا فلما أصبح وجدته قد وقع على الاناء من هذا الحيوان ذوات السم ميتا فاحتبس على العود ولم يكن ذلك العود من حيث أن يحبس ذلك الحيوان فمنها ظهر أنه ما حبس ذلك الحيوان إلا ما أشرنا إليه من بركة اسم الله تعالى لا غير (وأما قولنا) ما الحكمة في ذلك وذلك إنه لما كان الليل وقت نوم وهو الموت الأصغر أمر أن يفعل الأمور التي يصلح فيها حاله وحال أهله وماله في حال نومه وغيبته لأنه في النهار متيقظ نبهان وأهله كذلك وكل واحد يدفع عن نفسه بوضع الحيلة فلم يؤكده عليه في هذه الأشياء (ويترتب) عليه من النظر أنه إذا كان يؤمر أن ينظر فيما يصلح به حاله وحال من له كما تقدم في هذا الموت اليسير فمن باب أخرى في الموت الذي لا رجوع فيه إلى هذا العالم الدنيوي فالؤمن كيس حذر فطن فان عقلت تنبهت وعملت أفلحت وأما قولنا هل ذلك الحكمة تعرف أم لا فان قلنا تعرف بالنص عليها فلم يأت في ذلك شيء فيما أعلم وإن قلنا بالاستقراء من النظر في حكمة الحكيم وكيف رتب هذا الوجود وجدنا لذلك أثرا من الحكمة ظاهر أو ذلك لوجهين من الحكمة أحدهما إن الله سبحانه قد جعل حضور الشيطان ووساوسه إنما يكون مع الغفلة

كما أن حضور الملائكة وكثرتهم إنما تكون مع العبادة والحضور والاشتغال بما يرضى الله تعالى فلما كان أول الليل الغالب على الناس فيه الغفلة والنوم وكذلك جميع الليل هذا الغالب فيه لكن أوله في ذلك أكثر لأن الناس قد فرغوا إذ ذاك من تسمياتهم وكدهم فيها ولذلك جاء في الصلاة التي بين العشاءين من كثرة الأجر ما فيها وسميت صلاة الأوابين لكونه وقت غفلة فلما اشتغل هذا بالعبادة في ذلك الوقت عظم أجره ووجه آخر وهو أنه لما أراد الحق سبحانه بمقتضى حكمته خلق الثقلين وهما الجن والانس وجعل الليل والنهار فخص الانس بكثرة الانتشار بالنهار وخص الجن بكثرة الانتشار بالليل ليكون لكل فريق وقت يستريح فيه كل بحسب حاله حكمة حكيم ﴿وهنا إشارة﴾ وهو أن ما تحسن شدة الأمور إلا عند أوائلها من خير أو ضده فلما كان الليل وقت غفلة ونوم وزيادة انتشار الشياطين فيه الذين هم عون على ذلك تجدد النفوس تلك الوحشة عند أوله وأكثر ما يجد ذلك المرضى لأنه إذا قرب الليل يزداد عليهم المرض والغم ولما كان الصبح أول النهار الذي هو السعي وتكثر في ذلك الوقت الملائكة لأن الحفظة يجتمعون في ذلك الوقت حفظة الليل والنهار تجدد النفوس إذ ذاك نشاطا وانشراحا وأكثر ما يجد ذلك المرضى في الغالب منهم تدبير مدبر حكيم ﴿وأما قولنا﴾ هل ما أمر به من التحرز على الصبيان من الانتشار ذلك الوقت وذلك أنه لما كان الصبيان ذوي عقول ضعيفة ليست تحتمل التخيلات ومن الشياطين من يتشكل في صورة مفزعة فقد يراها الصبيان مع ضعف عقولهم فيخاف عليهم من أجل ذلك أن يقع في عقولهم أو أبدانهم خلل وفي هذا دليل للقول بسد الذريعة

وفيه دليل : على أن ينظر لكل انسان بحسب حاله يؤخذ ذلك من أنه لما كانت عقول الصبيان كما ذكرنا وهم لا يعقلون في الغالب الوصية أمر أولياءهم أن يمنعوهم من التصرف وفيه رد على أهل الطب الذين يقولون إن جسدا لا يدخل في جسد وإنما يظهر من صاحب الجنون إنما هو خلط تحرك عليه

وفيه دليل : على نصحه صلى الله عليه وسلم لأمته يؤخذ ذلك من كونه عليه الصلاة والسلام لم يغفل عن حق صغير ولا كبير ولا مال ولا شيء من الأشياء إلا نبه صلى الله عليه وسلم على المصلحة فيه كما أمر العقلاء أن يحبسوا النفس من أجل ضعفها عن كثير من تصرفاتها وأشد ما أمر في ذلك عند أول الغفلة والشهوة لأن كليهما ظلمة تغلب على الباطن ولهذا قال صلى الله عليه وسلم «إنما الصبر عند الصدمة الأولى» ولذلك قال عقلم عند أوائل الأمور فجير به فان نجح سعيه وإلا فأنت سفيه» ﴿وأما قولنا﴾ هل يتعدى إلى غير الصبيان فان حكمنا بترك العلة التي ذكرنا فمن وجدناها هنا فيه عدينا له الحكم وقد رأيت بعض المباركين كان لا يحتمل أن يقعد وحده لأنه كان يذكر أنه إذا كان وحده تترأى له الجن وما يحمل

رؤيتهم فلا تراه أبدا وحده ولو يكون معه صغير ﴿واما قولنا﴾ ما الحكمة في الأمر بذكر الله تعالى عند فعل تلك الأفعال المأمور بها فقد ذكرناه عند قوله عليه الصلاة والسلام ﴿ولو تعرض عليه شيئا﴾ لكن بقي فيه بحث وهو أنه لا يخاطب بحال التحقيق إلا أهله وأما الغير فيحملون على مقتضى الحكمة يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام ﴿واذكر اسم الله﴾

وفيه دليل : على بركة هذا الاسم الجليل الذي جعل ذكره لكل طالب خير فيه يناله ولدافع كل شر فيه يدفعه ﴿وفيه إشارة﴾ إلى أن لا يخل أهل الحكمة بشيء من الحقيقة وإن لم يعرفوها وتمزج لهم شيء من الحكمة من أجل أن لا تفوتهم بركتها وبهذا نطق التنزيل عز وجل (أفأيتهم ما تحرثون ما أتم زرعونه أم نحن الزارعون) من أجل أن يعملوا الحكمة ويتفكروا في حقيقة الأمر ما هو ومثله فعل سيدنا صلى الله عليه وسلم حين قال لهم في تذكير النخل ما أراه يجدي شيئا فتركوا التذكير فلما جاءت السنة غير طيبة قالوا له أنت أمرتنا بأن لا نذكر فأبقاهم على مقتضى الحكمة بأن قال لهم «أنتم أعرف بأمر ديننا كم وما أخبركم به عن الله فصدقوني فيه» أو كما قال عليه الصلاة والسلام فكان معنى قوله عليه الصلاة والسلام لا أراه يجدي شيئا في حقيقة الأمر لا كما في زعمكم لأن التذكير للنخل سبب من الأسباب والله عز وجل يخلق عنده ما شاء إن شاء وإلا فلا فائدة له وكم سنة يذكرونها وتفسد ولا يجدي منها شيء ولا يقولون شيئا ويقولون قدر الله لأنهم علموا الحكمة الجارية عندهم فلم ينتقدوا على القدر وسلبوا الأمر لصاحبه فلما كانت هذه السنة من السنين التي قدر الله عز وجل أن يفسد فيها النخل ولم يعملوا عادتهم من حكمة التذكير نسبوا ذلك لكونهم تركوا تلك العادة فعذرهم لكونهم لم يفهموا عنه وأضرب لهم عن الأخذ بالحقيقة شفقة على إيمانهم وردهم إلى أثر الحكمة فلو كانت تلك السنة تجيء طيبة سابق أحد منهم يلتفت لحكمة التذكير فكان يؤول الأمر بهم إلى تضييع أثر حكمة الحكيم والشرعية ما جاءت إلا بالجمع بين أثر الحكمة والقدرة وهي الحقيقة كما بينا في غير ما وضع من الكتاب

﴿وفيه إشارة صوفية﴾ لأن أهل التصوف يقولون أنت سفينة الوجود وسفينة نوح عليه الصلاة والسلام كان إجراؤها وإرساؤها كما أخبر الحق سبحانه في كتابه بقوله (بسم الله مجراها ومرساها) وقد أرشدت الشريعة المحمدية أن يكون جميع تحركاتك وسكونك بذكر الله تعالى وتفتح ببسم الله فمنها عند نومك تقول بسم الله وعند يقظتك كذلك وعند أكلك وشربك وخروجك من منزلك ودخولك فيه ولباس ثوبك وتجريدك وكذلك عند استفتاح كلامك بذكر الله أيضا وعند نكاحك وعند سفرك وعند إيابك إلى أهلك وعند قعودك وقيامك كذلك فإن كنت في حالك محمدا أرست سفينتك على جود السلامة وإن تخلفت عنه لم يكن لك عاصم من أمر الله وغرقت في طوفان المهالك ولم تشعر أنك هالك فتعقظ من سكرة هواك تجد روحك في قارورة شهواتك غارقا في فضلة معاصيك

ذكر أن ابن نوح عليه الصلاة والسلام حين تخلف عن ركوب السفينة اتخذ قارورة من زجاج قدر ما تحمله وصعد على الجبل فلما بلغه الماء دخل فيها وأغلقها على نفسه فأرسل الله عليه إدرار البول حتى مات غريقاً فيه فأكسرها بحجر عزيمة التوبة ونادى بالسان حاله أنقذني يا منقذ الغرقى فإني ذاهب لعل حنين صوت اضطرارك يشفع فيك (أمن يجيب المضطر إذا دعاه)

(١٧٨) ﴿حديث فضائل رمضان﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ فَتُحْتَفَلُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَتُغْلَقُ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ وَتُسَلِّسُ الشَّيَاطِينُ

ظاهر الحديث الأخبار بهذه الثلاثة أحكام وهي فتح أبواب السماء وغلق أبواب النيران وتسلسل الشياطين عند دخول رمضان والكلام من وجوه

﴿منها﴾ الدليل على فضل هذا الشهر يؤخذ ذلك من كونه خص به الأشياء على غيره وقد جاءت زيادة في حديث آخر ﴿وزخرفت الجنان﴾

وفيه دليل على أن ذلك العالم له بقدره الله تعالى تأثير في هذا العالم يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام ﴿وغلقت أبواب جهنم﴾ فلو لا أن ذلك العالم له تأثير بمقتضى الحكمة في هذا العالم لما غلقت أبواب جهنم ﴿وهنا بحث﴾ وهو أن يقال لم قال جهنم ولم يقل غيرها من أسماء النار لأن النار لها سبعة أسماء أولها جهنم ﴿فالجواب﴾ أنه لما كانت هذه خاصة للمؤمنين من جميع طبقات النيران خصت بالغلق والكف عن المؤمنين لأنهم الذين خصوا بصوم هذا الشهر دون غيرهم

وفيه دليل على عظيم القدرة أيضاً يؤخذ ذلك من إخباره عليه الصلاة والسلام وإن السماء لها أبواب تفتح وتغلق

وفيه دليل على أن كثرة فتح أبواب السماء دالة على خير أهل الأرض وقد أخبر عز وجل بما يدل على ذلك في كتابه حيث قال (لا تفتح لهم أبواب السماء) ولا تفتح أبواب السماء إلا لمن يرحم ويدخل الجنة ومن غلقت دونه فلا يرحم ولا يدخل الجنة ﴿وهنا بحث﴾ هل ذلك لكل الصالحين أو ذلك مخصوص بظاهر اللفظ يقتضى العموم والأخبار تخصه منها قوله صلى الله عليه وسلم «رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش» فمن ليس له من صومه إلا هذا الشقاء ولا يقبل منه كيف تفتح له أبواب السماء ﴿وهنا بحث﴾ في قوله عليه الصلاة والسلام وغلقت أبواب جهنم هل ذلك حساً ومعنى ومعنى حساً غلقها في ذاتها والمعنى أى منع بهركة الصوم عن الطريق التي تبلغه إلى جهنم أو لجموعها وهو الأظهر بدليل أنه قد جاء بما لك أغلق أبواب جهنم فهذا حساً وقد جاء في الصوم أنه وجاء أى أنه يمنع من

الفاحشة وهي الزنا وقد قال جل جلاله (واستعينوا بالصبر والصلاة) فذكر العلماء أن الصبر هو الصوم لأنه عون على العبادة فصح ما قلنا إن مجموعهما هو الأظهر وقوله عليه الصلاة والسلام ﴿وسلست الشياطين﴾ هل هو على عمومه أم لأمر اللفظ عام وقد جاء مخصصا في حديث آخر «وصعدت مردة الشياطين» وهل هذا عن كل الناس عموما أم لا الظاهر العموم وليس كذلك بدليل قول مولانا جل جلاله (شياطين الانس والجن) فمن هو شيطان في نفسه كيف يمنع منه شيطان ولذلك إذا دخل رمضان من كان مثالا مكاسا بقي على مكسه أو ظالما بقي على ظلمه لم يدخل في هؤلاء بل هو من جملة الشياطين أليس قد قال عليه الصلاة والسلام «فان سبك أو شتمك فقل إني صائم» أو كما قال فمن لا يحترم لا يحترم فمن أجل إطلاق بعض الناس هذه الأحاديث على عمومها وقع لهم الاغترار ولكن ينبغي أن يقيم الشخص لسان العلم على نفسه حتى يعرف من أي الفريقين هو

وفيه دليل : على أن شيطان الانس ملازم لا يزول لأنه لا يسلسل
وفيه دليل : على أن الشياطين لهم أبدان محسوسة يؤخذ ذلك من قوله ﴿وسلست﴾ فان السلسلة لا تكون إلا في جسم

وفيه دليل : على أن الأعمال هي التي ترفع صاحبها أو تضعه يؤخذ ذلك من كون أهل الصوم يعتنى بهم هذا الاستثناء العظيم وقد جاء أنه من أكثر الصوم ضيقت عليه النار أي أنه لا يدخلها وقد قال إن أردت عزاً يا نفس فالتقى فاعتزى وإلا فافتنى بحقيقة الذل ولذلك كان أهل العلامات الحميدة حالهم في الدارين حميدة

(١٧٩) ﴿حديث من أتى أهله فليسم الله﴾

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقني فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان ولم يساط عليه ظاهر الحديث الاخبار بأن المرء إذا أتى أهله وقال جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقني فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان ولم يساط عليه والسكلام عليه من وجوه

﴿ونها﴾ أنه قد جاء في الحديث قبله بزيادة التسمية وقوله اللهم وهنا ليس فيه التسمية المذكورة فيحتمل أن يكون سكنت عن التسمية لكونها قد تقرر الأمر بها مطلقا ومقيدا ويحتمل أن يكون جاء هذا بلا تسمية ولا قوله اللهم تحقيقا لفعله بعض الناس عند ذلك الحال اغلبة الشهوة عليهم فيكون ذلك الحديث أكمل في الفعل ويكون هذا المجزئ ولا أقل من ذلك ويحتمل أن يكون هذا الحديث لمن نسي التسمية حتى أوجع فيكون هذا اللفظ مجزيا عنه ويحصل به من

بركة الاتباع كما قال علماءنا رحمه الله عليهم فيمن نسي التعموذ عند قضاء الحاجة حتى شرع في الفعل أنه أن يتعموذ إذ ذاك بقوله أعوذ بك من الخبث والخبائث تنزيها لاسم الله تعالى أن يذكر في ذلك المحل وتحفظا على الاتباع أن يتركوه حين استيقظوا إليه فهذا مثله والله أعلم

وفيه دليل : على أن من حسن أدب الشريعة السكينة عن الأشياء التي يستحي منها وإن كانت مما أبيحت يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام ((أق)) لأنه كفى عن ذلك بالاتيان

وفيه دليل : على أن لفظ الولد يقع على الذكرى والأنثى وقد اختلف العلماء فيمن حبس شيئا على ولده وولد ولده هل يدخل في الحبس أولاد البنات أم لا على قولين وفي هذا الحديث حجة للذين قالوا بدخولهم في الحبس يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام ((فإن كان بينهما ولد)) وأما قوله ((جنبني الشيطان)) فمعناه أنه لا ينكح معه فإنه قد جاء أن المرأة إذا نكح ولم يذكر الله تعالى عند ذلك أن الشيطان ينكح معه كما أنه إذا أكل أو شرب ولم يسم الله أكل الشيطان معه وشرب وأما قوله عليه الصلاة والسلام ((مارزقتني)) فيه دليل : على أن الأولاد من جملة ما ينعم الله تعالى به على بني آدم لأنه عليه الصلاة والسلام جعلهم من جملة ما يرزقون بقوله رزقتني

وفيه دليل : على أن حقيقة تأثير الأسباب إنما هو بالقدرة لا بدواتها يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام ((فإن كان بينهما ولد)) وقد لا يكون والسبب واقع الذي هو النكاح فإن لم يكن السبب يؤثر إلا عند إرادة القادر وإلا لم يكن شيء وهذا مشاهد في عالم الحس لأن المرأة بجميع أهلها مرارا ولا يرزق مولودا وقد يكون ذلك الفعل مرة واحدة ويوجد معه الولد فحقيقة التأثير هو بالقدرة وهذا حكم متعدد في الأشياء كلها لا يقصر على هذا الموضع وحده فالأسباب أثر الحكمة والتأثير بها أثر حقيقة القدرة فإخفاء القدرة في أثر الحكمة من عظيم القدرة ليضل من يشاء ويهدي من يشاء حكمة بالغة ((وهنا بحث)) وهو أن يقال لم قال بينهما ولم يقل كان لهما أو غير ذلك فيه وجوه

((منها)) أن يكون المعنى بينهما مما خرج منهما من المائين فإنه قد جاء أن العظام والعصب من ماء الرجل وأن اللحم والشعر والجلد من ماء المرأة ووجه آخر وهو ((تنبيه لطيف)) وهو أن حقيقة الخلق الذي فيه وتنويع خلقه من كبد وقلب ومصران وجوارح على ما هي عليه هذه الصورة الأدمية من الترتيب البديع ليس ذلك من الماء الذي خرج أين الشبه الذي بينهما وإنما هو بقدرة القادر الذي جعل في تلك النطفة اليسيرة أنواعا مختلفة كما قال تعالى في الشجرة (انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه) معناه حين ينتهي طيبه أين التشبيه الذي بين عود الثمرة من الخلاوة التي في ثمرها والخوض في أو الحرة أو الصفرة أو السواد أو الخضرة أو غير ذلك من الألوان العود كله على حد واحد في اللون والطعم والشمير مختلف (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) ويحتمل أن يكون ذلك إشارة إلى

الروح والحياة اللذين هما حقيقة الانسان إن ذلك ليس منهما لامن طريق أصل ولا فرع وإنما هو مما جعله القادر فيما خاق مما كان بينهما وكذلك قال تعالى (ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مسكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر) يعنى عند نفخ الروح جاء خلقا آخر ليس من جملة تلك التطويرات التى كان بعضها أصلا لبعض بل هذا خلق آخر بقدرة قادر (ليس كمثل شئ) يؤيده قوله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) أى هى من أمر الله تعالى لاعتن سبب وإن كان الغالب فى الأشياء أنها موجودة عن الأسباب، فكل ذلك إنما هو صادر عن قدرة الله تعالى كما تقدم البحث قبل لكن هذا بالقدرة الظاهرة دون سائر الحكمة ولا يحيط بعلمها إلا مخترعها جل جلاله واحتمل أن تكون هنا الإشارة إلى خاق النفس على قول من يقول إن النفس شئ والروح شئ آخر لأنه قد ذكر العلماء القائلون بهذا إن النفس خاق مجسد مثل خلق بنى آدم لها يدان ورجلان وعينان وجوارح مثل بنى آدم سواء بسواء وأنها من العالم اللطيف وأنها نزلت فى جسد بنى آدم فتكون جسدا لطيفا أليس عالمها جسد كشيء وهى الفخارة التى خلقت من ذلك الماء المهيى وهى أعنى النفس التى أعطيت الميز والفهم وهى التى تتنعم وتتألم ويفرح وتحزن إلى غير ذلك مما يشبه هذه المعانى وإنما الروح حياة الجسد ليس إلا ولا تفهم ولا تتنعم ولا تفرح ولا تحزن وأما النفس فانها من العالم الذى لا يفنى وأنها تبقى فى القبر مع الجسد وقد يفنى الجسد إلا عجب الذنب وهى لا تفنى ولا يذكر أحد أنها مخلوقة من الماء المذكور وإنما هى بقدرة الله تعالى كما ذكر من العالم الروحاني فسبحان من هذه بعض آثار قدرته التى قد حارت فيها العقول واحتمل مجموع ما ذكر وفى هذه العبارة أكبر دليل على ما خص به سيدنا صلى الله عليه وسلم من الفصاحة والاعجاز فى كلامه لكونه أتى بلفظة تحتوى على جميع ما ذكرنا وزيادة على ذلك إذا أمعن فيها النظر

وفيه دليل : أعنى فى هذه اللفظة وما تحوى أن العلم الذى هو الفهم لحديثه صلى الله عليه وسلم وما فيه من الفوائد أنه من جملة مواهب الله تعالى لمن يشاء يشهد لذلك قوله عز وجل (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا) قال العلماء أنه الفهم فى كتاب الله تعالى وكذلك حديثه صلى الله عليه وسلم لأنه كله من الله وعن الله إما بالواسطة أو بالالهام وقد تقدم الكلام على هذا فى أول الكتاب وقوله عليه الصلاة والسلام (لم يضره الشيطان ولم يساطع عليه) هل هاتان اللفظتان لمعنى واحد أو هما لمعنيين احتمل لكن الذى استقر من الشريعة أنهما لمعنيين أحدهما أنه قد أخبر الصادق صلى الله عليه وسلم بما مناد « ما من مولود إلا والشيطان يطعن فى خاصرته » فذلك هو الضرر المشار إليه هنا والله أعلم وأما التسليط فهو ما ذكره الله عز وجل فى كتابه حيث يقول (واجلب عليهم بخيلك

ورجلك) وما جعل عز وجل له من التسويل والاغواء لبني آدم لقوله تعالى (من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم) فهذا هو معنى الإشارة إلى قوله عليه الصلاة والسلام ﴿ولم يساط عليه﴾ أى لم يكن يقدر على ضرره عند الولادة بأن يطعن في خاصرته ولا يقدر على ضرره بالاغواء والتسويل كما ذكرنا ويكون ممن يدخل تحت قوله تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) وفيه دليل: لئلاخذ بسد الذريعة يؤخذ ذلك من قوله ﴿وجنب الشيطان ما رزقنى﴾ ذريعة أن يكون له ما ولد وقد لا يكون فما بقى القول إلا احتياطا من أجل توقع الولد فهذا هو سد الذريعة بعينه وفيه دليل: على أن الحكم بالشرع يعطى للغالب يؤخذ ذلك من أمره صلى الله عليه وسلم بهذا عموما ومن الناس من يكون عقيما لا يولد له فلما كان العقيم نادرا لم يجعل له حكم وفيه من الفقه: أن الأصل إذا كان طيبا جاء الفرع طيبا يؤخذ ذلك من أنه إذا كان الأب طيبا باتباعه السنة وفعل في هذا الموضع ما أحكمته السنة وامثل الأمر جاء الفرع وهو الابن من أهل الخصوص كما أبديناه آنفا

وفيه دليل على أن الخير كله إنما هو في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم يؤخذ ذلك من أنه من لم يعرف الكتاب والسنة لم يعرف مثل هذا الخير وما فيه وكان نكاحه بهيميا بشهوة ليس إلا وكذلك في جميع أمره

وفيه من الفقه: أن فضيلة العلم إنما تكمل بالعمل لأنه عليه الصلاة والسلام قال ﴿إذا أتى أهله﴾ ولم يقل علم رزقنا الله فهم كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم والعمل بذلك بمنه .

(١٨٠) (حديث هروب الشيطان عند النداء للصلاة)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا نُودِيَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ فَإِذَا قُضِيَ اقْبَلْ فَإِذَا تَوَبَّهَا أَدْبَرَ فَإِذَا قُضِيَ اقْبَلْ حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَقَلْبِهِ فَيَقُولُ أَذْكَرُ كَذَا وَكَذَا حَتَّى لَا يَدْرِي أَثَلَاثًا صَلَّى أَمْ أَرْبَعًا فَإِذَا لَمْ يَدْرِ أَثَلَاثًا صَلَّى أَمْ أَرْبَعًا مَجْدُودًا فَسَجَدَ السُّجُودَ ظَاهِرَ الْحَدِيثِ الْإِخْبَارُ بِهَرُوبِ الشَّيْطَانِ مِنَ النَّدَاءِ بِالصَّلَاةِ وَلَهُ ضُرَاطٌ وَهُوَ بِهَ أَیْضًا كَذَلِكَ مِنَ التَّشْوِيبِ بِهَا وَهُوَ إِقَامَتُهَا لَكِنْ بَغِيرِ ضُرَاطٍ وَإِقْبَالُهُ بَعْدَ رُجُوعِهِ إِلَى الْمَهْلِكِ حَتَّى يَوْسُوسَهُ وَالْكَلَامُ عَلَيْهِ مِنْ وَجْهِهِ ﴿مِنْهَا﴾ أَنْ يُقَالَ مَا الْحِكْمَةُ فِي هَرُوبِهِ عِنْدَ الْآذَانِ وَالْإِقَامَةِ وَعَدَمُ دُرُوبِهِ عِنْدَ الدُّخُولِ فِي الصَّلَاةِ وَالتَّلَبُّسِ بِهَا وَهِيَ أَعْظَمُ مِنَ الْآذَانِ وَالْإِقَامَةِ فَإِنَّ الصَّلَاةَ فَرَضٌ وَأَمَّا الْإِقَامَةُ فَلَيْسَتْ بِفَرَضٍ وَالْآذَانُ فِيهِ مَا هُوَ فَرَضٌ وَفِيهِ مَا هُوَ سُنَّةٌ وَفِيهِ مَا هُوَ مُسْتَحَبٌّ عَلَى مَا نَبَّيْنَاهُ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْكِتَابِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَرُجُوعُهُ إِلَى الْمَهْلِكِ هَلْ ذَلِكَ عَلَى عَمْرٍو فِي كُلِّ مَهْلِكٍ أَمْ لَا ﴿وَمَا الْحِكْمَةُ﴾ فِي ضُرَاطِهِ عِنْدَ الْآذَانِ وَهَلْ تَرْكُهُ ذَلِكَ

في الإقامة لأنه لا يكون منه ذلك عند الهروب منها أو سكت عنه لما تقدم ذكره عند الأذان قبل ﴿فاما الجواب﴾ على ما الحكمة في كونه يهرب من النداء والإقامة ولا يهرب من الصلاة التي هي أرفع وذلك أن فرضية الأذان وفائدته الأخبار بدخول وقت الصلاة بذكر تلك الألفاظ المأمور بها ولذلك يجوز على طهارة وعلى غير طهارة فلما وفيما ما أمرنا به لم يطلق الشيطان حمل ذلك لأن توفية الأمر على ما أمر به تقطع ظهره والصلاة من مشروعاتها الترجه والاختلاص والحضور كما قال صلى الله عليه وسلم «إن الله لا يقبل عمل امرء حتى يكون قلبه مع جوارحه» وقد ورد في الأذان أن المؤمن له من الأجر بقدر مدصوته على ما بيناه في موضعه قبل وقال في الصلاة يكتب له نصفها ربها إلى عشرها وورده إذا لم يؤت بها على وجهها تطوى مثل الثوب الخلق ويضرب بها وجه صاحبها وتقول له ضيقتني ضيقتك الله» أو كما ورد فلعدم توفية الشروط التي طلبت منا في الصلاة وجد الشيطان طريقا إلى الدخول لصاحبها فلو وفي ما طلب منه فيها ما قرب به شيطان وكذلك سائر الأعمال من وفي فيها دخل في حزب المفلحين الذين لم يكن للشيطان عليهم سلطان يقول تعالى (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) ﴿وأما قولنا﴾ هل ذلك على العموم لكل مصل أم لا فظاهر الحديث محتمل وما قدمناه من قوله جل جلاله (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) يخص ذلك فانه من لم يكن له عليه سلطان كيف يقربه في صلاة أو غيرها هذا مما يعقل ﴿وأما الحكمة﴾ في ضراطه احتمل والله أعلم وجوها ﴿منها﴾ إنه لا يحمله حتى ينحل قواه فتسترخى حواسه ومفاصله فيخرج منه الريح بغير اختياره كما حكى عن فرعون أنه لما رأى الآية في عصى موسى عليه الصلاة والسلام حين رجعت حية أنه ولى هاربا وبطنه قد انطلق وغائطه يسيل لا يقدر أن يملك ذلك من نفسه وكثير ما يوجد ذلك من بعض الضعفاء لكثرة فزعهم وقد يكون من سوء طبع اللعين أن يقابل الشيء بصدده كونه يسمع الأذان الذي هو دليل على الصلاة وهي مبنية على الطهارة لقوله عليه الصلاة والسلام «الطهور شرط الإيمان» فيكثر من الضد وهو نقض الطهارة وقد يكون لوجه آخر وهو أن يشغل سمعه عن الأذان بذلك الفعل الذميمة واحتمل مجموعها ﴿وأما قولنا﴾ لم يذكر ذلك الفعل عند الإقامة هل لعدم وقوعه في ذلك الوقت أو اختصره لكونه صلى الله عليه وسلم ذكره مع الأذان احتمل الوجهين والله أعلم لكن الأظهر أنه بغير ضراط وهو أن الأذان أكثر ألفاظا لأنه شئ كله وبعضه مربعا والإقامة مفردة وبعضها مشئ فلزيادة تكرار الألفاظ المباركة يكون فيه زيادة في المخالفة وأيضا فلا نفع فائدة الأذان أكثر فانه إعلام بالوقت ويسمعه من هو حاضر ومن هو بالبعد وهو أعلا صوتا وهو يدعو الناس كلهم إلى الطاعة والإقامة إنما هي للحاضرين أن يتأهبوا للدخول في الصلاة ولا يتعدى إلى غيرهم فكانت عليه أخف فانه كلما كانت الطاعة أكثر كان عليه الأمر أشد يؤيد ذلك ما أخبر عنه الصادق صلى الله عليه وسلم أنه لم ير أحقر منه

ولا أذل في يوم عرفة يحشى التراب على رأسه أو كما قال عليه الصلاة والسلام وذلك لما في تلك الطاعة في ذلك الوقت من الترفيع والخير فيلحقه بتلك النسبة ذلك التحقير والهوان وقوله عليه الصلاة والسلام ﴿حتى يخطر بين الإنسان وقلبه﴾ أي إنه يشغل قلبه فان مدار الإنسان على قلبه فإذا اشتغل قلبه بالوسواس فكأنه حال بينه وبين قلبه لأن القلب لا يراد لذاته الصنوبرية وإنما يراد لحضوره عند فعله ما تعبد به ليو في ماعليه في ذلك

وفيه دليل : على أن ملازمته لبني آدم حتى يعلم كلما يتصرفون فيه ويجري عليهم يؤخذ ذلك من قوله ﴿اذكر كذا﴾ لأنه لا يذكره إلا بشيء قد وقع ونسيه الأدمي والعدو اللعين قد كان عرفه ولا يكون ذلك إلا لمن هو معك ملازم لك

وفيه دليل : على عظيم قدرة الله تعالى الذي هذا خلقه يقدر أن يصل إلى قلوبنا ونحن لا نعلم به وفي هذا دليل على أن المولى سبحانه لا تدركه العقول ولا يتحيز ولا يشبهه شيء يؤخذ ذلك من أن هذا خلق من خلقه مدرك وتراه يصل إلى قلوبنا ونحن بعقولنا معنوا وادراكنا من جميع حواسنا ولا نعلم به ونجد أثر وصوله ولا نحس بذاته ولا نشعر بها فكيف يطمع أحد أن يعرف أو يصل إلى من هذا بعض مخلوقاته وبالقطع أن الصنعة لا تشبه صانعها

وفيه دليل : على أن ميل النفس بالسرعة إلى ما تعرفه أكثر مما لا تعرفه يؤخذ ذلك من قوله إذ ذكر كذا فلولا علمها بذلك لكان يقول لها ألا تعلمين ما يكون في كذا الأمر لا نعلمه فقد لا يحصل له منها ذلك الميل السكلي الذي يذهلها عن الصلاة فلحرفته بها أخذها من الوجه الذي هو أقرب لفائدته وقد روى عن بعض أهل الفقه وكان ممن ينتفع الناس به في دنياهم وآخرتهم لما من الله به عليه من العلم والنباهة أنه ضاع لبعض التجار صرة دراهم لا يدرى أين رفعها فحزن لذلك فقبل له ليس لك إلا ذلك السيد فلما جاءه وأخبره بحاله أمره ذلك السيد بأن يصلي ركعتين لا يحدث فيهما نفسه بشيء ويأتيه ويخبره بما له أين هو فقام ذلك التاجر إلى ناحية في المسجد وأحرم ودخل في تلك الركعتين فرآه الشيخ في الركعة الثانية قد خففها فقال لأخوانه قد تذكر ماله أين هو فلما سلم واتى الشيخ قال له الشيخ تذكرت مالك أين هو قال له نعم يا سيدي فقال له اذهب فخذ مالك واشكر الله فرغب منه أصحابه لم أمره بتلك الصلاة والقضية فقال لهم إن الشيطان أنساه أين رفع ماله لكي يحزنه ولو وقت ما من الزمان من أجل العداوة الأصلية فأمرته بالركعتين ولا يحدث فيهما نفسه لأنه قال صلى الله عليه وسلم «من صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه دخل الجنة» فلما تلبس بالصلاة عازما أن لا يحدث فيها نفسه رأى العدو أن يذكره بماله ولا يتركه يتم عملا يدخل به الجنة فمن أجل ذلك أمرته بذلك وقوله عليه الصلاة والسلام ﴿حتى لا يدرى أن لا أصلي أم أربعا﴾ فإذا لم يدر أن لا

صلى أم أربعاً سجد سجدتي السهو ظاهر اللفظ يعطى أن يسجدتني السهو تجزيه عن تمام صلاته وإن كان ما صلاه ثلاثاً وليس كذلك لأنه قد جاء ذلك مفسراً في حديث آخر وهو قوله عليه الصلاة والسلام «إذا شك أحدكم في صلاته فليبن على اليقين ثم يسجد سجدتي السهو» واليقين هو الأقل وقد تعلق بعض أهل الظاهر بظاهر هذا الحديث وما قدمناه عليه الجمهور وهو الحق الذي يعطيه الفقه لأنه إذا جاءت الزيادة من العدل قبلت ومع ذلك على هذا الذي عليه الجمهور استمر عمل الخلفاء والعلماء إلى هلم جرا ((وهنا بحث)) في قوله ثلاثاً أم أربعاً هل هو مقصور على هذا الموضع أو هو على طريق ضرب المثال إذا تردد الخاطر بين الأقل والأكثر كان العدد ما ذكر أو أقل من ذلك الذي عليه الجمهور إنه على ضرب المثال إذا تردد الخاطر بين الأقل والأكثر فيكون عمله على أقل العددين مما ذكر

وفيه دليل: على أنه لا يحزن العدو إلا بزيادة الطاعة يؤخذ ذلك من الشيطان لما جاء للمصلي ليفسد عليه صلاته بتشككه في عدد ركعاتها أحكت السنة بفضل الله تعالى الأمر بزيادة ركعة احتياطاً ثم زيادة أخرى وهي سجدة السهو لينقلب العدو مهزوماً خائباً بما أمله وقد بين ذلك صلى الله عليه وسلم في غير هذا الحديث حيث قال فانها ترغم للشيطان يعني السجدتين اللتين للسهو

وفيه دليل: لأهل الصوفة لأنهم أخذوا بدوام الاشتغال وعدم الالتفات إلى حديث النفس وغيرها لأن هذا المصلي ما طرأ عليه النسيان إلا من جهة التفاته إلى حديث العدو وبما ذكره به وميله إليه وقد ذكر عن بعضهم أنه كان في أول رياضته إذا مر به خاطر غير الرباني ضرب نفسه بعضى أو قضيب فلربما كان يكسر على نفسه في اليوم الواحد حزمة أو حزمتين من القضبان حتى استقام له خاطره بدوام الاقبال على مولاه من الله بذلك علينا بمنه وقد قال

إذا كنت ملتفتاً إلى سواه فجوابك ذلك عن أن تراه

ولن تحظى بحضرة قدسه حتى لا ترى إلا إياه

((حديث الالتفات في الصلاة))

(١٨١)

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ تَلَفَاتِ الرَّجُلِ فِي الصَّلَاةِ فَقَالَ هُوَ اخْتِلَاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلَاةٍ أَحَدُكُمْ

ظاهر الحديث الاخبار بأن التلفات الرجل في صلاته نقص يأخذه الشيطان منها والكلام عليه من وجوه ((منها)) أن يقال هل هذا خاص بالرجال أو ذلك سواء للرجال والنساء ولم قال يختلسه الشيطان ولم يعبر بيسرقه أو يغصبه أو غير ذلك مما يشبه هذه الألفاظ وهل يعنى بالالتفات هنا الحسى ليس إلا أو الحسى والمعنوى معا أو أيهما كان فهو خلاصة ((الجواب)) عن الأول هل هو خاص بالرجال

أم لا فليس خاصا بالرجال دون النساء بدليل إن النساء شقائق الرجال في جميع التعميدات لكنها سألت عن الرجال لسكون الرجال أكثر قوة في الدين في الغالب فيكون من باب الاخبار بالأعلى عن الأدنى فإذا كان ذلك في الرجال فمن باب أخرى في النساء ((وأما الجواب)) عن قوله خلصة ولم يذ كر غيرها من الألفاظ فإن المختلس هو الذي يتخطف المال من غير غلبة ولا قوة ويعتمد الهروب وذلك مع معاينة المالك له والسارق يأخذ في خفية والظالم يأخذ بقوة فلما كان الشيطان يشغل هذا عن صلاته بأن يلتفت إلى غيرها وعقله معه بلا حجة أقامها له على ذلك أشبه المختلس الذي يأخذ الشيء بالحيلة والناس يبيصرونه ولذلك يقول يوم القيامة كما أخبر عنه في كتابه العزيز (وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم)

وفيه دليل : على التعبير عن المعاني بمثل ما يعبر عن المحسوسات يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام يختلسها والشيطان لم يأخذ شيئا محسوسا من صلاة المصلي وإنما أخذ منها معنى من معانيها في زمان ما وهو عدم حضوره حين التفاته

وفيه دليل : على أن من حصل له شيء من الأشياء حسا كان أو معنى بحيلة غير محققة أنه يصدق عليه اسم مختلس يؤخذ ذلك من كون الشيطان احتال على المصلي حتى وقع له الخلل في صلاته وهو مقصود العدو فسماه سيدنا صلى الله عليه وسلم مختلسا وهنا ((سؤال)) وهو أن يقال لم جعل في السهو في الركعات جبر كما تقدم في الحديث قبل ولم يجعل لهذا الالتفات جبر ((فالجواب)) والله أعلم لما كان شكه في عدد الركعات نسيانا من أجل ذلك احتال عليه الشيطان بتذكيره له ما قد كان جرى من الأمور والله سبحانه وتعالى قد تفضل علينا بأن لا يؤاخذنا بالنسيان جعل لنا البدل مما وقع من الخلل ولما كان هذا الالتفات بالقصد من المصلي وعقله معه لم يجعل له بدل منه تغليظا وتحريضا على التزام الأدب في العبادة ومما يشبه ذلك قوله صلى الله عليه وسلم «أسوء السرقة الذي يسرق صلاته قالوا وكيف يسرق صلاته يا رسول الله قال لا يتم ركوعها ولا سجودها» ((وأما قولنا)) هل أراد بالالتفات الحسى أو المعنوى أو مجموعهما فظاهر الحديث يعطى أنه الحسى وإذا كان الحسى فالمعنوى معه لارم وبقى الكلام على المعنوى فاذا نظرنا إلى قوله صلى الله عليه وسلم في حديث غيره «إن الله لا يقبل صلاة امرء حتى يكون قلبه مع جوارحه» فيكون الالتفات المعنوى مثل الحسى ويعنى بالمعنوى ما يكون في القلب من الالتفات إلى غير ما هو بسبيله وقد قال بهذا جماعة من العلماء لأنهم يقولون إن دوام الحضور في الصلاة فرض واجب وهو عدم الالتفات والجمهور على أن دوام ذلك شرط كمال وإنما الفرض فيه من أول العمل وآخره على قول

وفيه دليل : على أن كل ما يكون من الخلل في الصلاة أنه من تسويل الشيطان يؤخذ ذلك من

الحديث الذي قبل هذا مع هذا الحديث إذا جمع إليه لأنه في الذي قبل شغله بالحديث حتى أنساه وهنا لم يتعرض له في الحديث فكان أصل المسكيدة خفية حتى أخبر بها الصادق صلى الله عليه وسلم فعلى هذا فكل ما نجد في الصلاة من خلال نعلم أنه من العدو علينا سببه أو لم نعلمه

وفيه دليل : على ما من الله به على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من كثرة اطلاعه على غوامض كثيرة من الغيوب ولولا ذلك ما كان عليه الصلاة والسلام يخبر عن مثل هذا وأعداد من أمثاله وفيه دليل : على كثرة لطف الله تعالى بنا يؤخذ ذلك من إرسال هذا السيد صلى الله عليه وسلم رسولاً إلينا حتى يخبرنا بهذه الفوائد كلها حتى نعرف كيف نتحرز من عدونا وكيف الخلاص من مكائده جمعنا الله من خلجه منها بفضلله لأرب سواه

(١٨٢) ﴿حديث الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان﴾

عَنْ أَبِي قَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللَّهِ وَالْحَلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ فَإِذَا حَلَمَ أَحَدُكُمْ حَلْمًا يَخَافُهُ فَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ وَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّهُ

ظاهر الحديث يدل على حكمين أحدهما الأعلام بأن الرؤيا الصالحة من الله تعالى والآخرة الأخبار بأن الحلم من الشيطان وتعليم المخرج منها والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال ما معنى قوله من الله وما معنى الصالحة وما معنى الحلم والكلام على كيفية الاستعاذة منها وما الحكمة في البصاق عن اليسار ﴿فأما الجواب﴾ عن قوله عليه الصلاة والسلام من الله أي هي حق لا شك فيها لأن كل ما هو من عند الله لا شك في أنه حق ولذلك قال (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) وأما قوله عليه الصلاة والسلام ﴿الصالحة﴾ فكل ما فيها خير فهي صالحة في غالب الحال كما قال شعيب عليه الصلاة والسلام لموسى عليه الصلاة والسلام (ستجدني إن شاء الله من الصالحين) أي لا ترى مني إلا شيئاً تسره وفيه صلاح لك وأما قوله ﴿الحلم﴾ فالحلم ما فيه تهويل للنفس وتخويف وهو على قسمين ما فيه تهويل وتخويف على النفس وليس يدل بوضعه على شيء يضر ومنه ما يدل على شيء يضر ومن أجل ذلك قال صلى الله عليه وسلم بعد ﴿يخافه﴾ ليفرق بين ما يدل على ضرر وبين ما لا يدل على ضرر ولذلك قالوا للعزيز (أضغاث أحلام) وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) ويأزم على هذا من الفقه أن يكون الذي رأى الرؤيا عارفاً بالتعبير وإلا قد تكون الرؤيا في نفسها مهولة وهي تدل على خير مثال ذلك أن ترى شخصاً يضرب آخر بالسوط ويوجهه ضرباً فان الضارب يولى للضروب معروفاً على قدر ضربه من شدة أولين وقد يكون بعكس معناه فتكون حسنة في نفسها وهي تدل على ضد ذلك مثاله أن ترى شخصاً يعمل لشخص عرساً أو وليمةً ويطعمه حلوةً وطعاماً بلحم سميناً فان

المطعم الطعام يفعل بالذي أطعمه أو فرحه شرا بقدر حسن الحلاوة وطيب اللحم فكلما كثر الحسن في ذلك كثر القبح في الشر الذي ينال منه وما أراد الشارع صلى الله عليه وسلم بالحسن وضده إلا المعنى الذي يتضمنه نفس الواقع في النوم بوضعه ففقهه من لا يعرف في التعبير شيئا أن يتعوذ مما لا يعرف لها معنى من أجل أن تكون مما تدل على مكروهه فإن كانت تدل عليه فيندفع عنه ذلك المكروه باتباعه الأمر وهذا من باب سد الذريعة لأن الاحتياط كله من هذا الباب وهو الأولى ولا يجوز له أن يعبر الرؤيا بغير علم لأنها من النبوة وما كان من النبوة فلا يجوز أن يهزأ به لأن الحكم علم هزء وتجرء على ما لا يجوز وكذلك كان سيدنا صلى الله عليه وسلم كل يوم إذا صلى الصبح يدور بوجهه إلى الصحابة رضوان الله عليهم ويقول هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا فمن رأى منهم شيئا ذكره وفسر لهم ليعلمهم علم التعبير وكما قال يوسف عليه الصلاة والسلام (ذلكم مما علمني ربى) يعنى به علم تعبير الرؤيا وقد يكون من الرؤيا ما يؤلم النفس وهو حق فقدم قال العلماء أنه إذا كانت حقا وامتثل الرائي ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم فانه لا تضره ويصرف الله تعالى عنه ببركة السنة تلك الأمور المشوشة لأنه صلى الله عليه وسلم ما بحث إلا رحمة وهو عليه الصلاة والسلام يعلم أن في الحلم وهو كل ما فيه تهويل وتشويش على النفس ما هو حق فحماها كلها عليه الصلاة والسلام محلا واحدا وجعلها من الشيطان لكون أن هذا هو الغالب فيها والشرعية إذا تأملت إنما أطلقت الأحكام على الغالب في جميع الأمور رحمة من الله تعالى وتوسعة على عبده فجعل المخرج من السلك واحد وهو الاستعاذة بالله (وهنا بحث) لطيف أيضا في كونه صلى الله عليه وسلم جعله أعنى الحلم من الشيطان لأن أصل كل ما يصيب المرء من البلاء والمحن في الغالب إنما هو مما اجتري به الشخص على نفسه وأن الله تعالى يقول (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) ويعفو عن كثير وقال عز وجل (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة) وأصل المخالفات إنما هي من وسواس الشيطان وتسويله لأن الله عز وجل يقول في كتابه (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) فقام ذكر اسم الله سبحانه في هذا الموضع مقام التوبة والاضطرار فالتوبة تجب ما قبلها والمضطر مستجاب له بمقتضى الوعد الجميل وهو قوله تعالى (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء) رحمة من الله تعالى ونعمة لمن قبلها فلذلك قال عليه الصلاة والسلام لا تضره (وأما الجواب) على ما الحكمة في أن يهتق على يساره فلا أن فيه خزيا للشيطان لأن جانب الشمال هو مقعده ووجه آخر لأن ريق المؤمن شفاء وفيه أيضا إحراق للشيطان لأنه لا يحمله فيكون بصاقه ينشأ عنه تألم الشيطان وطرده له من أجل أن لا يعود إلى تخويفه ثانيا وقد تكون للجموع عوز يادة والله أعلم وفي قوله عليه الصلاة والسلام «وليتعوذ بالله من شرها» دليل على ما قدمناه من أن المقصود من الرؤيا ما تدل عليه لانفس الرؤيا

((وهنا بحث)) وهو أن يقال هل هذا على همومه أم لا الظاهر يعطى العموم والبحث يعطى التخصيص لأنه إذا كان المرأى شيطاناً في نفسه كيف يفر منه الشيطان وما يؤيد ما أشرنا إليه قوله ((منكم)) يعني من هو على طار يقم الذي تقتضيه حقيقة الايمان فلو كان عليه الصلاة والسلام عنى بقوله منكم جنس بني آدم لكان الكفار والمنافقون يدخلون تحت هذا ولا قائل به فما بقي إلا التخصيص بأن يعنى به المؤمنين ولذلك قال عليه الصلاة والسلام في حديث آخر «الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له» ولا يعترض علينا ببعض مرأى رآها بعض الكفار ورؤيت عنهم وخرجت حقاً والا انفصال عنه أن تقول ذلك نادر والنادر لا حكم له وفيها وجه آخر وهو أنه إذا تأملت تلك المرأى التي رثيت عن بعض الكفار إنما الفائدة فيها للمؤمنين غالباً مثل المرأى التي رآها بعض كفار مكة قبل خروجهم إلى قتال سيدنا صلى الله عليه وسلم هي من جملة النعمة لهم والظهور لسيدنا صلى الله عليه وسلم وكذلك نجد كل واحدة منها الجبر فيها للمؤمنين وفيه دليل : على عظيم قدرة الله تعالى يؤخذ ذلك من كون المرأى ترى فيها تماثيل وأشكال تدل على أشياء وتخرج في عالم الحس كذلك وقد قال أهل العلم بهذا الشأن أنه لا يقع لأحد شيء في هذا العالم إلا وقد رآه في النوم وعقله من عقله وجهله من جهله قال تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يبين لهم أنه الحق) والحمد لله رب العالمين

(١٨٣) ((حديث ثواب من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له كل يوم مائة مرة))

عن أنى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في كل يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتب له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك

نظائر الحديث يدل على حكمين أحدهما الاخبار بأن من قال لا إله إلا الله مائة مرة كان له هذا الأجر العظيم وهو ثواب عتق عشر رقاب ومائة حسنة زائدة على ذلك ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك والحكم الآخر الاخبار بأن ذلك أرفع الأعمال ولا شيء من الإهمال أرفع منه إلا الزيادة على ذلك العدد والكلام عليه من وجوه

((منها)) أن يقال ما الحكمة بأن جعل هذا الثواب محدوداً بهذا العدد هل يمكن له فهم أو هو مما لا يفهم له معنى ومنها الكلام على قوله حتى يمسي ما هو حد المساء هنا ومنها لم يفضل هذا العمل على كل الأعمال من حج وجهاد وصوم وصدقة وغير ذلك من أفعال الخير وهل من قال بعض العدد مثل

النصف أو أقل أو أكثر هل يكون له من الثواب بتلك النسبة أم لا ﴿فأما الجواب﴾ على قولنا بالحكمة بأن جمل هذا الأجر العظيم منوطاً بهذا العدد المسمى وهي المائة مرة فإن قلنا تعبدنا فلا بحث وإن قلنا له وجه من الحكمة فما هو فتنقوله والله أعلم أنه لما أخبرنا الصادق صلى الله عليه وسلم إن الله عز وجل جعل الرحمة في مائة جزء فأخرج منها إلى الدنيا واحدة وأدخر بقضله التسعة والتسعين للمؤمنين في الآخرة فمن جملة الرحمات بالمؤمنين في تلك الدار النجاة من النار ودخول الجنة والتمتع بها وبما فيها فإنه من عوفي من النار أدخل الجنة لا محالة لقوله صلى الله عليه وسلم ليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار ومن جملة ما من الله عليهم في هذه الدار أن عوفوا من الشيطان لأنهم إذا عوفوا من الشيطان فقد دخلوا في ضمن قوله تعالى ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ فجعلهم من أهل الخصوص وهم أرفع الناس وقد أخبر الصادق صلى الله عليه وسلم أن الحسنه بعشر أمثالها فإذا قالها مائة مرة كانت له بألف فبكل مائة التي هي مبالغ عدداً جزاء الرحمة المتقدم ذكرها وجب له بالفضل ما تضمنته تلك الأجزاء على ما تقدم البحث وهو النجاة من النار والنجاة من النار من لازمها دخول الجنة كما تقدم منا وذلك ما انتهت بالمؤمنين جميع تلك الأجزاء التي قسمت عليها الرحمة أعني في الدنيا والآخرة منتهاه دخول الجنة وعبر عليه الصلاة والسلام عن ذلك بحقق الرقبة لأنه صلى الله عليه وسلم قد أخبر أنه من أعتق رقبة أعتقه الله بها من النار بكل عضو منها عضواً من معتقها وزاده من فضله نحو المائة سيئة وزيادة مائة حسنة وعصمه يومه ذلك من الشيطان لأنه عز وجل يقول وهو أصدق القائلين ﴿ويزيدهم من فضله﴾ بعد ما أخبر بالتضعيف في الأجور أخبر أنه يزيدهم من فضله والكل من فضله من الله علينا به بفضله وأما حد المساء هنا فهو محتمل أن يريد به آخر وقت المساء وهو مغيب الشمس واحتمل أن يريد به وقت المساء وهو زوال الشمس لأن العرب تسمى من زوال الشمس إلى غروبها مساءً وقد تسمى الكل بالبعض والبعض بالكل لكن قد جاء في حديث آخر ما يدل أنه إلى آخر المساء وهو غروب الشمس لأنه عليه الصلاة والسلام قال وإن قالوا في ليلة لم يضره الشيطان حتى يصبح ولا يقال أصبح إلا حتى يطلع الفجر فكما يكون في الليل إلى آخره فكذلك يكون في اليوم إلى آخره وهو غروب الشمس ويعطى ذلك أيضاً قوة الكلام لأنه جاء عن طريق المن والافضال وما هو على هذا الوجه لا يكون إلا على كل ما ينطلق عليه اللفظ ولوجه آخر وهو إذا كان الحد من جنس المحدود دخل فيما حد كما تقول بعثك هذا الثواب من الطرف إلى الطرف فالطرفان داخلان في البيع و﴿أما قولنا﴾ لم نفضل هذا العمل على ما عداه من أهمال البر من صوم وصلاة وحج وغير ذلك من أفعال البر لأنه صلى الله عليه وسلم قد نفي بقوله لم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك يعني أكثر من المائة مرة عدداً فنفتته الفضيلة هما سواء أثبت

الفضيلة له (فالجواب) أن اللفظ عام ومعناه الخصوص فتكون في النوافل لا غير لقوله صلى الله عليه وسلم إخبارا عن ربه عز وجل ولن يتقرب إلى المتقربون بأحب من أداء ما افترضت عليهم ثم لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه» وقوله صلى الله عليه وسلم في الصلاة دفن جاء بهن لم يضيع منهن شيئا استخفافا بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة» وجلها فرقا بين الكفر والايان والآي والأحاديث في ذلك كثير فتخصص عموم اللفظ بما ذكرناه وبقي هذا خاصا بأنه أفضل المندوبات وإذا كان ذلك كذلك فيحتاج إلى البحث في ما العلة في تفضيل هذا الذكر الخاص على جميع المندوبات من أنواع أفعال البر فنقول والله الموفق لما كان أعلا الواجبات وآكدها قول لا اله إلا الله والاقرار له سبحانه وتعالى بالوحدةانية ونفي الضد والند والشريك والصاحبة وجميع النقائص ووصفه بجميع أوصاف الكمال والجلال على ما يليق بجلاله تبارك وتعالى علوا كثيرا وجاءت جميع المفروضات كلها تابعة لها بعد ولذلك قال صلى الله عليه وسلم أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله إلا الله ومعناه على الحمد الذي طلب منهم فيها كما تقدم وصفه فلما كانت في الفرائض لم يأت أحد بأفضل منها فكذلك هي في المندوبات لا يأتى أحد بأفضل منها لأن هذه الصيغة المذكورة في الحديث تضمنت ما أشرنا إليه من أوصاف الكمال لجلاله سبحانه ونفي ضدها وتكرارها مائة مرة تأكيد على تأكيد وتأكيد وصف الجلال زيادة جلال وإن كان جلاله سبحانه لانهاية له لكن هذا بحسب ما نعرفه من جهة التخاطب بيننا وبذلك تعبدنا فبان ما قاله الصادق صلى الله عليه وسلم لأنه لم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا من جاء بزيادة على العدد المذكور فانه زيادة في التأكيد وما هو زيادة في التأكيد فهو زيادة في الترفع كما تقدم (وأما قولنا) من قال بعض العدد هل يكون له بنسبة ذلك من الأجر المذكور فاعلم أن الأجور في الأعمال والعقاب على الذنوب لا يؤخذ بالعقل ولا بالتقدير لأنه ليس لعلة عقلية ولا علية كما قدمنا أول الكتاب فكل ما ليس فعله لعلة فلا يدخله تقدير ولا يحكم عليه بالقياس وإنما هو متوقف على الشارع صلى الله عليه وسلم فبعد تحديده عليه الصلاة والسلام ينظر هل يفهم الحكمة فيه أم لا فان فهمناها بدليل شرعى شكرنا الله على ذلك وإلا قلنا تعبدنا لا يعقل له معنى وهنا وقعت العقول وحارت الأذهان وذلت الرقاب وإن كان قد جاء في الأحاديث من قالها أقل من هذا العدد فله أجر أقل من هذا فمنها قوله صلى الله عليه وسلم فيمن قالها مرة واحدة كان له أجر عتق رقبة وكتب له عشر حسنات وحيت عنه عشر سيئات وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي أو كما قال عليه الصلاة والسلام فصيح باختلاف الأحاديث أن ذلك لا يؤخذ بالتقدير ولا بالعقل لأنه قد جعل في الواحدة عتق رقبة واحدة وفي المائة عتق عشر رقاب فلا نسبة لها من جهة العقل ولا من جهة القياس بل هو فضله عز وجل يؤتيه من يشاء كيف يشاء جل جلاله

وفيه دليل : على تفضيل أهل الصوفة يؤخذ ذلك من جملة هذا الأجر العظيم لمن قال هذا القول مائة مرة فكيف بمن هو يومه كله هكذا لا يفتر إلا عند أداء فرضه أو ضرورة البشرية فان طريقهم مبني على دوام الذكر والحضور (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) وهم في ذلك متبعون لسنة سيدنا صلى الله عليه وسلم لأنه جاء في وصف حاله عليه الصلاة والسلام أنه كان طويل الصمت كثير الذكر وعلى هذا بنوا طريقهم وقد قال صلى الله عليه وسلم «ما عمل آدمي من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله» وهذا الذكر الذي يبلغ به العبد هذا الحال إنما هو بعد أداء الفرض لأن مانحن بسبيله هو كله من باب المندوب وجميع المندوب كله لا يقوم بفريضة واحدة فكيف بالمتعددة وكذلك لم يأخذ القوم في مثل هذه المندوبات حتى أكلوا فروضهم التي هي الأصل في الدين وحينئذ أخذوا فيما ذكرنا وقد وقع بعض الناس في العكس بالسواء فسمعوا مثل هذا الحديث وشبهه فأكثروا من المندوبات وضيعوا كثيرا من الواجبات فصاروا كما قال صاحب الأنوار «ردوا الأصول فروعاً والفروع أصولاً» معناه أنهم حافظوا على المندوبات كما حافظ أهل التوفيق على الواجبات وزهدوا في الواجبات وتعلقوا في ذلك برجاء فضل الله تعالى وقد قال جل جلاله (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله) وقال عز وجل (نبي عبادي أنا أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم) فنسأله جل جلاله التوفيق إلى أداء فرضه والاجتهاد في أعمال ما ندبنا إليه وقبول ذلك والسعادة به بمنه لا رب سواه

﴿حديث كراهية صيام الدهر﴾

(١٨٤)

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أني أقول والله لا صوم من النهار ولا قوم من الليل ماعشت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت الذي تقول والله لا صوم من النهار ولا قوم من الليل ماعشت قلت قد قلت قال إنك لا تستطيع ذلك فصم وأفطر وقم ونم وصم من الشهر ثلاثة أيام فإن الحسنة بعشر أمثالها وذلك مثل صيام الدهر فقلت إني أطيق أفضل من ذلك قال فصم يوماً وأفطر يوماً فقلت إني أطيق أفضل من ذلك قال فصم يوماً وأفطر يوماً وذلك صيام داود وهو أعدل الصيام قلت إني أطيق أفضل من ذلك يا رسول الله قال لا أفضل من ذلك ظاهر الحديث إخباره صلى الله عليه وسلم بأن أفضل صوم التطوع أن يصام يوم ويفطر يوم وإخباره بأنه كان صوم داود عليه الصلاة والسلام والسلام عليه من وجوه

(منها) أنه لا يجوز الحكم إلا على الأمر الذي لا يحتمل التأويل يؤخذ ذلك من أنه لما أخبر صلى الله عليه وسلم بما قاله عبد الله أنه يصوم النهار ويقوم الليل ما عاش لم يخبره عليه الصلاة والسلام بعدم طاقته هل ذلك ولا بما هو الأفضل في الصوم إلا حتى استفسره بأن قال له أنت الذي تقول والله لأصوم من النهار ولأقوم من الليل ما عشت» فلما اعترف له عبد الله بذلك حيث أنه أخبره بما هو الأفضل وفيه دليل : على أن من السنة إيهال أخبار الرعية إلى راعيها يؤخذ ذلك من كون سيدنا صلى الله عليه وسلم أخبر بمقالة عبد الله فلولا ما كان ذلك عندهم معلوما ما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ويترتب عليه من الفقه أن يستعمل ذلك في كل من له رعاية على أحد صغيرا كان أو كبيرا وفيه دليل : على جواز اليمين على ما يريد المرء أن يفعله من المندوبات يؤخذ ذلك من قول عبد الله والله لأصوم من النهار فلما بلغ ذلك سيدنا صلى الله عليه وسلم لم يعنفه على ذلك وسكت عن كونه حلف وسكوته عليه الصلاة والسلام دال على جوازه

وفيه دليل : على جواز الذكر بين الاخوان بأنواع العبادات وأن يسدى الشخص لهم ما وقع عزمه على فعله من أى أنواع العبادات شيئا يؤخذ ذلك من ذكر عبد الله ذلك حتى بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبره ولم يقل له في ذلك شيئا فدل على جوازه

وفيه من الفائدة : أن ذكر ما عزم المرء عليه من أفعال البر بين إخوانه هو من باب التذكير بالخير والتعاون عليه لأن عند ذكر العزم على ذلك قد تنبعث نفوس الغير إلى مثل ذلك أو إلى ما يقرب منه فيدخل في قوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) إلا أنه بشرط أن يكون الاخوان يعلم منهم ذلك لأن الصحابة رضی الله تعالى عنهم ذلك كان شأنهم أجمعين

وفيه دليل : على فضل الصحابة وضوان الله عليهم أجمعين وعدم تملقهم في الكلام وقصدهم الفائدة لا غير يؤخذ ذلك من أنه لما سأل سيدنا صلى الله عليه وسلم عبد الله بأن قال له أنت الذي تقول لم يردده في الجواب على أن قال له قد قلت بلا زيادة من اعتذار ولا تمأق وقوله صلى الله عليه وسلم «إنك لا تستطيع ذلك» (هنا بحث) هل هذا خاص بعبد الله لما يعلم صلى الله عليه وسلم من حاله أو هذا لجنس البشر احتمل الوجهين معا والأظهر والله أعلم أنه لجنس البشر لقوله عليه الصلاة والسلام في حديث غيره «ان المنبت لأرضا قطع ولا ظهرا أبقى» ولقوله عليه الصلاة والسلام عن معاذ بن جبل لصاحبه «هو أفقه منك» وقد تقدم ذكره في غير ما موضع من الكتاب

وفيه دليل : على أن الأمر بما فيه راحة النفوس إذا كان عوناً على الطاعة يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام «أفطروا» فانهم اعون على القيام والصيام

وفيه دليل : على أن صوم يوم تطوعا بعشرة أيام يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم «صم

من الشهر ثلاثة أيام فإن الحسنة بشهر أمثاتها وذلك مثل صيام الدهر»

وفيه دليل : على ضرب المثال بممكن لا يقع ليعلم بذلك المثال فائدة ما يؤخذ ذلك من قوله عليه الصلاة والسلام «وذلك مثل صيام الدهر» ومن المعلوم قطعاً أن من الدهر ما لا يجوز صومه مثل أيام الأعياد وأيام التشريق ومنه ما لا يصام قطوعاً أصلاً وهو رمضان وما يترتب من طريق النذر والكفارات الواجبات شرعاً مثل الفرض لا يمكن صومها قطوعاً أصلاً وقد أطلق عليه الصلاة والسلام على الجميع الدهر في المثال فيكون التقدير فيه أن يتأتى صومه أو ما عدا ما فرض صومه فلا بد فيه من ضمير تخصيص عمومه

وفيه دليل : على أن السنة في الراعي أن يحمل رعيته على الأرفق في الأمور يؤخذ ذلك من أن سيدنا صلى الله عليه وسلم لم يأمره أولاً إلا بالآقل من الصوم فإنه أرفق ويقدر عليه القوى والضعيف وفيه دليل : على جواز مراجعة المسترعى راعيه بطلب الزيادة في المجاهدة إذا علم من نفسه أهلية لذلك يؤخذ ذلك من قول عبد الله بن أبي أظيق أفضل من ذلك إلا أنه يكون بأدب كما فعل هذا السيد لأنه لم يزد أن أخبر عن نفسه أنه يطيق أفضل من ذلك ولم يقل إنى أفعل أكثر مما قلت وإنما أخبر بما يطيقه وبقي ينظر بماذا يؤمر ويترتب عليه من الفقه أن يكون ذلك في سائر الأمور يخبر راعيه بما هو الأصح له بحسب حاله حتى يرى بماذا يأمره راعيه

وفيه دليل : على أن الدين مطلوب بفروضه وندبه يؤخذ ذلك من أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أمر عبداً لله بالصوم من كل شهر بثلاثة أيام ثم درجه إلى العشر فكفى بذلك دليلاً على طلبه وفيه دليل . على المنع من التغالي في الدين يؤخذ ذلك من منعه صلى الله عليه وسلم ما زاد على الأفضل وهو صوم شطر الدهر بقوله عليه الصلاة والسلام «لا أفضل من ذلك» فأجاز له ما كان أقل من الشطر لكونه راعى الأهلية في ذلك ولما بلغ الأفضل وادعى أنه فيه الأهلية للزيادة على ذلك منعه عليه الصلاة والسلام بقوله لا أفضل من ذلك فإن الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا إذا سمعوا منه صلى الله عليه وسلم لا أفضل يزيدون على ذلك شيئاً وإنما كان قصدهم الأفضل في الأعمال فقام قوله عليه الصلاة والسلام لا أفضل مقام المنع من ذلك

وفيه دليل : على أنه إذا تعهدت القاعدة الشرعية وعلمت لا يحتاج إلى تكرارها يؤخذ ذلك من أنه لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بحلف عبد الله أنه يقوم الليل ويصوم النهار أخبره صلى الله عليه وسلم بفعل الأفضل وهو ضداً حلف عليه ولم يقل له كفر عن يمينك لأن هذه القاعدة عندهم قد ثبتت فلم يحتاج إلى أن يذكر له ذلك

وفيه دليل : على أن الفضيلة في الأعمال بحسب ما جعلها الشارع صلى الله عليه وسلم لا بحسب العقل

يؤخذ ذلك من قول عبد الله لما قال له النبي صلى الله عليه وسلم صم يوما وافطر يوما قال له إني أطيق أفضل من ذلك لما تقدم له ان الزيادة على الثلاثة أفضل فرأى أن الزيادة على الشطر أفضل فأخبر الشارع صلى الله عليه وسلم بأن تلك الزيادة نقص لافضيلة فيها بقوله عليه الصلاة والسلام لا أفضل من ذلك فذهب هنا ما قاسه عبد الله

وفيه دليل : على أن عظم الأجر في العبادات ليس بكمثرة التعب يؤخذ ذلك من كون عبد الله ظن زيادة المجاهدة وهي زيادة الصوم على شطر الزمان أفضل فمنع صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله لا أفضل من ذلك وفيه دليل : على أن الحكم لاستصحاب الحال حتى يرد ناسخ من الشارع صلى الله عليه وسلم يؤخذ ذلك من أن عبد الله لما رأى الزيادة على الثلاثة أفضل استصحب ذلك الحكم حتى جاوز شطر الزمان فمنع الشارع عليه الصلاة والسلام ذلك ونسخه بقوله لا أفضل من ذلك وفيه دليل : لمن يقول أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد عليه ناسخ يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم وذاك صيام داود عليه الصلاة والسلام

وفيه دليل : على فضل السنة واتساعها حتى يدخل فيها القوى والضعيف يؤخذ ذلك من تدريج سيدنا صلى الله عليه وسلم صوم اتطوع من العشر في الزمان الذي هو ثلاثة أيام في الشهر إلى النصف منه وهو صوم يوم وإفطار يوم وما بين هذين الحدين توسعة كبرى يتسع فيها جميع الناس على اختلاف أحوالهم وفيه دليل : على التسوية بين أيام الشهر بلا فضيلة بينها يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم «ثلاثة أيام من كل شهر» بغير تعيين وجعل الأجر فيها سواء

وفيه دليل : على أن تفريقها أعنف أيام الصوم في الشهر أو متابعتها في الأجر سواء يؤخذ ذلك من قوله ثلاثة أيام من كل شهر ولم يذكر فيها متابعا ولا تفريقا فدل أن الأمر في ذلك سيات

(حديث احب الصيام إلى الله تعالى صيام داود عليه السلام) (١٨٥)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ صِيَامُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيَفْطُرُ يَوْمًا وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ

ظاهر الحديث يدل على حكمين أحدهما الإخبار بأن أحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود عليه الصلاة والسلام والآخر الإخبار بأن أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه الصلاة والسلام أيضا وتبيين صفتهما والكلام عليه من وجوه

(منها) أن يقال ما معنى قوله أحب وما معنى الحكمة في ذلك حتى كانت هذه الصفة أحب

ومنها تعارض صومه صلى الله عليه وسلم لهذه الصفة لأنه صبح عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يصوم حتى يقال أنه لا يفطر ويفطر حتى يقال أنه لا يصوم وما استكمل شهرا بالصوم قط إلا رمضان وقد جاء عنه عليه الصلاة والسلام إن من أدام الصوم ضيق عليه النار وكيف الجمع بين هذه الأحاديث وهل يكون ذلك تعارضا أم لا أما قوله صلى الله عليه وسلم ﴿أحب الصيام إلى الله﴾ فقد تقدم الكلام على هذه اللفظة في غير ما حديث وهي كناية عن فضيلة العمل وكثرة الثواب عليه فإن الحب الذي هو الولوج في الشيء في حق الله سبحانه مستحيل فإن هذا من صفات المحدثات والحق سبحانه وتعالى منزّه عنها وإنما يعنى بالحب ما يصدر عن الكرام إذا أحبوا الشيء وأعجبهم عن كثرة إحسانهم وإفضالهم على فاعله من هنا يكون الشبه لا غير وفيه تحقيق لما قدمناه في الحديث قبل من أن الأجور على الأعمال ليست موقوفة على كثرة التعب والمشاق وإنما هي بحسب ما تفضل به المولى سبحانه ﴿وأما قولنا﴾ هل نفهم الحكمة في تفضيل هذه على غيرها وإن كثرت التعب فيها فقد نصر الكتاب العزيز على معنى العلة في ذلك وهو قوله عز وجل ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾ وقال الله تعالى ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ فنفهم هاتين الآيتين علما ما الحكمة في ذلك وهي أن الحكمة الربانية قد أحكمت أنه لا بد لكل دعوى من حقيقة تبينها فلو كان الدين والقرب من الله سبحانه وتعالى بمجرد الدعوى ادعاه الناس كلهم فلما جعلت المجاهدات في العبادات جاءت مبينة لحقيقة تلك الدعوى فمن جاهد وصبر كان ذلك تحقيقا لما ادعاه وحصل له الفوز العظيم والأجر الكبير يدل على ذلك قوله تعالى ﴿الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ فافتضت صفة الرحمة الرفق بفضله عز وجل بعبئده بقوله عز وجل ﴿ما يفعل الله بعذابكم﴾ فما كان من المجاهدات فوق ما يطيقه وصف خلق البشرية منعه عز وجل بعدم الثواب الجزيل عليه وجعل المجاهدة التي تجعلها البشرية بوضع خلقها ولا كبير مشقة عليها أفضلها لأنه عز وجل غنى عنهم فيما تعبد بهم بها فكفهم منها إلا بقدر ما تصح لهم الدعوى بالانقياد لما أمروا به ولذلك قال تعالى ﴿ولأنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ وقد قال جل جلاله ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾ رحمة منه عز وجل بعباده ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ وأما كيف الجمع بين تلك الأحاديث وهل هو تعارض أم لا أما الذي جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يصوم حتى يقال أنه لا يفطر ويفطر حتى يقال أنه لا يصوم فظاهره التعارض وإذا حققت النظر فيه فليس بتعارض بل فعلة صلى الله عليه وسلم إشارة إلى التوسعة وأبقى للفضيلة على الحد الذي أخبر عن صوم داود عليه الصلاة والسلام ويكون معنى صومه عليه الصلاة والسلام أنه كان يصوم حتى يقال أنه لا يفطر ويفطر حتى يقال أنه لا يصوم فوصل الصوم بعضه ببعض ووصل الأكل بعضه ببعض ويكون يحفظ عدد الأيام في الصوم والأكل أن تكون سواء بسواء ولذلك نعتت عائشة

رضى الله عنها الأكل والصوم بنعت واحد وهو قولها ((حتى نقول أنه لا يصوم وحتى نقول أنه لا يفطر)) فيكون صومه عليه الصلاة والسلام شطر الدهر فكان عليه الصلاة والسلام يراعى في ذلك فقه الحال أيهما آره أرجح فعله فجاه فعله عليه الصلاة والسلام مع فعل داود عليه الصلاة والسلام سواء في مشاطرة الدهر في الصوم وزاد صلى الله عليه وسلم في ذلك فرائد منها التوسعة على أمته لأنه كثير من الناس لا يمكنهم صوم يوم وفطر آخر فممنهم من عدم القدرة ومنهم من له ضرورة لا يتأتى معها ذلك فان الضرورات كثيرة وأحوال الناس مختلفة فكان يفوت لبعض الناس الذين لهم هممة في الدين تلك الفضيلة ومنها اغتنام نشاط النفس في العمل وهو فقه الحال لأنه إذا رأى الشخص من نفسه نشاطا في العبادة يحتاج أن يغتنمه أو خلوا من شغل فيغتنمه أيضا أو دون ما على تلك العبادة من وجه ما فيغتنمه أيضا أوصحة في البدن ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «اغتنم خمسا قبل خمس فراغك قبل شغلك وصحتك قبل سقمك وحياتك قبل موتك وشبابك قبل هرمك وغناك قبل فقرك» ومنها أن يلحق في ذلك أصحاب الأعذار بغيرهم حتى لا تفوتهم تلك الفضيلة مثل ذلك الحائض لو كان صلى الله عليه وسلم يصوم مثل داود عليه السلام ما قدرت حائض من لها هممة في الدين تبلغ ذلك أبدا وعلى ما أشرنا من فعله عليه الصلاة والسلام تقدر على ذلك فان أيام حيضها وهو شطر الدهر وهو خمسة عشر يوما في الشهر فتكون تصوم أيام طهرها وهو نصف الدهر وتفطر أيام حيضها وهو شطر الدهر أيضا وفيه فوائد كثيرة من هذا لمن تأمله لأنه عليه الصلاة والسلام جاء بالتيسير في الأمور كلها فالخديشان مفترقان في الظاهر مجتمعان في المعنى فلا تعارض بينهما وأما قوله عليه الصلاة والسلام من أدام الصوم ضيق عليه النار» احتمل أن يكون معناه من أدامه على الوجه الأفضل حتى توفي على ذلك فيكون معناه المحافظة على دوام تلك العبادة حتى يموت وهو على ذلك الحال فذلك الشخص الذي تضيق عليه النار أي أنه لا يدخلها واحتمل أن يكون من أدام الصوم على ظاهره ويكون ثوابه أن تضيق عليه النار ولا يلزم من كونه تضيق عليه النار أن يكون أفضل من الذي يصوم يوما ويفطر يوما بل يكون الذي يصوم يوما ويفطر يوما أرفع منه وأعظم أجرا إلا أنه عليه الصلاة والسلام قد وصفه بصفة لم يصف بها هذا وهو قوله «أحب» ويكون مثل هذا كما قال عليه السلام «يدخل الجنة من أتى سبعون ألفا بغير حساب وهم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون» هذا هو ثوابهم وقد يكون من يسترق أعلامهم مثل الشهداء قد جاء أنهم يشفعون وكذلك جاء في العلماء العاملين أنهم يشفعون ومن منزلته أن يشفع في غيره أعلام من يدخل الجنة بغير حساب فان خيره مقصور على نفسه والآخر خيره متعدد فدل على علو منزلته أن يشفع وقد جاء أن من هذه الأمة من يشفع في مثل ربيعة ومضر وهذا من أعلا الناس درجة بعد الأنبياء عليهم السلام فلا تارض أيضا وإنما ذكرنا هذين الخديشين

«٦ - رابع بهجة»

لأنه رقع جملة من أهل العلم بمن ينسب إليه إشكال فاردنا إزالته ذلك وفيما بيناه كفاية في إزالته بفضل الله تعالى وفيه دليل : على حسن الدعاء إلى الخير يؤخذ ذلك من إختياره صلى الله عليه وسلم بخير الوجوه في الصوم وفي الصلاة بالليل ولم يقل لهم بعزيمة افعلوا كذا وساقه في طريق الاخبار عن من تقدم من الأنبياء صلوات الله عليهم اجمعين فجاء ارشاده عليه السلام في هذا الحديث بذكر أحوال من تقدم من الأنبياء عليهم السلام مثل القصص في القرآن وقد قال علماءنا إن كانت القصة تدل على عمل خير فقد طلب منك بالضمن وإن كانت تدل على ترك شرف فقد طلب منك تركه بالضمن أيضا ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها في صفته عليه السلام «كان خلقه القرآن» أي إنه كان يمشي في جميع شأنه كله على ما دل عليه القرآن وعلى أسلوبه

وفيه دليل . على أن كل ما تقدم من الشرائع الصوم والصلاة مشروعان فيه وفيه دليل . على التأسى بمن تقدم من الأنبياء عليهم السلام يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام «وأحب الصلاة إلى الله» وبين أنها الصفة التي كان يفعلها داود عليه السلام وكذلك الصوم ويقويه قوله تعالى حين ذكر الأنبياء ثم قال «فبهدهم اقتده» أي طريقهم اتبع (وهنا بحث) لو كانت هذه الصلاة التي صفتها أن ينام نصف الليل ثم يقوم ثلثه ثم ينام سدسه هي أفضل من غيرها فنقول والله الموفق لما كان المطاوب من العبادة الحضور فيها ومن المستحب فيها الاشتغال بها عند غفلة الناس وفي الأئمة التي اتخذتها الناس للراحات غالبا فكان قيامه بعد نصف الليل الأول فذلك الوقت الذي أشد ما يكون الناس فيه من الغفلة والنوم غالبا فكان التلبس لعبادة في ذلك الوقت مما يستحب ولأنه أيضا الوقت الذي يتجلى الحق سبحانه فيه بفضلته ويقول «هل من داع فاستجب له هل من مستغفر فاغفر له هل من تائب فانوب عليه» لأن العلماء قد اختلفوا متى يكون ذلك هل في الثالث الوسيط من الليل أو في الثلث الآخر منه فإذا كان القيام بعد نصف الليل الأول فقد أخذ من ثلث الليل المتوسط نصفه وأخذ من الثلث الآخر نصفه فحصل له الفضل في الزمان فكانت صلاته أحب (ويترتب) على هذا من الفقه أنه إذا كان عمل الشخص بوافق بين العلماء فهو أفضل من الذي فيه الخلاف ونومه السدس الآخر لأن يزول عنه تعب العبادة وتجم النفس وينشط لصلاة الصبح فان الحضور في الصلاة لا يكون غالبا إلا مع نشاط النفس وعدم تعبها ولذلك كان سيدنا صلى الله عليه وسلم يقول في اذان بلال وكان أذانه قبل الفجر «ان أذان بلال يوقظ النائم وينوم القائم» لأن من كان في تعبده مثل داود عليه السلام فذلك وقت نومه ومن غلبه النوم أو كان له عذر فلم يبق له لتأخير التهجود وقت فذلك وقت قيامه لورده وإلا فانه فضل قيام الليل وقد قال وردك حافظ عليه ولا تنكسل

وفضل قيام الليل فلا تجهل
وبماء استغفار اسحاره ذا غسل
وسخ ذنوب قد انقلت محمل
وناد بالهادي من يشرب وقل
فليس على المضطر سؤال من مفضل

﴿حديث أول مسجد وضع للصلاة﴾

(١٨٦)

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَتْ بَارِسُورَةُ اللَّهُ أَيُّ مَسْجِدٍ وَضَعَ أَوَّلًا قَالَ الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ قَالَتْ
 ثُمَّ أَيُّ قَالَ الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى قَالَتْ كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا قَالَ أَرْبَعُونَ ثُمَّ حَيْثُمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلَاةُ فَصَلِّ وَالْأَرْضُ لَكَ مَسْجِدًا
 ظَاهِرُ الْحَدِيثِ الْإِخْبَارُ بِثَلَاثَةِ أَحْكَامٍ الْوَاحِدُ مِنْهَا أَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ أَوَّلَ مَسْجِدٍ وَضَعَ لِلصَّلَاةِ
 وَالثَّانِي أَنَّ الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى وَضَعَ بَعْدَهُ وَبَيْنَهُمَا أَرْبَعُونَ وَالثَّلَاثُ جَعَلَتْ الْأَرْضَ لَنَا مَسْجِدًا وَطَهُورًا
 وَحَيْثُ مَا أَدْرَكَتْنَا الصَّلَاةُ نَصَلِّي وَالْكَلَامُ عَلَيْهِ مِنْ وَجْهِهِ

﴿مِنْهَا﴾ الدَّلِيلُ عَلَى فَضْلِ سَيِّدِنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَامْتِنَاعِهِ عَلَى مَنْ تَقَدَّمَ يَتَوَخَّذُ ذَلِكَ مِنْ تَيْسِيرِ الْعِبَادَةِ
 عَلَيْهِمْ بِأَنْ جَعَلَتْ لَهُمُ الْأَرْضَ مَسْجِدًا وَطَهُورًا وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِمَنْ تَقَدَّمَ ﴿وَمِنْهَا﴾ أَنْ يُقَالَ مَا مَعْنَى قَوْلِهِ
 مَسْجِدًا أَيُّ مَوْضِعٍ إِيْقَاعُ الصَّلَاةِ لِأَنَّ كُلَّ مَوْضِعٍ يَصَلِّي فِيهِ فَهُوَ مَسْجِدٌ أَيُّ مَوْضِعٍ لِلسُّجُودِ وَكَانَتْ الْأَمَمُ
 قَبْلَ لَا يَفْعَلُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا فِي الْمَوَاضِعِ الَّتِي بَنِيَتْ لَهَا

وَفِيهِ دَلِيلٌ : عَلَى أَنَّ تَخْصِيصَ الْأَشْيَاءِ لَيْسَتْ بِالِاسْتِحْتِقَاقِ وَإِنَّمَا هِيَ بِحَسَبِ مَا جَرَتْ حِكْمَةُ الْحَكِيمِ
 يَتَوَخَّذُ ذَلِكَ مِنْ أَنَّ الصَّلَاةَ قَبْلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَمْ يَكُونُوا يَرْقِعُونَهَا إِلَّا فِي مَوَاضِعٍ مُخَصَّرَةٍ وَجَعَلَتْ جَمِيعُ
 الْأَرْضِ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مَحَلًّا لِفَعْلِهَا فِيهِ

وَفِيهِ دَلِيلٌ : عَلَى أَنَّ حَسَنَ النِّيَّةِ فِي السُّؤَالِ تَعْقِبُ زِيَادَةَ خَيْرٍ عَلَى مَا قَصَدَهُ يَتَوَخَّذُ ذَلِكَ مِنْ كَوْنِ هَذَا
 الصَّحَابِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا سَأَلَ سَيِّدِنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُخْبِرَهُ عَنْ أَوَّلِ مَسْجِدٍ وَضَعَ أَوْ لَا فَزَادَهُ
 عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ بِأَنْ أَخْبِرَهُ بِهَذَا الْخَبَرِ الْعَظِيمِ وَهُوَ جَعَلَ الْأَرْضَ لَنَا مَسْجِدًا وَطَهُورًا
 وَفِيهِ دَلِيلٌ : عَلَى أَنَّ لِلْعَالَمِ أَنْ يُجَابَ بِأَكْثَرِ مَا سُئِلَ عَنْهُ يَتَوَخَّذُ ذَلِكَ مِنْ كَوْنِ السَّائِلِ سَأَلَ عَنْ أَيِّ
 الْمَسَاجِدِ وَضَعَ أَوَّلًا فَجَاوَبَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ذَلِكَ وَزَادَهُ الْإِخْبَارَ بِجَعْلِ الْأَرْضِ مَسْجِدًا وَطَهُورًا
 وَفِيهِ دَلِيلٌ : عَلَى أَنَّ فَصِيحَ الْكَلَامِ الْإِخْتِمَارُ فِي الْأَلْفَاظِ بِشَرْطِ أَنْ لَا يَخْلُ بِالْمَعْنَى يَتَوَخَّذُ ذَلِكَ
 مِنْ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ «ثُمَّ حَيْثُ مَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلَاةُ فَصَلِّ» وَالْمَقْصُودُ حَيْثُ مَا أَدْرَكَتْكَ وَقْتُ الصَّلَاةِ فَإِنَّ
 الصَّلَاةَ فَعْلٌ لِلْمَصْلِيِّ فَكَيْفَ يَدْرِكُهُ فَعْلُهُ هَذَا مُسْتَحِيلٌ فَلَهَا لَمْ يَكُنْ هَذَا الْأَمْرُ يُمْكِنُ فِيهِ النَّاسُ اخْتِصَرَهُ
 وَلَعَلَّهُ أَيْضًا بِأَنَّ الْمُخَاطَبَ فَهَمُّ عَنْهُ وَإِلَّا كَانَ يَزِيدُهُ فِيهِ بَيَانًا

وَفِيهِ دَلِيلٌ : عَلَى الْمَحَافَظَةِ عَلَى أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ يَتَوَخَّذُ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيْثُ «مَا أَدْرَكَتْكَ
 الصَّلَاةُ فَصَلِّ» أَيْ لَا تُؤَخِّرْهَا فَيَدُلُّ هَذَا بَعْضُهُ عَلَى الْمَحَافَظَةِ عَلَى الصَّلَاةِ وَيَدُلُّ أَيْضًا عَلَى التَّخْصِيصِ
 عَلَى الْمَحَرِّقَةِ بِأَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ لِأَنَّهُ مِنَ الْأَمْرِ لَا يَلِيْلُمْ وَقْتُهَا حَتَّى يَكُونَ لَهُ بِذَلِكَ عِلْمٌ
 وَفِيهِ دَلِيلٌ : عَلَى مَا خَصَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ سَيِّدَنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْفَصَاحَةِ يَتَوَخَّذُ ذَلِكَ مِنْ

كون لفظه منه عليه السلام تسترى على أحكام عديدة مثل ما نحن بسبيله من هذا الحديث

(١٨٧) ﴿حديث الثلاثة الذين تكلموا في المهدي﴾

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لم يتكلم في المهدي إلا ثلاثة عيسى
وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج كان يصلي لجأته أمه فدعته فقال اجيبها أو أصلي فقالت
اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات وكان جريج في صومعته فنعرضت له امرأة فكلبته فابى
فانت راعيا فامكنته من نفسها فولدت غلاما فقالت من جريج فأتوه فكسروا صومعته وانزلوه
وسبوه فتوضا وصلى ثم أتى الغلام فقال من أبوك يا غلام فقال الراعي فقالوا أنبئ لك صومعتك
من ذهب قال لا إلا من طين وكانت أمراة ترضع إبنها لمن بني إسرائيل فمر بهارجل راكب ذو شارة
فقالت اللهم اجعل ابني مثله فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال اللهم لا تجعلني مثله ثم أقبل على
ثديها يمصه قال أبو هريرة كافي انظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يمص أصبعه ثم مر بأمة فقالت
اللهم لا تجعل ابني مثل هذه فترك ثديها فقال اللهم اجعلني مثله فقالت له ولم ذلك قال الراكب جبار
من الجبابرة وهذه الأمة يقولون سرقت زينت ولم تفعل

ظاهر الحديث الاخبار بكلام أولئك الثلاثة في المهدي فمن تقدم من الأمم والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن فيه دليل على أن أفضل العبادات بر الوالدين يؤخذ ذلك من كون جريج ماشغله عن

إجابة أمه إلا شغله بالعبادة ومع ذلك عوقب بذلك الهوان

وفيه دليل : على إجابة دعاء الوالدين يؤخذ ذلك من ابتلائه بمادحت عليه أمه لما لم يحبها

وفيه دليل : على أن صاحب الخدمة إن جرى منه أمر يرفق به ولا يكون عقابه مثل غيره يؤخذ ذلك

من كون أم جريج لم ينطلق على لسانها في الدعاء بالعقاب البرؤية وجوه المومسات ولولا اللطف

به لطلقت في الدعاء بوقوع الفاشة أو سلب الإيمان أو الضرب أو القتل إلى غير ذلك

وفيه دليل : على أن صاحب الصدق في معاملته مع الله تعالى إن ابتلى بالطف به ويجعل عاقبته خيرا

يؤخذ ذلك من كون المولود نطق ببراهته

وفيه دليل : على إجابة مولانا سبحانه وتعالى المضطر إذا دعاه يؤخذ ذلك من أنه لما اضطر

جريج إليه عز وجل في تبرئه مما رمى به أنطق عز وجل له المولود بما يدل على ذلك

وفيه دليل : على أن صاحب الصدق مع الله لا تضره الفتن وإن جرت عليه لا تنزله إلا ترفيعاً وخيراً يؤخذ ذلك من أنه لما تعرضت تلك المرأة إلى جريج والنساء أكبر الفتن على الرجال وقد قال ﷺ « ما تركت بعدى فتنة هي أضر على الرجال من النساء » عصم منها ثم ادعت عليه حتى هدمت صومعته لم يضره ذلك وجعل الله عز وجل له خير مخرج حتى رغبوا أن يننوا له صومعته من ذهب وما ذاك إلا لما كبر قدره عندهم

وفيه دليل : على أن النساء في بني إسرائيل كن يصدقن فيما يدعين على الرجال من الوطء وتلحق به الولد بغير بينة ولولا ذلك ما كان يحتاج إلى تبرئته لكلام الطفل فانه لو كان في شريعتنا حدث له ممانين حد القرية ولم تصدق عليه وقد جاء عن بني إسرائيل أن ذلك كان من شأنهم حتى أن الباغية منهم إذا حملت ادعت به على من شاءت ممن تعرف وتلحق به الولد وتقول له يا فلان كان بيني وبينك كذا وكذا في اليوم الفلاني ومنك هذا المولود فيقبل قولها وتلحقه بنفسه

وفيه دليل : على أن صاحب الصدق مع مولاه عند الضرورة يطلب النصر من مولاه بخرق العادة بصدق وإدلال على فضله تعالى وأن الله عز وجل يفعل معه ذلك يؤخذ ذلك من إتيان جريج بعد الركتين الصبي يسأله من أبوه فأنطق الله عز وجل له المولود لكونه قصده موقناً بقوة الرجاء في فضله تعالى وقد أوحى الله عز وجل في الزبور لداود عليه السلام رقل لبني إسرائيل من ذا الذي سألني فلم أعطه

وفيه دليل : على أن صاحب الصدق مع الله تعالى عند النوازل لا يجزع ولا يفزع بل يقوى يقينه لثقة بمولاه عز وجل يؤخذ ذلك من كون جريج لما فعل به ما فعل لم يهله قولهم لا فعلهم وقرع باب مولاه وهو يجر ذبول فخر قوة رجاء في كشف ما به ابتلاه فأسرع عز وجل له بلطفه الجميل بنطق الطفل بكشف غمته « أنا عند ظن عبدي في فليظن بي ما شاء » ولذلك قال موسى عليه السلام حين قال له قومه « إنا لم ندر كون قال كلا إن معي ربي سيهدين » لقوة رجاء في مولاه فعلق له عز وجل من حينه البحر تصديقاً لدعواه لأنه جل ثناؤه يقول (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) إى كافيه « ومن أصدق من الله حديثاً »

وفيه دليل : على أن حقيقة النصر في جميع الأمور إنما هي بفضل الله عز وجل لا تتوقف على سبب حكمة ولا غير هافتارة تكون مغطاة بأثر الحكمة وتارة تكون بيد القدرة بارزة لا مغطاة بحكمة كمثل ما نحن بسبيله في قصة عيسى عليه السلام ومن ذكر معه في الحديث فجاء النصر لأم عيسى عليه السلام ولجريج بأبراز قدرة القادر لا غير

وفيه دليل : على أن خرق العادة تكون للانبياء عليهم السلام في ذلك ولا غيرهم وقد تقدم الكلام

على الفرق بينهما في ذلك يؤخذ ذلك مما جرى لعيسى عليه السلام من خرق العادة وهو من الأنبياء والرسول وخرق العادة التي جرت لجريج وجرت للمرأة التي ليست من الأنبياء ولأمن العباد أعنى أن خرق العادة كانت على صفة واحدة لكنها في حق الأنبياء تسمى معجزة وفي حق الأولياء كرامة وفيه دليل . على أن من أدب السنة الكناية عن الأمور الفاحشة يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم «أنته امرأة فكلمته فأبى» والمعنى طابت منه إيقاع الفاحشة فكلمني صلى الله عليه وسلم عن ذلك بقوله فكلمته

وفيه دليل : على أن من آداب السنة إظهار أهل الخير وإن كانوا قد ماتوا واستر على أهل المخالفات يؤخذ ذلك من كونه صلى الله عليه وسلم سمي العابد باسمه لتشده فضيلته ولم يذكر اسم المرأة ستر عليها فيجمله عليه السلام بصدق مقالة لأن من مقاله عليه الصلاة والسلام «المؤمن يحب لأخيه المومن ما يحب لنفسه» وكل منا يريد أن تستر عليه زلانه ويحب أن يكون قدرة لأهل الخير وقد نص الكتاب العزيز على ذلك بقوله عز وجل (واجعلنا للمتقين إماما) ولا يكون إماما يؤتم به في الخير حتى يكون مشهورا به فكذلك فعله صلى الله عليه وسلم هذا أشهر صاحب الخير وستر على صاحب الشر وكذلك في قوله فأنت راعيا ولم يسمه باسمه من أجل الستر عليه ويترتب على ذلك من الفقه أنه إذا علمت من أحد فعل شرا أن تخبر عن ذلك الفعل ولا تسمى صاحبه وإن ذلك ليس بغيبة وقد ذكر ذلك بعض العلماء إلا أن يكون صاحب بدعة فيتعين عليك شهرته لأن ذلك من باب النصيحة للمسلمين وفيه دليل : على أن صاحب المعاصي لا حرمة له يؤخذ ذلك من أنه لما نسبت المرأة الفاحشة إلى جريج لم يبق له عندهم حرمة وهدموا صومعته وسبوه

وفيه دليل على أن المؤمن عند المحن الصلاة جنته يؤخذ ذلك من أنه لما فعلوا به ما فعلوا الميما بهم وتوضأ وأقبل يصلي فألهم لطريق الخلاص وقد قيل إن الصلاة كف المؤمن وفيه دليل : على أن أبناء الدنيا وقوفهم مع الخيال الظاهر وإن أصحاب الاطلاع وقوفهم مع حقيقة الباطن يؤخذ ذلك من أن أم الصبي التي كانت ترضعه لما رأت صاحب البشارة تمننت أن يكون ابنها مثله ولما من على الطفل بمعرفة الباطن استعاذ منه كما أخبر سبحانه عن قارون بقوله (فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لم آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون)

وفيه دليل . على أن نفوس أهل الدنيا تعاف سوء الحال فيها وإن أهل الاطلاع والتحقيق لا يبالون بذلك إذا كانت السريرة حسنة يؤخذ ذلك من كون أم المولود لما رأت سوء حال الأمة استعاذت بالله من أن يكون لولدها مثل حالها ولما أعطى الصبي الاطلاع على حسن حال باطنها تمنى أن يكون

مثلها وكذلك قصة يوسف عليه السلام مع أخيه لما اجتمع معه فقال له نجلس معك ولا نقدر أن نفارقك فقال له لا يمكن ذلك حتى تصير بأن تقر على نفسك في الظاهر باسم السرقة فبان عليه قبح ما نسب إليه في الظاهر لحسن ما أمله في الباطن فجعل الصاع في حمله وكان من شأنهم ما قصه الله عز وجل في التنزيل وقد قيل في حبك خلعت عذارى فلا بألى ما ارتكب فيه من الأخطار وفيه دليل : على أن البشرية طبعت على إيثار الأولاد بالخير على نفوسها يؤخذ ذلك من أن المرأة ما طلبت الخير إلا لابنها ولا طلبت دفع الشر إلا عنه ولا تبالي بنفسها

وفيه دليل : على أن من السنة التشبه بأهل الخير يؤخذ ذلك من كون سيدنا صلى الله عليه وسلم لما أخبر عن رجوع المولود بمص ثدى أمه أخذ صلى الله عليه وسلم يمص أصبعه تشبهاً به لأنه من أهل الخير بدليل أن الله تعالى قد أطلعه مع صغره على حقيقة غيب ذلك الشخصين وأنطقه به واختار لنفسه ما هو الأقرب إلى الله تعالى وتشبه صلى الله عليه وسلم بذلك الطفل لكون حاله يدل على أنه من أهل الخير إرشاداً لنا إلى ذلك وقد قيل إن التشبه بالكرام فلاح

وفيه دليل : على فضل أهل الصوفة يؤخذ ذلك من أنهم آثروا جانب الحق ولم يبالوا بظواهر الأمور وما لا قوا في ذات الله تعالى كمثل صهيب وبلال مع كونهم مسرورين بذلك وكما أخبر مولانا سبجانه عن امرأة فرعون وقد قال طريق الخير فارتكب وتشبه بأهلها ولا تعدل عن ذلك فتهلك فطريق القوم خير كله والتشبه بالكرام فلاح كله

(١٨٨) ﴿حديث من أمر عند موته بحرق جسده خشية من الله تعالى﴾

عن حذيفة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن رجلاً حضره الموت فلما يتس من الحياة أوصى أهله إذا أنا مت فاجعوا إلى خطباً كثيراً وأوقدوا فيه ناراً حتى إذا أكلت الحصى وخاضت إلى دغامي فاهتشت دخذوها فادبحوها ثم انظروا يوماً راحاً فاذروه في اليم ففعلوا فجمعهم الله تعالى فقال له لم فعلت ذلك قال من خشيتك فغفر الله له

ظاهر الحديث يدل على أن الخشية لله من موجبات المغفرة والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال كيف فعل هذا لنفسه ما فعل وظن أن ذلك منهج له من الله عز وجل فإن كان هذا الشخص غير مؤمن فليس تناله الرحمة وقد نالها وإن كان مؤمناً فكيف يجتمع هذا الذي فعل مع الإيمان وقد جاء في رواية أخرى أن قدر الله على ليعذبني عذاباً شديداً ﴿فالجواب﴾ من ذلك أما أن يكون غير مؤمن فلا لأن الحديث يدل على إيمانه لأنه أيقن بالحساب وإن السيئات يعاقب

عليها وهذا علامة المؤمن وأما كونه فعل ذلك بنفسه فلهامه كان في شريعتهم جائزا ومثله لمن أراد التوبة مثل ما فعل بنو إسرائيل الذين لم تقبل توبتهم حتى قتلوا أنفسهم واحتمل أن يكون ذلك جهلا منه ببعض الصفات وقد قال العلماء إن الجهل ببعض الصفات لا يخرج صاحبه عن الإيمان وقد يكون ذلك عن حال خوف غلب عليه حتى أخرجه عن حال التمييز وهو أظهرها والله أعلم لأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى سماه سيدنا الفاروق الذى فرق الله به بين الحق والباطل من أجل أن يوم إسلامه أظهر الله تعالى الاسلام وعبد الله جهرًا كان إذا ورد عليه الخوف يأتي باب حذيفة في الليل ويقول ناشدتك الله أنا ممن عدنى النبي صلى الله عليه وسلم في المنافقين فيقول حذيفة والله ما أنت منهم فيقول له إنك عندي لهصادق ولكن عملي يشبه عملهم فيرجع إلى بيته فيمكي على نفسه حتى يصبح وربما التزم من ذلك الفراش حتى يعود أصحابه وهو ممن يشهد له سيدنا صلى الله عليه وسلم بالجنة لكن عند الخوف وقوته كان لا يهتم لشيء من ذلك ويخاف على نفسه أشد الأشياء وهو النفاق وآخر الحديث يصدق ذلك لكونه حين سألته جل جلاله «لم فعلت هذا قال من خشيتك يارب» فصدق الله تعالى مقالته وغفر له

وفيه دليل : لأهل الأحوال الذين يقولون الحال حامل لا محمول لأن صاحبه لا يبقى له معه اختيار ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «لو وزن رجاء المؤمن وخوفه لاستويا» فمن أحد وجوه أنه بأيهما اتصف المؤمن باغ مثل ما باغ به صاحب القسم الآخر وقد قيل لبعض الفقهاء في بعض أحواله إن جئتنا بالخوف أمناك ، إن جئتنا بالرجاء باغناك ويحتمل أن يكون المراد بقوله «لأن قدر الله على» بمعنى أن ضيق الله على بأقامة عدله سبحانه وتعالى فيكون مثل قوله تعالى (فظن أن لن نقدر عليه) معناه أن لن نضيق عليه وكذلك قوله تعالى (فقد رآه زرقه) أى ضيق عليه وهذا هو الظاهر والله عز وجل أعلم وفيه دليل : على عظيم قدرة الله تعالى يؤخذ ذلك من جمع ذلك الشخص بعد ما فعل بنفسه مثل ذلك الأمر وأظن أنه قد جاء من طريق آخر أن جمعه كان في مثل لمحة الطرف فسبحان من لا تعجز قدرته عن شيء أراد

وفيه دليل : على جواز تسمية الشيء بما قرب منه يؤخذ ذلك من قوله حضره الموت ولم يعن بذلك إلا قرب ذلك بالعلامات الدالة عليه لأن عند حضوره الذى هو وقوعه لا يمكن ذلك الوقت وصية ولا غير ذلك وقوله يوما راحا أى كثير الريح وقوله فى السيم أى فى البحر وقد جاء من طريق آخر فنصفه فى اليم ونصفه فى البر

وفيه دليل : على فضل هذه الأمة يؤخذ ذلك من كونها أطلعت على أخبار من قبلها مثل هذا وأمثاله ولم يطلع أحد على أخبارها لأنها آخر الأمم ومن فوائد ما يترتب على الأخبار بهذا الحديث

ان تعلم قدر ما من الله تعالى علينا به من قبول التوبة في مثل هذا الوقت الذي فعل هذا شخص هذا الأمر العظيم فيه بنفسه من تلك الوصية لقوله صلى الله عليه وسلم «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يفرغ» أى تبلغ الروح إلى الخلق وهو عند معاناة ملك الموت من الله علينا بشكرها من نعمة ومن علينا بقبول التوبة قبل الغرغرة بفضلها وقد قال «داو بمرأهم التوبة جرح دينك فبرؤها أسرع من طرفة العين» واحتمل في جميع أسبابها فعل ميسر الأمور بفضلها ييسرها

(١٨٩) ﴿حديث الوفاء ببيعة الأمراء﴾

عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لآني بعدى وستكون خلفاء فيكثرون قالوا فما تأمرنا قال فوايعة الأول فالأول أعطوهم حقهم فإن الله سائلهم عما استرعاهم

ظاهر الحديث يدل على ثلاثة أحكام الأول الاخبار بكثرة أنبياء بنى إسرائيل وأنهم كانوا يسوسون بنى إسرائيل كلما هلك نبي خلفه نبي والثاني الاخبار بأنه صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء ولا نبي بعده والثالث الاخبار بكثرة الخلفاء والأمر بحفظ بيعة الأول والوفاء لهم بحقوقهم وترك الحقوق التي عليهم لله حتى يسألهم عنها والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال ما معنى تسوسهم أى شئ هو المقصود من الاخبار بأن بنى إسرائيل كانت الأنبياء عليهم السلام تسوسهم فالأمر معنى تسوسهم أى تهديهم إلى طريق النجاة وتلطيف بهم في الحمل عاينها كما يسوس الرابض الدابة ويحملها على الطريق الحسنة ويعلمها الخالق الجليل وأما الحكمة في الاخبار بهذا فهي إشارة إلى أنكم بعدى ليس لكم من يسوسكم فلا تغفلوا عن سياسة أنفسكم وحافظوا على ما هديتم إليه وقد جاء هذا المعنى مبيناً في أحاديث كثيرة فمنها قوله عليه الصلاة والسلام «تركت فيكم الثقلين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وعترتى أهل بيتي» معناه أن هذان يقومان لكم مقام الأنبياء لئلا يضلوا وإسرائيل وقوله عليه السلام في حديث آخر «علماء أمتي كالأنبياء بنى إسرائيل» معناه أن علماء هذه الأمة تسوسهم وترشدهم إلى طريق الحق كما كانت أنبياء بنى إسرائيل من هذا الوجه يكون الشبه بينهم لأن أحدهما بنى آدم تكون درجته مثل درجة نبي من الأنبياء عليهم السلام فإن الأنبياء عليهم السلام أرفع الناس درجة وأعلاهم منزلة

وفيه دليل : على حسن طريقة الأنبياء عليهم السلام إذ جعل الكل على حسن اللطف يقومهم يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام عن بنى إسرائيل أن جميع أنبيائهم كانوا يسوسونهم والسياسة لا يمكن توفيقها إلا بمن قد طبع على أحسن الخلق

وفيه دليل : على قطع الوحي من الأرض وتكذيب من ادعى من ذلك شيئا بعد وفاته صلى الله عليه وسلم يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم لا نبي بعدى

وفيه دليل : على فضل علماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم يؤخذ ذلك من الحديث الذى استدللنا به وهو قوله عليه السلام «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل» فالدليل منه على فضل علماء أمته عليه السلام أن جعلهم فى الهدى والسياسة لأمة كأنبياء بنى إسرائيل لبنى إسرائيل

وفيه دليل : على تقديم آكد الحقين إذا تعارضا يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام «أعطوهم حقوقهم فإن الله سألهم عما استرعاهم» معناه لا تمنعوهم أنتم حقوقهم لكونهم يمنعونكم حقوقكم فأعطوهم ما لهم من الحقوق وانركوا أنتم حقوقكم فإن الله ينصفكم منهم لما تمارض حق الملك وحق المسترعى كان حق الملك آكد لأنه يترتب عليه حق متعدد قدم على حق المسترعى لأن الخير فيه مقصور عليه وهو لا يفوته إما أن يأخذه فى هذه الدار وإما أن يأخذه فى الدار الأخرى فقدم الأهم وهذه قاعدة مطردة إذا تعارض أمران قدم أيهما أنفع

وفيه دليل : على أن الله سبحانه وتعالى لا يغادر من حقوق عباده صغيرا ولا كبيرا يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام «فإن الله سألهم عما استرعاهم» يدخل تحت ذلك الدق والجمل وما يقوى ذلك قوله عز وجل (وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) أى لا يغادر ذرة ولا أقل ولا أكثر منها

وفيه دليل : على أن كل من له حق يوفى له يوم القيامة وإن لم يكن هو يعلمه لأن كثيرا من الناس لا يعلم قدر الحق الذى له على الخليفة فاذا كان الله سبحانه وتعالى يحاسبه عما استرعاه فلا شك أنه يوفى لصاحب الحق حقه وإن لم يكن يعلم صاحب الحق به

وفيه دليل : على عظيم قدرة الله وأنه سبحانه ليس كمثله شيء يؤخذ ذلك من إخباره عليه السلام بأنه عز وجل يشمل جميع الخلفاء عن كل ما استرعاهم عليه واحدا واحدا وكم على كل خليفة من العالمين تداخل الحقوق بعضها على بعض فيما أخذوا فيه هذا فى الخلفاء ليس إلا وفيما بين الناس ويكون الفراغ من هذا الحساب العظيم وهذه المناقشة العظيمة فى قدر ما يفعل صلاة واحدة من المفروضات وقد جاء قدر ركعتي الفجر ولذلك كان سيدنا صلى الله عليه وآله وسلم يخففهم ما رجاء فى تخفيف الحساب على أمته هذا لا تقدره العقول ولا تحيط به الأوهام ولا يمكن أن يكون هذا من صفة من يحمد أو يكيف فإن هذا لا يدخل تحت هذه الحدود ولا تحت حد محدود تعالى الله علوا كبيرا

وفيه دليل : لأهل الصوفة الذين يرون بتبرئة ذمهم ولا يعبون بما لهم لعلمهم بأنه عز وجل لا يغادر من حقهم شيئا فأراحوا أنفسهم من أجل التصديق بهذا الخبر ومثله فاستراحوا وأفلحوا

قال إذا علمت أنك كافي فلا أبالي ماضيت من أمرى

وفيه دليل : على تقديم أهل الدين على غيره يؤخذ ذلك من تقديم حق الراعى على حق راعيته لأن حق الراعى به صلاح الدين لأنه قال صلى الله عليه وسلم « ينتزع الله بالسلطان مالا ينتزع بالقرآن »

وفيه دليل : على أن تأخير الحق لا ينقصه يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام فإن الله سائلهم عما استرفاهم فالتأخير لم يبطله إذا كان الله سائلا عنه

﴿ وفيه إشارة ﴾ من طريق القوم الذين يقولون بتحمل الأذى وإدخال السرور يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿ أعطوهم حقوقهم ﴾ ولا سرور أعظم من إعطاء الحقوق لأهلها وحمل الأذى فلا حمل أذى أشد على النفس من أن يكون لك حق وعليك حق فتعطى ما عليك وتترك مالك لا تطالبه فهذا عدم النصرة لها وهو غاية التسليم والمجاهدة وهو أعلا أحوال القوم وأما ذكر حق الراعى وحق المسترعى ما هو فقد ذكرناه أولا في حديث البيعة

(١٩٠) ﴿ حديث عيوب أهل الكتاب واتباع هذه الأمة لها ﴾

عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبرا وذراعا بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فن

ظاهر الحديث يدل على اتباع هذه الأمة سنن اليهود والنصارى والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال مامعنى اتباعهم وفيماذا يكون الشبه من سننهم هل على العموم أو في بعضها وإن كان في بعضها فما هو وما معنى شبرا بشبرا وذراعا بذراع فأما ﴿ الجواب ﴾ عن الأول فقد يكون سننهم بمعنى طريقهم لأن السنة بمعنى الطريقة كقوله تعالى (سنة الله التي قد خلت في عباده) أى الطريقة التي عاداته عز وجل لا يخلقها لهم ولا فيهم ﴿ وأما الجواب ﴾ على سنن من قبلكم هل على العموم في جميع طرقهم أو على الخصوص احتمال لكن الظاهر العموم بدليل الحديث نفسه بقوله عليه السلام ﴿ حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه ﴾ وأما من خارج فقد جاءت أحاديث كثيرة تبين ذلك فإن من طريق من تقدم إختلافهم كما أخبر بذلك صلى الله عليه وسلم في أمته وهو قوله صلى الله عليه وسلم « افترقت بنوا اسرائيل على إثنتين وسبعين فرقة وستفترق أمتى على ثلاثة وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة » ومنها أنهم بدلوا الأحكام وقد أخبر صلى الله عليه وسلم بذلك في أمته حيث قال صلى الله عليه وسلم ويعود الحسكم مغرما وقال عليه السلام « تحل عرى الاسلام عروة عروة كلما حلوا عروة تشبهوا بالتي نأيا فأول عروة تحلونها الأحكام وآخر عروة تحلونها الصلاة »

أوقال ومنها التماسد بينهم وقد أخبر صلى الله عليه وسلم بذلك في أمته بقوله عليه السلام « يأتى في آخر الزمان أقوام أصدقاء العلانية أعداء السريرة » وما كان فيهم من نقص للكيل والربا عمل قوم لوط والكذب والمباكر فقد ظهرت في هذه الأمة وما كان من التكالب على الدنيا والفساد في الأرض فقد ظهر أيضا وما كان فيهم من الارتداد بعد الهدى قد أخبر صلى الله عليه وسلم أنه سيكون في هذه الأمة وهو قوله عليه السلام عند ذكر الفتن يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا أو يمسى كافرا ويصبح مؤمنا يسع دينه بعرض من الدنيا ولولم يكن فيهم إلا ردة الدجال لكانت كافية وهي واقعة حقا وكل ما كان فيهم مما يشبه هذا إذا تتبعته آثارها قد ظهرت وقد أخبر الصادق صلى الله عليه وسلم في مستظرة لا محالة أعاذنا الله من الجميع بحاجه عند الله صلى الله عليه وسلم ما كان من المسخ فيهم فقد أخبر الصادق صلى الله عليه وسلم أنه في هذه الأمة إلا أنه في القلوب فيبركته صلى الله عليه وسلم أنه ستر على أمته تشوه السورة الظاهرة وبقي في القلوب كما أخبر به عليه السلام فترى الشخص صورته باقية وهو قد مسخ قلبه صورة قلب وهم الشرط والجنادرة وشبههم تراهم طول يومهم يروعون الناس ويعيطون في وجوههم ومنهم من يمسح قلبه صورة خنزير وهم أهل القنطرة والبلادة فهكذا تتبع بنظر كصفة كل شخص في خلقه تستدل بذلك على مسخ قلبه ماهو وقديقي متحيرا لا مسخ في قلبه إلا أن قلبه قد مات وقد أخبر بذلك الصادق صلى الله عليه وسلم بأنه يأتي زمان يموت فيه قلب المرء كما يموت بدنه أو كما قال عليه السلام لأن القلب إذا لم يبق فيه تلك الحرارة الغريزية حتى يفقه مصالحه فهو ميت وقد يكون موته حقيقيا والله أعلم والقدرة صالحة أن يكون حسيا أو يكون معنويا فإنه إذا لم ينتفع بقلبه في النوع الذي أريد منه وتوالت عليه الشهوات حتى لا يرى إلا هي فذلك موت لأن الفأنة التي في حياة القلب معدومة عنده ولذلك شبه عليه السلام الذي كرلر به بالحى والغافل بالميت واحتمل أن يكون موته حسيا كيف شاء القادر سبحانه وتعالى كما يبس عضو من أعضاء الشخص مثل يده أو رجله أو غيرهما من الجوارح وباقى بدنه صحيح القدرة صالحة ومن سنن من قبلنا أنهم بدلوا بعض كتبهم كما أخبر الله عز وجل عنهم لقوله تعالى (يحرفون الكلم عن بعد مواضعه وقد أخبر عز وجل عن هذه الأمة بمثل هذا في قوله تعالى فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) والآي والأحاديث في هذا كثيرة فيكون فائدة الاخبار بهذا الحديث التحرز عن مثل هذا نصحا منه صلى الله عليه وآله وسلم لأئمة واختصارا في اللفظ وإبلاغا في الإنذار لأن الآي والأحاديث في هذا كثيرة كما قدمنا وكثير من الناس لا يعرفها وإن عرفها لا يقرر أن يحصيها فجاء هذا الحديث من إبداع البلاغة وفي الإنذار والتحريض عن كل ما تضمنته الآي والأحاديث فجاءه الله عنا أفضل ما جازى نبيا عن أمته وجعلنا من صالحى أمته بمنه وأما قوله عليه السلام « شبرا بشبر وذرعا بذرعا » فعناه أنكم لا تتركون منها شيئا إلا نعمته ووه زيادة بيان كما ذكرناه آنفا وكذلك قوله

عليه السلام حتى لو سلكوا جحر ضب مبالغة في الاتباع

وفيه دليل : على الاخبار بالعام والمراد به الخاص يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (من سنن الذين من قبلكم) وهو عام ولم يرد من قبلنا إلا قوما مخصوصين وهم اليهود والنصارى

وفيه دليل : على مراجعة العالم إذا بقي في كلامه على السامع احتمال يؤخذ ذلك من قول الصحابة رضي الله عنهم له صلى الله عليه وسلم اليهود والنصارى سؤال استرشاد وثبتت فان حسن السؤال نصف العلم فاستفهموا لزوال الاحتمال

وفيه دليل : على جواز مخاطبة البعض بلفظ الكل يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام اتبعن سنن الذين من قبلكم وهو عليه السلام يخاطب الحاضرين وهم البعض من أمته وخاطبه عليه السلام لجميع الأمة وفيه دليل : على جواز أن يضاف للشخص ما يفعله من هو مشترك معه في وصف ما من الأوصاف وإن كان المخاطب ليس فيه من ذلك الفعل شيئاً يؤخذ ذلك من خطابه صلى الله عليه وسلم لهؤلاء السادة وهم بالقطع ليس فيهم من هذه الأوصاف التي ظهرت بعدهم ولا من التي لم تظهر لنا بعد شيء فلما كان اسم الأمة يقع عليهم خاطبهم بذلك من أجل متضمن الاسم

وفيه دليل : على أن من حسن الكلام والاختصار في اللفظ إذا فهم المعنى يؤخذ ذلك من جوابه صلى الله عليه وسلم لهم حين قالوا اليهود والنصارى قال فمن ولم يزد على ذلك شيئاً لأنهم فهموا بهذه الإشارة أنه عليه الصلاة والسلام لم يرد غيرهم واختصر بهما طول الكلام والتطويل وفي ذلك من الحسن كل بديع

وفيه دليل : على التحذير عن حال المجاهرين بالمنكر وليس ذكرهم بذلك على هذا الوجه بعينه يؤخذ ذلك من تحذيره عليه السلام عن عيوب أهل الكتاب وفيهم من المسلمين المتبعين يقتضى شرعهم . كثير فلما أظهروا المناكر لم يكن ذكرهم بها والتحذير عنها غيبة وما يؤيد ذلك ويقويه قوله عليه السلام لا غيبة في فاسق

وفيه دليل : على كثرة شين المعاصي يؤخذ ذلك من سوء الثناء عليهم وتحذيره صلى الله عليه وسلم عنهم وعن طريقهم بعد موتهم فشؤم المعصية أورثنا سوء الثناء كما أن بركة الطاعة أورثت حسن الثناء في الحياة وبعد الموت ولذلك قال أهل الخير وإن ماتوا أحياء بين الأنام فان ذكرهم بحسن الثناء أحيى لتلك الرمم يحبههم قباي والدعاء لهم في كل حين حسن

(١٩١) ﴿حديث النهي عن دخول بلد بها طاعون وعن الفرار منه﴾

عن أسامة رضى الله عنه قال قال صلى الله عليه وسلم الطاعون رجس أرسل على طائفة من بني إسرائيل أو على من كان قبلكم فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه

ظاهر الحديث الاخبار أن الطاعون رجس أرسل على طائفة من بني إسرائيل ثم بعد ذلك يدل على حكمين أحدهما من سمع أن الطاعون بأرض فلا يدخلها والآخر النهي لمن كان بأرض ووقع الطاعون بها فلا يخرج فراراً منه والكلام عليه من وجوه

منها قوله ﴿على بني إسرائيل أو على من كان قبلكم﴾ الشك هنا من الراوى في أيهما قال سيدنا صلى الله عليه وسلم وهذا دال على تحريمهم في النقل وصدقهم قوله رجس أى عذاب ﴿وهنا بحث﴾ في قوله عليه السلام فلا تقدموا عليه ولا تخرجوا فراراً منه هل هو تعبد لا يعقل له معنى أو له وجه من الحكمة يعقل أما قوله فلا تقدموا عليه فوجه الحكمة فيه قد نبه الكتاب العزيز عليها بقوله تعالى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهاكة) فان الدخول إلى موضع النقم تعرض للمهاكة فليجزع من ذلك واليتأدب بأب الحكمة وهذا تنبيه منه صلى الله عليه وسلم من أجل أن يأتي أحد ويستعمل هنا متضمن قوله تعالى (لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) فمنع عليه السلام أن يعارض هنا متضمن الحكمة وهو الفرار من الممالك بالقدرفانه من باب التجربة والعبودية لا تجرب المولية ومثل ذلك قال عيسى عليه السلام حين لقيه اللعين وهو في سياحته على قنة جبل فقال له اللعين ترد من قنة هذا الجبل وما عليك لأنك تقول ان يعصيك إلا ما كتب الله لك فقال له عيسى عليه السلام إن المولى يجرب عبده وليس العبد يجرب مولاه ﴿ويترتب على هذا من الفقه﴾ التزام الأدب مع الربوبية واستعمال الحكمة حيث أمر بها واستعمال القدر حيث أمر به وفي هذا دليل لأهل السنة فان هذه طريقهم خلافاً للقدريّة والجبريّة ولا يعارض أحوال القوم الذى عملوا على أن لا يلتفتوا في مواضع الممالك إلى شئ من الأشياء ونجوا منها ولم تضرهم فان الانفصال عنه أنهم لم يفعلوا ذلك إلا بغلبة الحال الذى ورد عليهم حتى لم يروا في الوجود إلا صاحب الوجود والحال حامل لا محمول ولهم في ذلك الاقتداء بسيدنا صلى الله عليه وسلم حيث قال عليه السلام « فر من المجزوم كما تفر من الأسد » ثم أكل صلى الله عليه وسلم مع المجزوم في صحفة واحدة وقال « بسم الله لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » فالأمر الأول سنته صلى الله عليه وسلم والفعل بعده طريقته صلى الله عليه وسلم فمن كان له حال صادق فهو متبع له عليه السلام في طريقته ومن لم يكن له حال صادق فليتبع سنته عليه السلام ولا يدخل في اتباعه في حاله

لأنه عرى عن الوصف الذى هو شرط فيها فيكون ألقى بيده إلى التهلكة لأنه أتى الشئ من غير وجهه ألا ترى إلى قوله عز وجل وتزودوا ثم قال (فال خير الزاد التقوى) فإذا كان معك خير الزاد سر حيث شئت وإلزم يكن معك منه شئ يكفيك فلا تتحرك إلا بالزاد المحسوس المبالغ على العادة في ذلك وإلا كنت عاصيا

وفيه دليل : على الأخذ بسد الذريعة الذى تدل عليه قواعد الشريعة في غير ما موضع ويترتب عليه من الفقه أنك إذا أردت أن تقدم على موضع أن تسأل أولا عن أخباره حتى تعلم على ماذا تقدم هل يجوز لك الاقدام عليه أم لا لأنه قد يكون بالقرب منه من حيث أن يكون بينك وبينه الميل أو الميلان فتسمع بمثل الطاعون فلا يجوز لك دخوله وقد يكون لك في الرجوع بنفسك في حالك أودينك فتقع بين محذورين ويكون سبب ذلك تفريطك في السؤال عن ذلك الموضع والمفطر نادى ﴿وهنا بحث﴾ وهو أن يقال هل هذا النهى يقصر على الطاعون ليس إلا أو يتعدى ذلك بالعلة وهى حيث يعلم موضع ضرر لا يقدم عليه لاسيما إذا كان متحققا أو يكون غالبا في الدين فالنظر يعطى تعديه من أجل وجود العلة كما عدوا بذلك أحكاما كثيرة ويقويه قوله تعالى ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ وهو لفظ عام وأما الحكمة في قوله عليه السلام ﴿وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه﴾ فهو إعلام بأن القدر إذا نفذ لا ينفع أثر الحكمة فيه ولا يردده فإن الله عز وجل يقول (وكان أمر الله قدرا مقدورا) أى أنه لا يرد وهو نافذ لا محالة فكما أمرنا قبل أن لانعارض الحكمة بالقدر كما تقدم الكلام عليه أرشدنا هنا إلى أن لانعارض القدر بأثر الحكمة وأن نلتزم الأدب في الطريقتين والتسليم لما اختاره من له الخلق والأمر سبحانه وتعالى ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لا تنموا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » معناه التزموا في كل وقت الأدب فيما أقمتهم فيه بحسب ما شرع لكم ﴿وفي هذا دليل﴾ لطريق القوم الذين يقولون « اشغل وقتك بما وجب عليك فيه أو ندبت إليه ولا تلتفت إلى ما قبل ولا إلى ما بعد تفز بربح الدارين » أى بخيرهما

﴿وفيه وجه آخر﴾ من طريق النظر والتحقيق وهو أنه إذا أرسل ذلك العذاب على تلك البقعة التى كان الناس بها فالمقصود بالعذاب أولئك الناس لا البقعة نفسها فمن كان قد نفذ حكم الله تعالى فيه بإصابة ذلك البلاء فأين ما فرأمر الله لا يفارقه حيث كان فهو به زيادة في التعب وإن كان عن لم يقدر عليه بشئ من ذلك فيحصل في قعوده إذا كان صابرا محتسبا أجر شهيد كما ذكر في الحديث بعد هذا وراحة بدنه وهو صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين رحيم فلما علم ما أشرنا إليه أرشدناهم إلى مصافيه نفعهم وهو قعودهم حيث كانوا

وفيه دليل : على تحقيق نصحه عليه الصلاة والسلام ورفقه بأمره يؤخذ ذلك من قوله فرارا منه حتى يبقى الناس على تصرفهم الذي كانوا عليه قبل هذه النازلة بحسب ما يقتضيه ماعهدوا من عاداتهم في مصالحهم وتصرفاتهم في ذلك بقدر ما يظهر لهم فيه فانه لو لم يرد النهي بهذه الصفة لكان الناس إذا وقع لهم ذلك الأمر زادتهم الشدة لمنعهم من تصرفهم في منافعهم على عاداتهم قبل

وفيه دليل : لمذهب مالك في الذي يكون له مال تجب فيه الزكاة فيتصرف فيه قبل الحول تصرفا ينقله به عن الحالة التي تجب فيه الزكاة إن كان ذلك التصرف خوفا من الزكاة لا ينفعه وتؤخذ منه الزكاة وإن كان لمصلحة في ماله سقطت عنه الزكاة أمثاله أن يكون له نصاب من المال فاذا قرب الحول اشترى به عرضا أو حيوانا مما تسقط الزكاة به عنه فان كان فعل ذلك هروبا من الزكاة أوخذ بالزكاة عند حلول حول النصاب وإن كان ذلك لمصلحة ظرت له ولم يقصد الهروب من الزكاة عومل بحسب ما يقتضيه حال وقته من تأخير الزكاة أو غير ذلك على حسب ما هو مذكور في كتب الفروع وفيه دليل على أن الأصل في الأعمال بحسب النية فيها يؤخذ ذلك من كون الخروج الذي ليس بنية الهروب مما نزل لم ينه عنه والذي هو بنية الهروب نهى عنه ويؤيد ذلك قوله عليه السلام إنما الأعمال بالنيات وبقي (هنا بحث) وهو أنه عليه السلام قد نهانا أن نتسبب في دفع ما قدر بالخروج وأمرنا بالتسبب في دفع البلاء بأسباب الطاعات وهو قوله « ادفعوا البلاء بالصدقة » وقوله جل جلاله (فلولا إذا جاءهم بأسنا تضرعوا) فدل أنهم لو تسببوا بالدعاء والضراعة عند نزول البلاء لرفع عنهم والجمع بينهم بقوله عليه السلام « لا ينال ما عند الله إلا بطاعة الله » وما عند الله للعبيد أما خير يطلبونه منه أو شر يدفعه عنهم فلا ينال واحد منهما إلا بطاعته عز وجل فان التسبب في ذلك بغيرهما لا ينفع ويؤيد ذلك قوله تعالى (ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين) أي ان أردتم الخير والسلامة من الشر ففروا إلى الله والفرار إلى الله سبحانه وتعالى إنما هو بامتنال أمره واجتناب نهيه ولذلك قال

مالي سواك عدة فكن لي إن لم تكن لي رب من يكن لي
 بالطاعات تحصن إن كنت ليبيبا وبالله فتق إن كنت منيبا
 وعلى الله فتوكل يكن لك حسيبا

(١٩٢) (حديث من مكث ببلده ولم يفر من الطاعون فله أجر شهيد)

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الطَّاعُونِ فَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ عَذَابُ يَبْعُثُهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ يَقَعُ الطَّاعُونُ فَيَمُوتُ فِي بَلَدِهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا يَلْمُ أَنَّهُ لَا يَصِيْبُهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ شَهِيدٍ

ظاهر الحديث يدل على ثلاثة أحكام الأول أن الطاعون عذاب يصيب الله به من يشاء الثاني أنه رحمة للمؤمنين وإن كان في نفسه بلاء لكن بما يترتب عليه للمؤمن من الرحمة إذا أرسل عليه عاد الأمر رحمة لأن الحكم للعاقبة ولذلك «إذا كان يوم القيامة يؤتى بأكثر الناس بلاء في الدنيا فيغمس في النعيم غمسة فيقال له هل رأيت بؤسا قط فيقر لم أربؤسا قط» ولذلك لما نظر أهل العقول والسلوك إلى عواقب الأمور هانت عليهم أنفسهم وحلالهم ما حملوه من التعب والمجاهدات عرفوا فصبروا فربحوا هناها من أعطاهم وألحق في الخير العاجز منا ما جارا هم وحباه وأذناه لارب سواء والوجه الثالث الاخبار بأنه ليس عن أحد يقع الطاعون فيمكث في بلده صابرا محتسبا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن يقال ما معنى قوله ﴿ صابر محتسب ﴾ فمعناه أن يوطن نفسه على الصبر على ذلك البلاء إن لحقه منه شيء ومعنى محتسبا يحتسب نفسه على الله تعالى ومع ذلك يكون موقنا بأن لا يصيبه من ذلك إلا ما كتب عليه وإن كان لم يكتب عليه منه شيء فلا يصير منه شيء ويترتب على ذلك من الفقه وجوه ﴿ منها ﴾ أن الأسباب وإن ظهر لها تأثير أنها تضر ولا تنفع إلا بحسب ما سبق في علم الله تعالى من نفي أو إثبات ﴿ ومنها ﴾ العلم بأن كل كائنة تقع في الوجود من خير أو شر دقت أو جلت عمت أو خصت أنها في كتاب مسطور وما يقويه قوله عز وجل (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير) فتكون فائدة تلك قوة الايمان وهو أعلى المراتب وعدم الفرع من الحوادث فإنه لا يندفع به ما يلحقه منه ﴿ ومنها ﴾ الصبر على ذلك وهو مأجور عليه لقوله تعالى (إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب) ﴿ ومنها ﴾ ما يحصل من الثناء الجليل عليه وربما يهون عليه الأمر أكثر ما يكون على غيره ﴿ وفيه بحث ﴾ وهو أن يقال لم قال في هذا الحديث «أنه بلاء يرسله الله على من يشاء» وقال في الذي قبله «إنه أرسل على من كان قبلكم» (فالجواب) إن فائدة الحديث الذي قبل في المعنى التسلي والتأنيس لأنه باخباره عليه السلام أنه أرسل على من كان قبل ذهب من القلوب خوف عظيم وهو أن يكونوا هم قد خصوا بهذا البلاء العظيم فيكونون يخافون أنهم ممن غضب عليهم ولعاه يؤل إلى الخسارة الدائمة فلما علموا أنهم لم يكونوا مخصوصين وقد تقدم لغيرهم ذهب ذلك الخوف العظيم وبقي من جملة بلايا الدنيا يصيب به من يشاء وهذا الحديث الذي نحن بسبيله فيه وجوه من البشارة ﴿ الأول ﴾ أنه من أصابه منه شيء من هذه الأمة فهو رحمة له فيكون عليه ما يحمله منه لما يرجوا فيه من رحمة الله تعالى ولذلك ذكر عن سعد رضى الله عنه أنه مات بالطاعون فكان إذا اشتد عليه يغمى عليه فاذا أفاق يقول اللهم اشدد على خنقك فانك تعلم أن قلبي يحبك هكذا حتى قضى رحمه الله ﴿ والوجه الثاني ﴾ الاعلام بتفضيل هذه الأمة على من

تقدمها يؤخذ ذلك من أن الطاعون كان لمن قبلهم بلاء وهو لهم رحمة (راجع الثالث) وهو أن الذي يصيبه الله به من هذه الأمة ليس من أهل ذنب وقع منه يؤخذ ذلك من قوله يصيب به من يشاء لا عن شيء بوجوب إرساله عليه بل بتخصيص المخصص له بذلك فيدخل به في قوله صلى الله وسلم إن من أمتي من يساق إلى الجنة بسلاسل، وهم أهل المصائب في الدنيا من الله علينا بدار كرامته بلا حنة بفضله (وفيه إرشاد) إلى التأدب مع القدرة وهو أن لا يتحكم عليها بتفضيل العباد عندها من أجل ما يرى عليهم من النعمة ولا لتحقير العباد عندها بما يرى عليهم من النعمة يؤخذ ذلك من جعل هذا البلاء العظيم رحمة فمن باب أولى ما هو أقل منه وقد أثبت الله عز وجل على أهل البلاء وعلى أهل النعماء إذا وفي كل واحد منهما ما أمر به فقال في أهل البلاء وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون (وقال عز وجل في أهل النعماء (لئن شكرتم لأزيدنكم) وقال (احملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور) وذم عز وجل من رجح الحالة الحسنة عنده من أجل إظهار نعمائه وذم ضدها بقوله تعالى (فأما الإنسان إذا ما ابتليه ربه فأكرمته ونعمه فيقول ربى أكرم من وأما إذا ما ابتليه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهاننى) وفيه دليل : على أن كثرة الأجور في الأعمال إنما هي بقدرة قوة اليقين والايان يؤخذ ذلك من أنه عليه السلام أول الحديث جعله رحمة ثم قال في آخره (صابرا محتسبا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد) فالزيادة التي بين الدرجتين إنما هي من أجل قوة الايمان الذي وصل به إلى أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له يشهد لذلك قوله عليه السلام «ما فضلكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في صدره» (وهنا بحث) وهو أن يقال لم قال مثل أجر شهيد ولم يقل له شهادة فان الشهادة ما أظلم قدرها إلا من أجل ما نال صاحبها من الأجر والشهادة أمر آخر زائد على الأجر فظاهر الأمر أن الشهادة شيان كثرة الأجر وأمور أخرزوا تد على ذلك منها أنهم لا يحاسبون وإنما يقومون من قبورهم إلى قصورهم ومنها أنهم يشفعون في غيرهم وأشياء من أنواع الأكرام عديدة وقد جاء أن الطاعون شهادة إلا أنه إذا وقع بشخص وهو على الحالة المتقدم ذكرها من الصبر والاحتساب فيكون الجمع بينهما بأنه من صبر واحتساب ولم يصبه منه شيء كان له مثل أجر شهيد فان أصابه منه شيء وهو صابر محتسب كان شهيدا والله أعلم كما جاء أنه من طلب الشهادة من الله تعالى صادقا ولم ينص له بها أنه يكون له أجر شهيد فليس وقوع الحال متمنية بينهما درجة (وهنا بحث) وهو أن يقال في قوله له (مثل أجر شهيد) هل ذلك تفضل من المولى سبحانه وتعالى على العبيد لا يعقل له معنى من الحكمة أو بينهما منسبة من جهة الحكمة أما النسبة التي بينهما من أجل الحكمة فظاهرة وهي أن الذي يخرج للجهاد إنما فعل فعلا شأنه إذهاب النفوس

والسلامة فيه إنما هي بالقدرة التي لا يفلتها غالب وهو يخرج لذلك الأمر صابرا محتسبا موقنا أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله عليه فأشبهه الذي يجلس في بلده بعد وقوع الطاعون محتسبا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له فإن الطاعون أمر معه الموت لمن أصابه لا محالة ولا ينجو منه إلا بالقدرة التي ليس لها مثال فالشبه واقع والأجر في الترجمين جميعا بمجرد الفضل لكن لا تنظر حكمة الحكيم الذي «ليس كمثله شيء» إلا بعد وقوع الفعل وإثبات الحكم فيه منه وإلا القياس هناك ممنوع

وهنا دليل : على أن الحق في الأمور الطريق الوسط حال بين حائين وأصله التأدب وعدم الاعتراض يؤخذ ذلك مما تقدم في هذا الحديث وغيره فتارة يؤمر بالنظر والتدبير وحمل الأمور على ما جرت به العادة غالبا وتارة يؤمر بالتسليم وعدم الالتفات إلى شيء من الأشياء إلا مجرد التسليم وعبودية محضة فالذين أرادوا أن يحملوا الأمر على طريق واحد ويتسلطوا بعقولهم عليها في غاية الحمق والجهل لأنه من «ليس كمثله شيء» كذلك حكمه ليس مثلها حكمة حاكم ولا نسبة بينهما لكن شأن ما أخذ به أهل السنة وهو الوقوف مع الأمر والنهي على ما هو بلا اعتراض ولا زيادة ولا نقص وهو الذي يعطيه طريق العقل لمن حققه جعلنا الله منهم بالحننة بمنه وكرمه

(١٩٣) (حديث تحرم الشفاعة في حد من حدود الله تعالى)

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ قُرَيْشًا أَهْمَهُمْ شَأْنُ امْرَأَةِ الْخَزْومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا مَنْ يَكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا مَنْ يَخْتَرُ عَلَيْهِ إِلَّا أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حُبَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَلَّمَهُ أَسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ قَامَ فَأَخْطَبَ ثُمَّ قَالَ إِنَّمَا أَعْلَاكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَأَيُّمَ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا

ظاهر الحديث يدل على منع الشفاعة في حد من حدود الله تعالى والكلام عليه من وجوه

(منها) أنه ينبغي أن يختار في الشفاعة من له إدلال على الذي يشفع عنده وحرمة يؤخذ ذلك

من قولهم من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرجعوا جميعهم إلا من كان أكثرهم إدلالا عليه صلى الله عليه وسلم وله عنده حرمة وهو أسامة بن زيد لأنه كان ابن مولاة عليه السلام وبالقطع أن أبا بكر وعمر وجميع الخلفاء وأعمامه عليه السلام أرفع عنده من أسامة بن زيد وأكثر حرمة لكن الإدلال له خصوصية أخرى

وفيه دليل : على أن الخديم أكثر ادلالا على مخدومه من غيره وله حرمة الخدمة أيضا ولذلك

كان أهل الصوفة أكثر إدلالا لدوام خدمتهم وكثرة وقوفهم بالباب ومن هناك الربح الحقيقي «وقد روى عن بعضهم أنه كل ليلة كان يأتي باب الملك الذي كان في بلدهم فيما وكان من عادة ذلك الملك أن كل من يخدم له وجه من وجوه مصالحة وضرورياته يأتي بابه ويدفع له خازنه أجرته يوما بيوم على قدر عمله فكان ذلك السيد يأتي خازن الملك كل ليلة مع أوئك الخدم فيقول له أعطني أجرتي فيقول له الخازن لو خدمت كنت تأخذ كما يأخذ من خدم فيقول له فما يأخذ الآجرة إلا من يخدم فيقول بذلك أمرت فيقول لنفسه اسمعني من يخدم يأخذ ومن لا يخدم لا يأخذ فان خدمت أخذت وإلا يأخذ غيرك ولا تأخذ أنت شيئا فكان يؤدب نفسه كل ليلة بهذا ويحملها على دوام الخدمة وفهموا ففهموا وعرفوا فعرفوا»

وفيه دليل : على أن ترك الحدود سبب للهلاك يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه﴾

وفيه دليل : على أنه لا يكون المأمور مطيعا لأمره حتى يوفي جميع ما به أمر وإن ترك البعض وفعل البعض سمي عاصيا واستحق العقاب يؤخذ ذلك من إخباره عليه السلام أن من كان قبلنا كانوا يقيمون بعض الحدود فانهم إذا سرق عندهم الضعيف أقاموا الحد فتراهم فعلوا بعض ما به أمروا فلما لم يقيموه على الغنى أسقطوا بعضه فوقع العقاب عليهم فأهلكوا

وفيه دليل : على أن الحدود على جميع الناس كلهم على حد سواء يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿وأيمن الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها﴾

وفيه دليل : على فضل فاطمة على غيرها من أهل البيت يؤخذ ذلك من أنه عليه السلام لم يذكر اسمها في التمثيل إلا على وجه الترفيع ولو كان فيهم رضى الله عنهم أرفع لذكره يشهد لذلك قوله عليه السلام في حقها «فاطمة بضعة مني» وهذا لم يخص به غيرها

وفيه دليل : على أن القدر جار على الرفيع والوضيع يؤخذ ذلك من أنه عليه السلام أخبر عن من كان قبلنا إن ذلك كان فيهم في الشريف والضعيف وهذا أيضا متعارف إلى هلم جرا أن المعاصي يجري القدر بها على من شاء من رفيع ووضيع

وفيه دليل : على أن وجوب الحكم في الشيء يسقطه عن ضده يؤخذ ذلك من أن الهلاك فيمن تقدم كان بتركهم الحدود فبتوفيتها تكون النجاة وقد جاء ذلك صريحا في الكتاب والسنة أما الكتاب فقوله تعالى (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) والآي في هذا كثيرة وأما السنة فقوله صلى الله عليه وسلم «لأن يقام حد من حدود الله تعالى في بقعة خير لهم من أن تمطر عليهم السماء ثلاثين يوما» ومن طريق آخر أربعين يوما والآثار فيه كثيرة أيضا

وفيه دليل : على هيبة النبي صلى الله عليه وسلم عند الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وكثرة حيائهم منه يؤخذ ذلك من قولهم ﴿ومن يجترى عليه﴾ وقد روى عنهم رضوان الله عليهم أنهم كانوا يتمنون أن يسألوا النبي صلى الله عليه وسلم فلا يقدر على ذلك مع كثرة تواضعه صلى الله عليه وسلم لهم ورحمته بهم حتى كانوا يتمنون أن يحيى من البادية من يسأله فيسمعون جوابه عليه السلام للسائل ﴿وفي هذا دليل﴾ على قوة إيمانهم وكثرة تقواهم رضى الله عنهم لأن الله عز وجل يقول ذلك (ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب) وأى شعائر أعظم من إكرامه صلى الله عليه وسلم وترفيهه

وفيه دليل : على جواز القسم من السيد لمن هو دونه تأكيدياً في التصديق فإن كان صادقاً في نفسه فإنه لا يقطع بالصدق قسمه إلا من هو صادق في قوله حسن في حاله يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها﴾

وفيه دليل : على أن حكاية حال المعصية أن لو كانت تقع من ليس لها أهلا ويسمى باسمه إن ذلك ليس بنقص فيه ولا يلحقه منه شؤم ولا معرة يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها﴾ فلو كان في ذلك شيء مما ذكرنا أو مما يشبهه لم يقله صلى الله عليه وسلم في أحد من الخلق فكيف في هذه السيدة التي قال عليه السلام في فضلها «يربني ما رابها» وفيه دليل : على أن تعليقك فعلا يؤلم شخصا بشرط أن يقع منه موجب له ليس بقبيح ولا فيه تغيير للنفوس يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم ﴿لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها﴾ لأن قطع اليد مما يؤلم لكن لما جعل الشرط فيه وقوع شيء من الشخص يوجب له وهى السرقة لم يضره ذلك ولا يشوش عليه وإنما التشويش بالحقيقة المخالفة إذا وقعت ولذلك قال لا تبكين لوقوع ذنبك وإنما يبكين موجباً وعليه فاندم

﴿حديث عاقبة من يجر ثوبه خيلاء﴾

(١٩٤)

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء خُسِفَ به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة

ظاهر الحديث الاخبار بخسف الذي جر إزاره خيلاء وأنه في جوف الأرض لا يستقر له قرار إلى يوم القيامة والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال ما الفائدة لنا بالاخبار بحاله فيه وجوه

﴿منها﴾ التحذير عن ارتكاب هذا الأمر الخطر ﴿ومنها﴾ بيان فضل هذه الأمة على من

تقدم يؤخذ ذلك من أن من تقدم كانوا إذا ركبوا في الذنوب لم يؤمنوا بسم عقاب مثل ما فعل بهنا والإحاديث في هذا المعنى كثيرة وكان إذا أذنب أحد منهم ذنباً أصبح على باب داره تسمية الذنب الذي فعله وما هو المخرج منه وهذا إجراء عظيم قد من الله بفضله على هذه الأمة ببركة نبيها صلى الله عليه وسلم أن حاكم من هازن الخصالين أما الكتب فما وقع منه في هذه الأمة شيء وأما الحسب فهو فوا من لا دليل من بعض المتمردين في بعض الأزمان وذلك نصر قلدين وقد قال صلى الله عليه وسلم في شأن هذا الخيال «من جر إزاره خيالاً لا ينظر الله إليه يوم القيامة» وفيه دليل : على عظيم قسوة الله تعالى وأنها لا تجري إلا على قياس يؤخذ ذلك من كون الذي خسب به لا يستقر له قرار إلى يوم القيامة وهذا الزمان وطوله في ممدار الأرض وهو خمس مائة عام وفيه دليل : على حسن طريق النور يؤخذ ذلك من أن كبر نفس هذا الشقي هو الذي رمى به إلى هذا الأمر العظيم وأهل الطريق قد عملوا على ذلك وهرابها لأن ضد المذموم هو مشكور فلما ذم الله تعالى كبر النفس وجعل من أجل ذلك لصاحب الخيال هذا العقاب الأليم فصد ذلك محمود عنده وقد نص الشارع صلى الله عليه وسلم على ذلك بقوله «أو حتى إلى أن تتواضعوا ولا يفخر بعضكم على بعض» وقال عليه السلام «المؤمن هين لين» وقال عليه السلام «ألا أخبركم بمن تحرم النار عليه تحرم النار على كل قريب هين سهل» والأخبار في هذا كثيرة

وفي هذا دليل : على أن هذا الذنب من أكبر الذنوب يؤخذ ذلك من أنه إذا كان يفعل به هذا الأمر العظيم حتى إلى يوم القيامة كيف يكون حاله يوم القيامة لا تقدره العقول من شدته ولا توهمه الأذهان وكذا قال بالفقر فاستغن تكن لبياً وبالتواضع فارفع تكن حسيباً وبالتقوى فتزود تكن حبيباً والله فاستغن تكن نجيباً

(حديث اختياره صلى الله عليه وسلم بأيسر الأمور)

١٩٥

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ مَا خَيْرَ رَسُولٍ اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ

ظاهر الحديث أخذه عليه السلام بأيسر الأمرين إذا خير بينهما وبعده عليه السلام من الأثم وهل هذا التخير على عمومه أعني تفضيله عليه السلام الأيسر من الأمرين أم لا (والجواب) أن أخذه عليه السلام الأيسر من الأمرين إذا خير على العموم موجود بما استقرى من سنته عليه السلام وبحاج إلى تقسيم لأنه لا يخلو أن يكون ماخير فيه من أمور الدنيا أو أمور الآخرة فإن كان من أمور الدنيا فاللفظ على عمومها فاخير صلى الله عليه وسلم بين شيئين من أمور الدنيا إلا أخذ

أيسرهما وكفى في ذلك أن خير صلى الله عليه وسلم أن يكون مسلماً نبياً ويكون له مثل جبال تهامة فضة وذهباً تمير معه حيث سار أو يكون نبياً عبداً فاختار عليه السلام أن يكون نبياً عبداً فقال «أجوع يوماً فأضرع وأشبع يوماً فأشكر» وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه أوتي يوماً ثوب يلبسه فغطت كاهه على يديه الكريمين فأخذ يقطعهما فلم يجد في الرقت إلا مكيناً فجمعهما وقطعهما بالسكين ولم يكلف أحداً أن يأتيه بمقص وبقى دور الأقدام داخلات وخارجات ور بما تساقطت الخبوط من بعضها ولم يعد لها بعد ولا عمل لها عطفها حتى تقطع الثوب وهو على ذلك الحال وأما أمر الآخرة فما كان يختار فيه فيما يخصه تعالى السلام إلا الأرفع والأقرب إلى الله تعالى كما فعل عليه السلام في تعبده الذي قام حتى تورمت قدماه فقبل له يارسول الله ففعل ذلك والله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال ﷺ «أفلا أكون عبداً شكوراً» وإذا كان الأمر في حق أمته أخذ عليه السلام لهم ما هو الأيسر والأقرب رحمة بهم كما فعل صلى الله عليه وسلم في قيام رمضان حين كثر الناس فقادوا منه فجعل يخلف ثم قال لهم «إنما تخلفت لئلا يكتب عليكم فلا تطيقون أو كما قال عليه السلام وكما فعل عليه السلام معهم في شأن الوصال الذي كان ينههم عنه ويواصل عليه السلام حتى كان يربط على بطنه ثلاثة أحجار من شدة الجوع والمجاهدة فقبل له تنهانا من الوصال وأنت تفعلها فقال «إني ليس كهممكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني» وكان عليه السلام يقول لهم «كافوا من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تموا» والآحاد في هذا الشأن كثيرة فعلى هذا فيكون عاماً فيما كان من أمور الدنيا ويكون خاصاً فيما كان من أمور الآخرة وقد يعمل أن يكون عاماً في أمور الآخرة بوجه ما وهو مثل أن يخير بين عمالين أحدهما يكون في الوقت الوصول إليه قريب والذي الوصول إليه أبعد يكون أرفع فيختار الأيسر إعتناء منه عليه السلام للخطاة والمبادرة للخدمة وخوف الموت أنه لا يدرك الذي هو أرفع فإن أدركه لم يتركه كما كان أبو بكر رضي الله عنه يفعل في ترويه يقدمه أول الليل وقد صح من السنة أن الأفضل في الوتر آخر الليل فكان أبو بكر رضي الله عنه فهم عن النبي صلى الله عليه وسلم هذا الذي أشرنا إليه فعمل عليه فأقره النبي ﷺ على ذلك وقال له أخذت بالحزم وهي المبادرة ﴿وفي هذا إشارة﴾ إلى طريق القوم الذين يقولون «الوقت سيفك إن لم تقطعه قطعك» معناه عندهم إذا لم تقطعه بالعمل قطعك بالتسريع والاستفعال بتعمير الرقت وترك الالتفات إلى الماضي والمستقبل فائدته ربح الدنيا والآخرة من الله علينا بفضله.

وفيه دليل : على حسن فهم هذه السيدة لأنها فهمت مع سفر منها من حقيقة طريقته عليه السلام ما فهم أبوها على أكبر سنه ورفعته في قوة إيمانه وصدقه - حتى قال عنه صلى الله عليه وسلم «ما نضاكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في صدره» فيحسن أصلها تجميع فرع فهمها

﴿ وفيه من الفقه ﴾ أن كلام المرء عنوان على عقله وأفعاله دالة على تحقيق حاله ولذلك قال علي رضي الله عنه حين قيل له في كم تعلم حال الشخص فقال « إن تكلمت في حينه وإن صمت فمن يومه » فمن اشتغل بتخليص صحة حسن حاله حسن فعله ومقاله

(١٩٦) ﴿ حديث معجزة النبي صلى الله عليه وسلم بشاة جابر وصاع شعيره ﴾

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال لما حفر الخندق رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم خمصاً فانكفيت إلى امرأتى فقلت هل عندك شيء فأتى رايت رسول الله صلى الله عليه وسلم خمصاً شديداً فاخرجت إلى جراباً فيه صاع من شعير ولنا بهيمة داجن فذبحتها وطبختها الشعير ففزعنا إلى عناق وقطعناها برمتها ثم وليت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لا تفضحنى برسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه فحنته فساررتاه فقالت يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا وطبخنا صاعاً من شعير كان عندنا فتعال أنت ونفر معك فصاح النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا أهل الخندق إن جابراً قد صنع سوراً خفيلاً بكم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنزلن برمتكم ولا تحزنن عجبتكم حتى أجيء فجيئت وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدم الناس حتى جئت امرأتى فقالت بك وبك فقالت قد فعلت الذي قلت فاخرجت له عجينا فبصق فيه وبارك ثم عمد إلى برمتنا فبصق فيها وبارك ثم قال ادعى خابزة فاتخبز معك وأقدحى من برمتكم ولا تنزلوها وهم ألف فاقسم بالله لا كلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن برمتنا لتعطى كما هي وإن عجينا ليخبز كما هو

ظاهر الحديث يدل على تحقيق بركة النبي صلى الله عليه وسلم وعظم معجزته الذي أطعم عليه السلام من صاع شعير وداجن ألفاً حتى شبعوا وانصرفوا وبقي اللحم كما كان لم ينقص منه شيء والعجيب كذلك والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ كثرة تواضعه عليه السلام يؤخذ ذلك من كونه عليه السلام كان يعمل في الخندق معهم بيده الكريمة كأنه واحد منهم ﴿ ومنها ﴾ أن من السنة التحصن من العدو بكل ممكن يؤخذ ذلك من حفرهم الخندق احتياطاً من أن يغلب العدو عليهم فيكون معهم بما يتحصنون منه وفيه دليل : على أن من السنة التشمير للشباب لمن يخدم يؤخذ ذلك من أن جابر رآه عليه السلام نخس البطن ولولا التشمير ما رأى منه ذلك

وفيه دليل : على أن كشف البطن من ذوى الهيئات ليس بمكروه يؤخذ ذلك من رؤية جابر بطنه صلى الله عليه وسلم

وفيه دليل : لأهل الصوفة الذين يرون بالمجاهدة لأن البطن لا يكون خفصا إلا بها
وفيه دليل : على ما طبعه الله عليه صلى الله عليه وسلم من كمال الخلقة والقوة يؤخذ ذلك من كونه عليه السلام كان خفصا شديدا وهو مع ذلك : يدم في أشق الأشياء وهو حفر الخندق
وفيه دليل : على أن عمل الأسباب لا يخل بمنصب أهل الفضل يؤخذ ذلك من خدمته صلى الله عليه وسلم في الخندق

وفيه دليل : على عظيم صبره صلى الله عليه وسلم وسعة صدره المبارك يؤخذ ذلك من جمعه عليه السلام المجاهدة مع الخدمة مع تبليغ ما أمر به ومع دوام العبادة فبالليل قائم يصلي حتى تورمت قدماءه وبالنهار في الخدمة مع شدة المجاهدة ومع توفيه التبليغ وحسن المسايسة لهم ولا يكون ذلك إلا مع الصبر العظيم والحمل الرباني

وفيه دليل : على ما كان الصحابة عليه رضوان الله عليهم من تقليل حطام الدنيا يؤخذ ذلك من كون جابر لم يعرف لنفسه شيئا حتى سأل عياله هل عندها شيء أم لا فلم يجد إلا صاعا من شعير

وفيه دليل : على عظيم فضلكم رضوان الله عليهم وكثرة إشارهم يؤخذ ذلك من كونهم لم يكن لهم غير ذلك الصاع من الشعير والداجن فخرجوا عنه ولم يبق لهم شيء غيره فهم كما قال عز وجل (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)

وفيه دليل : على كثرة حبهم في رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤخذ ذلك من كونهم آثروه بكل ما ملكوا من الطعام الذي به يقوم حالهم ورضاهم بحمل المجاهدة به لآمته

وفيه دليل : على أن حبهم له عليه السلام تساوى فيه الرجال والنساء يؤخذ ذلك من إخبار جابر أمه حين سأها هل عندك شيء وأخبرها بحال رسول الله صلى الله عليه وسلم وكونه خفصا شديدا فلو علم أنها مؤثرة لجنابه عليه السلام كما هو ما أخبرها بذلك فلو كان غير ذلك لكانت تخفى عنه ما عندها أو بعضه لكي تؤثر به أولادها فهم رضى الله عنهم فهموا قول مولانا جل جلاله (الذي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) فاتخذوها حالا فبذلك حصل لهم السبق وقوله (بهيمة داجن) الداجن هي التي تربي في البيت

وفيه دليل : على توافدهم في الخدمة يؤخذ ذلك من آوله (ففرغت إلى عناق) فدل ذلك على بذل كل واحد منهما جهده في الشغل الذي أخذ فيه

وفيه : دليل على أن متاع البيت يضاف إلى المرأة لأنها هي المنصرفة فيه رأت أن ما لنا لصاحبه كما تقول سرج الدابة وليس لها فيه ملك فلما كان لا يستعمل إلا لما أضيف منك إليها يؤخذ ذلك من قوله ﴿فقطعتها في برمتها﴾

وفيه دليل . على أن السنة أن يعمل في الأمور على مجرى العادة وإن كان الذي تامله عن له خرق العادات يؤخذ ذلك من قولها ﴿لا تفضحنى برسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه﴾ لأن الجمع الذي كان معه كثير وطعامهم يسير والعادة الجارية أن الطعام اليسير ليس فيه كفاية للجمع الكثير وبالقطع أن سيدنا صلى الله عليه وسلم هو صاحب المعجزات وخرق العادات

وفيه دليل : على أن من السنة أن تخبر من تضيفه بمقدار ما أعددت له يؤخذ ذلك من إخبار جابر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمقدار طعامه الذي أعدله وهو قوله ﴿ذبحنا بهيمة لنا وطحننا صاعا من شعير كان عندنا﴾

وفيه دليل : على جواز مناجاة الواحد من الجماعة يؤخذ ذلك من قوله ﴿فساررتي﴾ أى تكلمت معه سرا وفيه دليل : على أن من الأدب عدم الحصر عند إعلام ذوى الفضل بمقدار الشيء الذى أباح لهم التصرف فيه هل يكون تصرفهم فيه على مجرى العادة أو على خرقها يؤخذ ذلك من قوله لما أعلمه صلى الله عليه وسلم بمقدار الطعام فقال ﴿له فتعال أنت ونفر معك﴾ والنفر يكون قليلا ويكون كثيرا فتأدب معه بعدم حصر عدد الذين يمشون معه

وفيه دليل : على جواز إضافة الصانع إلى منعته يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم ﴿يا أهل الخندق﴾ فأضافهم إلى الخندق لكونهم هم الذين صنعوه

وفيه دليل : على جواز رفع صوت ذوى الفضل بين إخوانهم وأصحابهم ليخبر جميعهم بالذى يريد يؤخذ ذلك من قوله فصاح النبي صلى الله عليه وسلم يا أهل الخندق وهم كما أخبر آخر الحديث ألف وفيه دليل على أن صاحب المنزلة الرفيعة تجعله الثقة بمولاه عند الضرورة على أن يعمل على ما عوده سيده من خرق العادة له ينتجده حيث أبل أملا يؤخذ ذلك من أنه لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم عليه قلة طعام جابر وانكسار خاطره في كونه أخبره سرا من أجل أن الطعام لا يكفي من كان هناك من كثرة الجمع عمل صلى الله عليه وسلم على جبر خاطره ثقة من مولاه أن يخرق له العادة في تكثير الطعام حتى يجبر قاب جابر ويدخل السرور على جميع أهل الخندق بأكلهم كلهم معه صلى الله عليه وسلم فصاح بالجميع وأخبرهم بتقليل الطعام بهيئة لفضله وإدلال حاله يخبر بتكثيره فصدقه صلى الله عليه وسلم بالمقال والحال لأنه كفى عن الطعام بالسور والسور من الطعام والشراب هو ما بقى منه في الإناء وصدقه في الحال لأنهم شبعوا وبقي الطعام على حاله وتلك حقيقة الكثرة في الطعام

ومن هنا أخذ أهل الماملات مع الله على طريق السنة إذا كانوا عند الضرورة تحرق لهم العادات ببركة نبيهم صلى الله عليه وسلم لأنهم يقولون كل كرامة للولي فانها معجزة من معجزات نبيه لأن بحسن اتباعه له عادت عليه تلك البركة وذكروا رضى الله عنهم أنه من أجرى الله تعالى له خرق عادة في شيء من الأشياء إن ذلك لسان العلم في حقه ولا ينبغي له أن يعدل عن ذلك وقد قال صلى الله عليه وسلم « من رزق من باب فاليتمه » فالتمه ذلك الحال من أدب العبودية

وفيه دليل على الاجابة للدعوة للطعام إذا كان ابتغاء وجه الله تعالى يؤخذ ذلك من اجابة سيدنا صلى الله عليه وسلم جابرا لأنه ما يكون للنبي صلى الله عليه وسلم إلا ما يراى به وجه الله

وفيه دليل على فصاحته صلى الله عليه وسلم وعدو به لفظه يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم « فحيلا بكم » لما فيها من البلاغة والاقتصار وقوله عليه السلام « لا تنزلن برمتكم ولا تحزنن عجينكم حتى آجىء » (هنا اشارة) بأن أوائل الأمور هي أنجح في إنهار البركة مثل ما فعل عليه السلام في عين تبوك الذى أوصى أن لا يتناول أحد منها شيئا حتى يأتي فلما سبق ذلك الشخصان ولم يعلما بمقالته اتفهما وسبها لأنها عدلا عن مقتضى الحكمة ثم أن بركته عليه السلام عادت عليه

وفيه دليل على أن من السنة أن السيد يقدم قومه يؤخذ ذلك من قوله « يقدم الناس » فباله من سيد وباليهم من ناس فياليت وجتى تراب لأقدامه وأقدامهم لعل ذا سقمى يشفى بحسيس آثارهم

وفيه دليل على أن من حسن الصحبة إخبار العيال بما يحرى وجواز عتب العيال بعلمها لكن ذلك يكون بأدب دون سب لأنه يفرض إلى التواضع وحسن الصحبة وذلك من الايمان يؤخذ ذلك من قوله « فجمت امرأى فقالت بك وبك » معناه فأنخبرتها بمجى النبي صلى الله عليه وسلم وأهل الخندق معه فعتبته على ذلك بقولها بك وبك لأن هذا كفاية عن العتب ولم يقل صيغة اللفظ الذى به عتبه وهذا من حسن سجايهم

وفيه دليل على جواز استعطاف الرجل عياله يؤخذ ذلك من قوله « قد فعلت الذى قلت » يعنى لم أخالفك فيما به أشرت وإنما هذا أمر آخر من النبي صلى الله عليه وسلم فرضيت هى آخر كما رضى هو أولا وعلمنا أن الخير حق كما ظهر آخر وهو شبههم جميعا وبقي الفضل بعد ذلك

وفيه دليل على بركة كل ما كان منه عليه السلام من خارجه وفضله لأنه لولا علمه عليه السلام ببركة ذلك البصاق ما فعل وقوله « وباك » أى دعا بالبركة فجاءت البركة في ذلك الطعام من وجهين من بصاق عليه السلام ودعائه وقد كانت واحدة منهما تكفى لكن جمع الخير وتعداده أرفع

وفيه من الفقه أنه مهما أمكن الأخذ بالزيادة في الخير لا يقتصر على البعض وفعل عليه السلام في العجين مثل ما فعل في البردة

وفيه دليل على جواز المشاركة في أفعال البريؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿ادع خابزة فلتخبز مأك﴾ لأن تصرفها في هذا العجين وخبزها له من أكبر أفعال البر وفيه دليل . على جواز التعاون في إطعام الجمع الكثير لأنه مما ييسر له به المعروف يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ادع خابزة

وفيه دليل . على جواز القسم عند الاخبار فانه تأكيد للصدق يؤخذ ذلك من قوله ﴿أقسم بالله﴾ وفيه دليل على أن من صدق الله تعالى في المعاملة بهج في الحال والمال يؤخذ ذلك من قوله ﴿لاكلوا حتى تركوه﴾ يعني فضل لهم الطعام ولم يقدروا على أكله وزيادة على ذلك بقوله ﴿وإن برمتنا لتخط﴾ أي تغلي كما كانت مملوءة للحما وقوله ﴿وإن عجيننا ليخبز كما هو﴾ أي لم ينفد من العجين شيء لما خرج أولا عن كل ما ملكه من الطعام لله تعالى ربح الآخرة إذ أكل طعامه سيد الأولين والآخرين وجميع أهل الخندق ولم يكن ذلك في قدرته وربح الدنيا أي بقي له طعامه كما كان وزيادة ما فضل لهم وما حوى ذلك الطعام من زيادة البركة في نفسه لما خالطه من بهاق النبي صلى الله عليه وسلم ودعائه فذلك تجارة رابحة

وفيه دليل : لأهل الصوفة لأنهم يقولون بإيثار جميع ما يملكون وهذا يقويه قوله عز وجل (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) فلما آثروا أوثروا من جاد فعلى نفسه بالخير جاد ومن بخل فعلى نفسه بالخير بخل فبأي الوصفين عاملت فعليك منه عائد وانت له حامل

(١٩٧) ﴿حديث تحريم التفاضل في البيع والشراء﴾

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا على خيبر فجاءه بتمر جنيب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكل تمر خيبر هكذا قال لا والله يارسول الله إنا لناخذ الأصاع من هذا بالصائين وبالثلاثة فقال لا تفعل بع الجمع بالدرهم ثم أبع بالدرهم جنيباً

ظاهر الحديث يدل على منع التفاضل بين النوعين من التمر والكلام عليه من وجوه ﴿منها﴾ أن يقال هل هذا خاص بالتمر أو هو في كل مطعوم إذا كان من جنس واحد لأن العلة التي في التمر إذا اختلفت أجناسه موجودة في غيره من المطعوم إذا كان من جنس واحد لأن الاسم يجمعها فالتفاضل فيها بمنوع مثل الزبيب أحمره وأسوده وجيده ورديته الاسم يجمعهم فلا يمكن التفاضل بين أجناسه وكذلك غيره من المطعومات إذا كان من جنس واحد لوجود العلة فيه

وفيه دليل . على أن الشيء الفاسد إذا وقع ولم يعرف صاحبه لا يفسخ يؤخذ ذلك من نهيه عليه السلام فيما يستقبل أن قال له ﴿ لا تفعل ﴾ ولم يأمره برده لأنه قد جمعه من مواضع مختلفة واختلط الجميع وبقى الاحتمال في أنه لا يعرف ما صنع فيه فما فيه الفساد لا يتناول عليه السلام منه شيئاً والظاهر تفريقه للمساكين وقد قال عليه السلام للسعديين حين باعا آنية من فضة من المغنم مثلاً بمثلين «ردا فقد أريتما» لأن صاحبهما كان معروفاً فالفسخ ممكن فأمرهما به

وفيه دليل على أن من وظيفة الأمر أن يسأل عماله عن تصرفهم حتى يعلم كيف هو وكذلك يلزم كل من استتاب أحداً يتصرف له في شيء حتى يعلم ببراءة ذمته يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام حين أتوه بالتمر ﴿أكل تمر خير هكذا﴾ فلو لا ما سأل عليه السلام حين أتوه بالتمر ما كان يعلم بهذا الفساد الذي وقع وفيه دليل على أن أكل الطيب لا يقدح في الزهد يؤخذ ذلك من أن سيدنا صلى الله عليه وسلم أزهّد البرية وهذا عامله قد ساق له الطيب من التمر ولم ينهه عن ذلك وإنما نهاه عن الربا وزاد في ذلك تأكيده أعنى في جواز أكله أن قال له عليه السلام له ﴿بع الجمع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيهاً﴾ فأمره بشراء الطيب

وفيه دليل على أن من السنة حسن التعليم يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام لعامله لا تفعل ولم ينتهره

وفيه دليل على أن تنفيذ الحكم لا يكون إلا بعد تحقيق موجه يؤخذ ذلك من سؤاله عليه السلام لعامله قبل نهيه بقوله أكل تمر خير هكذا وهو يعلم صلى الله عليه وسلم أن تمر خير ليس على صفة واحدة فلم يقتنع بعلمه في تمر خير حتى سأل من أجل الاحتمال لعل العامل باع ذلك على وجه يجوز واشترى هذا أو غير هذا من الاحتمالات

وفيه دليل . على أن رؤية ما يعرف على صفة لا تعرفها توجب السؤال عن موجب التغير يؤخذ ذلك من أن سيدنا صلى الله عليه وسلم لما رأى التمر على خلاف ما يعرف سأل وفيه دليل على أن حسن السؤال من السنة يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام أكل تمر خير هكذا فهذا اختصار في اللفظ وغاية في حقيقة كشف الأمر

وفيه دليل على جواز القسم في درج الكلام وهو الذي يسميه بعض العلماء لغو اليمين يؤخذ ذلك من قوله ﴿لا والله يا رسول الله﴾ ولم ينكر عليه النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وفيه دليل على أن ذكر اسم العالم عند رد الجواب عليه عن سؤال من الأكرام له يؤخذ ذلك من قوله لا والله يا رسول الله فقد حصل بقوله لا والله رد الجواب وما بقي ذكر اسمه عليه السلام إلا إعظامه وتبركابه نهطى بذكرهم أنسى وبيحلو لفظي بكلماتكم والصلاة عليك من الله رحمة لنا

١٩٨

(حديث زواجه صلى الله عليه وسلم بميمونة رضي الله عنها)

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ تَزَوَّجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَيْمُونَةَ وَهُوَ مُحْرِمٌ وَبَنَى بِهَا وَهُوَ حَلَالٌ وَمَاتَتْ بِسَرَفٍ

ظاهر الحديث يدل على جواز نسكاح المحرم وليس الأمر على ظاهره لأنه صلى الله عليه وسلم نهى عن نسكاح المحرم وإنما ذكر أهل العلم في هذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم وكل وهو حلال من يعقد نكاحه معها رضي الله عنها فإنها كانت خرجت برسم الحج قبل خروج النبي صلى الله عليه وسلم وكان توكيل النبي صلى الله عليه وسلم لمن يعقد نكاحه معها وهو بالمدينة قبل خروجه للحج أيضا فخرج من وكله على ذلك وعقد النكاح بعد إحرام النبي صلى الله عليه وسلم فالذي رأى ذلك روى ما رأى ولم يكن عنده علم بالتوكيل في ذلك وهذا ليس بقدر في الرواية لأنه روى ما رأى كما فعل في إحرامه صلى الله عليه وسلم فبعض الناس روى أنه عليه السلام أحرم من المسجد وبعضهم روى أنه أحرم حين استوت به راحلته وبعضهم روى أنه أحرم حين توسط البيداء فشق ذلك على بعض السادة وقال حجة واحدة واختلاف الناس في ذلك فقال ابن عباس وهو راوى هذا الحديث أنا أزيل لكم هذا الاشكال كنت معه عليه السلام فأحرم من المسجد فمن كان هناك روى ما سمع ثم خرج وخرجت معه فلما استوى على راحلته لبي فمن كان هناك روى ما سمع ثم مشى ومشيت معه فلما توسط البيداء والناس أمامه وخلفه ويمينه ويساره مد البصر ولبي فمن كان هناك روى ما سمع فالكل قالوا حقاً

وفيه دليل على أن الشاهد إنما يشهد بما رأى أو علم ولا يلزمه علم ما خفي من الأمر يؤخذ ذلك من كون الصحابي روى ما رأى ولم يكن له علم بما بطن من الأمر كما ذكرنا يؤيد هذا قوله تعالى (وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين) (وهنا بحث) وهو أن يقال ما الفائدة من إخباره بأنها ماتت بسرف وهو موضع بين مكة والمدينة فهو إيضاح حال ليكون تصديقا لما به أخبر فانه أخبر بزواجها ودخول الرسول عليه السلام بها وهو حلال وموتها بسرف فمن يعرف هذه الجزئيات فهو صادق فيما أخبر به وبترتب عليه من الغمقة أنه ينبغي له خبر بالاشياء أن يأتي من الدلائل على تصديقه بما أمكنه فان ذلك دال على تحرزه في النقل والاخبار لتهمة المعترض السيء الظن

وفيه دليل على جواز الزواج في السفر والدخول بالأهل فيه يؤخذ ذلك من إخباره أنه عليه السلام دخل بها وهو حلال وذلك كونه في سفره عليه السلام بالحج ورجوعه منه قبل دخول المدينة

(حديث طاعة الأمير لا تكون إلا في معروف شرعا)

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ قَالَ بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِرِّيَّةً وَاسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ فَغَضِبَ فَقَالَ أَلَيْسَ أَمْرُكَمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُطِيعُونِي قَالُوا بَلَى قَالَ فَاجْمَعُوا حَطَبًا فَجَمَعُوا فَقَالَ أَوْقِدُوا نَارًا فَأَوْقَدُوهَا فَقَالَ ادْخُلُوهَا فَهَمُّوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمْسِكُ بَعْضًا وَيَقُولُونَ فَرَرْنَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ النَّارِ فَزَالُوا حَتَّى خَدَّتِ النَّارُ فَسَكَنَ غَضَبُهُ فَبَاغَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ

ظاهر الحديث يدل على أن لاطاعة للأمير على من أمر عليه إلا فيما فيه طاعة والكلام عليه من وجوه

(منها) أن من السنة أن لا تخرج سرية حتى يكون عليها أمير يؤخذ ذلك من قوله (واستعمل رجلا من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه) وفيه دليل: على أنه لا تتم إلا مرة لمن أمره الإمام حتى يفصح بأن أمره عليهم بالطاعة له يؤخذ ذلك من قوله وأمرهم أن يطيعوه

وفيه دليل: على جواز الكلام للأمير والأمير في حال الغضب لكن لا ينفذ من المأمور به إلا ما وافق لسان العلم ويرد ما عدا ذلك يؤخذ ذلك من أن أمير هذا السرية تكلم في حين غضبه بأشياء فباغ جميع ذلك كله للنبي صلى الله عليه وسلم فمنع منها ما خالف لسان العلم وسكت عن الباقي وسكوتها عليه السلام دال على جواز دفن كلام الأمير ذكر فيه ما هو حق وهو قوله (أليس أمركم النبي صلى الله عليه وسلم أن تطيعوني) وهذا قول حق فاضره الغضب ثم أمر بشي من قبيل الجائز وهو جمع الحطاب ووقد النار والجائز لا يؤثر فيه غضب لأنه باق على حاله من الجواز ثم أمرهم بدخول النار وهو ممنوع شرعا فهذا هو الذي منع النبي صلى الله عليه وسلم من جميع قوله وهو ممنوع في كل حال وفيه دليل: على أن الغضب يغطي على ذوى الأحلام الحق في بعض الأمور لأن هذا الأمير الذي أمره النبي صلى الله عليه وسلم على السرية لم يؤمر حتى كان فيه دين زائد وفضل ولو لا ما لحقه من الغضب ما لحقه ما أمر جماعة من المسلمين أن يبرقوا أنفسهم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم إذا غضبت فاسكت، لأن كل متكلم في حال الغضب وإن قل حقا لا بد له من شيء ما يقع به وقد جاء من طريق آخر أن الغضب

من الشيطان فمن أصابه فليمتوضأ فإنه يذهب عنه، وقد روى مثل هذا عن معاوية رضى الله عنه حين قال له بعض الناس وهو على المنبر أعط الناس عطاياهم فإن المال ليس من كسبك ولا من كسب أبيك ولا من غزل أمك فقال على رسلكم فنزل ودخل منزله فخرج وعليه أثر الماء فقال أما بعد فإنه لما قال الرجل مقالته أغضبني وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وذكر الحديث الذى ذكرناه آنفا وقد زال عني الغضب وصدق الرجل ليس المال من كسبي ولا من كسب أبى ولا من غزل أمى وإذا كان فى غد تأخذون عطاياكم ولأهل الطريق فى مثل هذا السبق العظيم فما ذكر عن بعضهم أنه كان له غلام وعمل الغلام على أن يغضبه فبقى يروم ذلك زمانا مهما عمل شيئا يوجب الغضب عليه حلم عليه وعنى فلما كان يوما قال له ائتنى بالدابة مسرعا لضرورة لى فابطأ عليه فمشى بنفسه إلى حيث كانت الدابة فاذا بالغلام قد عرقبها وهى ملقاة بالأرض والغلام قاعد ينظر إليها فسأله من فعل هذا قال له أنا قال له وما حملك على هذا قال أردت أن أغضبك فانك منذ اشتريتني أروم ذلك منك وما قدرت عليه فقال له إنى إن شاء الله أغضب من أغواك إذ ذهب فأنت حر لوجه الله

وفيه دليل : على أن المنجى من النار هو الإيمان يؤخذ ذلك من قولهم ﴿ فررنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من النار ﴾ فاذا الفرار إلى النبي صلى الله عليه وسلم فرار إلى الله تعالى والله عز وجل يقول (ففرروا إلى الله) والفرار إليه سبحانه هو اتباع أمره واجتناب نهيه

وفيه دليل : على أن الطاعة للأمير لا تنفع صاحبها إلا إذا كانت موافقة للسان العالم وإلا فهى معصية يؤخذ ذلك من أن بعض أهل تلك السرية أرادوا أن يدخلوا النار اتباعا لأمر أميرهم يقصدون بذلك القربة إلى الله سبحانه ثم أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لما باغى الأمر أنهم لودخلوها ماخرجوا منها فدل ذلك أنها إن لو كانت لكانت من الكبائر

وفيه دليل : على أن من السنة رد أخيك المسام عن ما يضره بالقوة إذا لم يقبل منك بالقول يؤخذ ذلك من كون الذين أرادوا أن يدخلوا النار ولم يسمعوا من قول إخوانهم فررنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم من النار حبسواهم بالقهر حتى أخذت النار يقوى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم أنه نصر أحاك ظالما أو مظلوما فنصر الظالم أن ترده عن الظلم بأى وجه قدرت

وفيه دليل : على أن أهل الفضل ليس المعصوم منهم إلا من شاء الله تعالى يؤخذ ذلك من أن فضل أولئك الناس كلهم لاشك فيه وقد غلط بعضهم بأن ظن أن دخول تلك النار إلتباعا لأمر أميرهم طاعة ولم يكن كذلك

وفيه دليل : على أن الجمع من هذه الأمة لا يجتمعون على غلط يؤخذ ذلك من كون تلك السرية انقسموا قسمين منهم من هان عليه دخول النار فظنه طاعة ومنهم من لم يظهر له ذلك فكان

خلافهم سببا لرحمة الجميع

وفيه دليل: لمن يقول اختلاف العلماء رحمة وقد قال صلى الله عليه وسلم: «من تجتمع أمته على ضلالة» وفيه دليل: على أن من كان صادقا مع الله تعالى لا يقع إلا في خير وإن قصد شرا وأراده فإن الله يصرفه عنه يؤخذ ذلك من أنه لما كان الذين أرادوا أن يدخلوا النار وظنوا أنها طاعة لله تعالى فبصدقهم مع الله جعل الله إخوانهم حبسهم عن ذلك حتى نجوا من هذا الأمر العظيم ومن كلام أهل التحقيق من صدق مع الله وقاه الله ومن توكل على الله كما هاء الله وهداه جعلنا الله منهم بمنه لا رب سواه

(٢٠٠) ﴿حديث ثواب قارئ القرآن الحافظ له والمتدبر لمعانيه﴾

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مِثْلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ مَعَ السُّفَرَةِ الْكِرَامِ وَمِثْلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ فَلَهُ أَجْرَانِ

ظاهر الحديث يدل على حكمين أحدهما أن الذي يقرأ القرآن ويعمل به هو مع الملائكة والثاني أن الذي يتعاهده بالتلاوة وهو عليه شديد له أجران والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال ما معنى قوله مع الملائكة وهم السفرة كما أخبر عز وجل عنهم بقوله تعالى (بأيدى سفرة كرام بررة) وتبين الأجر الذي لقارئ القرآن ومنه تبين تضعيفه لأنه لا يتبين التضعيف إلا بعد معرفة الأصل فعنى قوله عليه السلام ﴿مع السفرة الكرام﴾ الذي أشرنا إليهم وهم الملائكة لأنه يحصل له الأمن في الدنيا والآخرة أما في الآخرة فيدل على ذلك قوله تعالى (تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة) وأما في الدنيا فيدل على ذلك قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا هل أداكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم إلى قوله تعالى نصر من الله وفتح قريب) ومن الحديث قوله عليه السلام في الذي حفظ القرآن «كأنما أدرجت النبوة بين كتفيه» والأنبياء عليهم السلام لهم خير الدنيا والآخرة والفرق بين حفظه والمحافظة عليه لأن حفظه يحصل بالدرس وقد يحفظه البر والفاجر وقد قال صلى الله عليه وسلم «من علامة الساعة أن يفتح للناس في حفظ القرآن يحفظه البر والفاجر يجادلون به المؤمنون ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله» أو كما قال عليه السلام والمحافظة عليه التي هي العمل به لا يكون إلا للخصوص من المؤمنين أولئك حزب الله وهم المفلحون الذين هم مع الملائكة السفرة الكرام لأن المحافظة على الشيء الاعتناء به وعمله على ما يجب لقوله تعالى (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى)

وفيه دليل: على أن أعلا الأحوال حفظ القرآن والعمل به

وفيه دليل: لمن يقول إن الملائكة أرفع من بنى آدم الصالحين يؤخذ ذلك من كون أعلى مراتب

درجة هذا أن جعل مع الملائكة وأما الكلام على أجر من قرأ القرآن بلا شدة عليه فقد جاء «أن له بكل حرف عشر حسنات لا أقول ألف لام ميم حرف ولكن الألف حرف واللام حرف والميم حرف» وقد جاء «أن من قرأ القرآن قائماً في الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة وإن كان قاعداً خمسون وإن كان في غير صلاة على طهارة خمس وعشرون وإن كان على غير طهارة عشر حسنات» وقد جاء «أن من قرأ القرآن وهو يعلم لم رفع ولم نصب كان له بكل حرف سبع مائة حسنة» فعلى مقتضى هذه الآثار إذا تعاهده على وجه من هذه الوجوه وهو عليه شديد كان له ضعفان من ذلك الأجر المسمى وفي مقتضى هذه الأخبار دليل على أنه ليس في جميع النوافل أرفع من قراءة القرآن إلا أنه يجب أن تكون القراءة كما ذكر بعد في الكتاب وهو قوله عليه السلام «اقرأوا القرآن ما اتفقت عليه قلوبكم فإذا اختلفتم فقوموا عنه» ويكون خالصاً لله عز وجل لا من أجل أجره تؤخذ عليه ولا أن يجعل صنعة ليتوصل به إلى شيء من حطام الدنيا وإن كان بعض الوجوه في أخذ الأجر عليه خلاف فجواز أخذ الأجر ليس هو من هذا الباب لأن هذا باب تعبد وذلك باب ما يجوز من أنواع التكسيات وما لا يجوز فلا يجتمعان لأن الله عز وجل يقول في أنواع التعبد (وما أمر إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) والاخلاص أن يكون لله عز وجل لا يخالطه غيره وقد جاء أن يوم القيامة يقول الله سبحانه وتعالى للذي خالط في عمله مع الله غيره «أنا أغنى الشركاء اذهب فخذ الأجر من غيري» وقد قال بعض أهل المعاملات مع الله تعالى بالصدق والاخلاص إن قراءة القرآن بالتدبر والحضور حياة النفوس وإنه عز الأرواح فمن فهم هام ومن حرم تاه وظن أنه يحسن صنعا أحيا الله أرواحنا به وجعلنا من حزن به بمنه وكرمه

(٢٠١) ﴿حديث فضل آخر سورة البقرة في التهجد﴾

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَّتَهُ

ظاهر الحديث يدل على أن من قام في ليلة بالآيتين من آخر سورة البقرة أجزأه عن قيام الليل وصح له اسم التهجد والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال هل هي بنفسها تجزي لمعنى فيها خاص أو هل هي على طريق التمثيل أنه من قام بالآيتين يكون طولهما كهايتين كفتاه وإن كانتا أقل لا تكفيهما أو هل يكون معنى الكلام أن من قام بهما أو بآيات تحوى من المعاني مثل ما حوتا كان له في ذلك كفاية وإن كان أقل من ذلك لم تجزه ﴿فالجواب﴾ اللفظ نفسه محتمل لكن من خارج يقع التخصيص ﴿فمنها﴾ أنه قد جاء عنه صلى الله عليه وسلم

أنه قال « من قام بالآيتين من آخر آل عمران كفتهاء » أو كما قال عليه السلام وقد قال الله عز وجل (ومن الليل فتهجد به) ولم يخص آية دون آية وقد كان قيامه صلى الله عليه وسلم لم يخص أيضا آيات دون آيات بل ما من شيء من الكتاب العزيز إلا وقد قام عليه السلام به وقد كان يتنفل ببعض مرار في قيامه بقراءة هاتين الآيتين ثم يتنفل بعدهما بما شاء ثم مرارا يقوم وبقراءة غيرها ولا يقرؤهما فلما كان قيام الليل من المستحسن والمستحب فيه طول القيام وكذلك كان الغالب من فعله صلى الله عليه وسلم كما جاء من رواية عائشة رضي الله عنها قالت « كان يقوم بأربع لا تسأل عن حسنهن وطولهن ثم بأربع فلا تسأل عن حسنهن وطولهن » فجاء هذا الحديث تبيننا بمقدار الطول المجزئ في القيام وما زاد على ذلك يكون زيادة في الخير واتباعا لقوله صلى الله عليه وسلم وجاء التمثيل بهما تين الآيتين والتي في آخر آل عمران على طريق التمثيل لكن هاتان الآيتان أقصر من الآيتين اللتين في آخر آل عمران فإن كان هذا الحديث هو المتقدم فيكون ذكر التي في سورة البقرة تحقيقا ونحن لانعلم المتقدم منهما فإن أخذنا بالأحوط فنعمل على الحديث الذي فيه آخر سورة آل عمران وتكون التي في آخر سورة البقرة على الرجا، وإن أخذنا بأحد الوجوه التي ذكرها الفقهاء عند تعارض الأدلة وعملنا على التي في آخر آل عمران قلنا وجء من الفقه والوجوه التي ذكرها الفقهاء عند تعارض الأدلة هي أربعة وقد ذكرناها فيما تقدم من الكتاب

وفيه دليل : على أن قيام الليل مطوب شرعا وبقي البحث على أي وجه هو هل على الوجوب أو على الندب قد اختلف العلماء في ذلك فالجمهور على أنه على الندب ونص الكتاب ينبيء بهذا وهو قوله تعالى (نافلة لك) ومنهم من قال هو على الوجوب وأقل ما يجزئ فيه قدر فواق ناقة وهو والله أعلم يدل على هذا الحديث بطريق ما لأن ما لكما رضي الله تعالى عنه يقول كل ما يكون فرضا فلا بد أن يكون محدودا بالكتاب أو بالسنة وما ليس بمحدود بكتاب ولا بسنة فليس بفرض وهذه السنة في هذين الحديثين قد جاءت في قيام الليل وإذا تأملت هذا الحديث تجده قدر فواق الناقة التي قد حدها الذي جعلها فرضا وهو قدر ما يقام بهاتين الآيتين

وفيه دليل : على حسن تعليمه ﷺ يؤخذ ذلك من تحديده عليه السلام بهاتين الآيتين وكثير من الآي في الطول مثلها فخصصهما بالتحديد لما فيهما من معنى الدعاء وفي ذكره إياهما إرشاد منه صلى الله عليه وسلم إلى سنته ومن سنته عليه السلام في تهجده إذا مر بآية رحمة بكى وإذا مر بآية عذاب استعاذ وإذا مر بآية تنزيه لله سبحانه سبح وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فاذا ختم السورة فليقل آمين » فيحصل له [فض] الدعاء قطعاً لأن كل مؤمن داع وفيه دليل : على أن أجل الأحوال في الصلاة قوة الإيمان يؤخذ ذلك من تحديده عليه السلام

بهايتين الآيتين وبالقى في آخر آل عمران لأن قراءة إحداهما فيهما لمن تدبرهما قوة في الايمان وقد قدمنا كيف كان حاله عليه السلام في قيامه أنه كان يكسوه من كل آية يقرأها حال يناسب معنى تلك الآية وكذلك ينبغي أن تكون تلاوة القرآن وإلا يكون تاليه (كالخمار يحمل أسفارا)

وفيه دليل : على الارشاد في القيام إلى الاستكانة والخضوع والافتقار يؤخذ ذلك من تحديده عليه السلام بهذه الآية لأن تدبرها يوجب الخضوع لله تعالى والافتقار إليه لأنه إذا تذكر القارى ذنوبه أوجبت له الذلة والمسكنة وإذا طالب المغفرة منها أوجب له ذلك صدق اللجأ إلى مولاه الكريم والافتقار إليه

وفيه دليل : على أن من أجل صفات المصلى حسن ظنه بمولاه يؤخذ ذلك من أن من طلب النصر على عدوه إنما يكون بصدقه مع الله وحسن ظنه به والله عز وجل يقول على لسان نبيه عليه السلام «أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء» رواه الشيخان

وفيه دليل : على أن المرغب فيه في القراءة في القيام التدبر مع القراءة وإن قلت وهو خير من كثرة القراءة بلا تدبر يؤخذ ذلك من تحديده عليه السلام بهذه الآية لأنها بنفس تلاوتها يفهم معناها فيحصل للقارى بها قراءة وتدبر ومعرفة بمعنى الآية لأن فائدة التدبر هو أن يعرف معنى ما يتلوه من الآية وهاتان بنفس التلاوة يحصل الفهم بمعناها فيكون التالى لهما في تهجد على أكمل الأحوال وهو التلاوة مع الفهم وفيه دليل : على ما أعطى الله سبحانه له عليه السلام من البلاغة وحسن الإدراك يؤخذ ذلك من تمثيله عليه السلام بهايتين الآيتين اللتين جمعتا جملا من المعاني الحسان كما أبديناه بتوفيق الله تعالى وإذا تأملت وجدت أكثر وأبدع فأن عجائبه لا تنقضى وفيما أبديناه دليل على أن الفهم في كتابه عز وجل وسنة نبيه عليه السلام لا ينال إلا بالفضل وإن طالب ذلك من غير هذا الوجه متعن وبهذه الإشارة بقوله تعالى (واتقوا الله وبعلمكم الله) فأرشدنا عز وجل إلى عمل البساط لذلك والنهي له باستعمال التقوى وأن التعليم إنما هو منه عز وجل وما هو منه فطريقه الفضل لأنه سبحانه لا حق عليه واجب وفيه دليل : لأهل المعاملات مع الله تعالى لأنهم ما فعلوا طريقهم في كل الأشياء إلا بتقواه عز وجل والوقوف ببابه من الله علينا بما به من عليهم في الدارين بفضلته وكرمه

(٢٠٢) ﴿حديث جواز التحصن بالقرآن عند النوم﴾

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا آوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَقُلْ اعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقُلْ اعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ يَبْتَدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ

ظاهر الحديث أن من سنته صلى الله عليه وسلم التحصن من الآفات عند النوم بقراءة قل هو الله أحد والمعوذتين مع مسه بريقه المبارك يفعل ذلك ثلاث مرات والسلام عليه من وجوه

(منها) أن يقال ما الحكمة في فعله عليه السلام هذا هل هو تعبد لا يعقل له معنى أو هو معقول المعنى فإن قلنا غير معقول المعنى فنقول هذه سنته عليه السلام ولا يعقل لها معنى وإن قلنا إنه معقول المعنى وهو الأظهر فالحكمة فنقول احتملت والله أعلم وجوها

(منها) أن يكون عليه السلام تعوذ من الشيطان وإن كانت ذاته المباركة محروسة من الشيطان فيكون ذلك على طريق التعليم لنا والارشاد إذ ذاته المباركة محروسة من الشيطان وهو يفعل هذا فكيف بالغير فيكون من قبيل التأكييد كما فعل عليه السلام في تأكيده على التوبة والاستغفار بقوله عليه السلام «إني أستغفر الله في اليوم سبعين مرة وأتوب إليه في اليوم مائة مرة» ويحتمل أن يكون على وجه التبرك بكتاب الله عز وجل لأنه قد جاء «أنه من قرأ سورة من كتاب الله عند نومه باتت تحرسه» (ويترتب عليه من الفقه) في حقنا التحصن بآيات الله تعالى وبكتابه من كل سوء يتوقع

ومما يقرى هذا ما روى عنه صلى الله عليه وسلم في يوم الأحزاب أنه كان تحصينه بقوله تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) والدعاء المذكور بعدها وهو ما روى عن الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ يوم الأحزاب (شهد الله أنه لا إله إلا هو) إلى آخرها وقال «وأنا أشهد بما شهد الله به وشهدت به ملائكته واستودع الله هذه الشهادة وهذه الشهادة وديعة على عند الله يؤديها إلى يوم القيامة اللهم إني أعوذ بنور قدسك وعظيم ركنك وعظمة طهارتك من كل آفة وعاهة ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير اللهم أنت غياثي بك أستغيث وأنت ملاذى بك ألوذ وأنت عياذى بك أعوذ يا من ذلت له رقاب الجبابرة وخضعت له أعناق القراعنة أعوذ بك من خزيك ومن كشف سترك ونسيان ذكرك وإنصرافى عن شكرك أنا فى حرزك ليلي ونهارى ونومى وقرارى طعنى وإسفارى وحياتى ومماتى ذكرك شعارى وثناؤك ثارى لا إله إلا أنت بحانك وبحمدك تشريفا لعظمتك وتكريما لسبحات وجهك أجرنى من خزيك ومن شر عبادك واضرب على سرادقات حفظك وأدخلنى فى حظ غنايتك وجد على بخير منك يا أرحم الراحمين» (وأما حكاية الشافعي) فى تحصينه بهذه الآية المذكورة مع الدعاء المذكور بعدها مما خافه فإن الخليفة وجه إليه مغضبا عليه ليوقع به نكالا فلما جاءه الرسول توضأ وخرج وهو يحرك شفتيه فلما دخل على الخليفة جلس به إلى جنبه وأحسن له فى القول ودفع له جملة مال فخرج من عنده بخير خروج فاتبعه الرسول الذى وجه إليه فقال له ناشدتك الله ما كنت تقول حين كنت تحرك شفتيك فأزال الله به غيظ الخليفة وأبدله رضى

وإحساناً فذكر له هذا الذي رواه عن مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ يوم الأحزاب (شهد الله أنه لا إله إلا هو) إلى تمامه واحتمل أنه لما كان سبب نزولها شفاء له عليه السلام من السحر الذي سحره اليهود وشفى بها استصحب الحسب تأديباً مع أثر حكمة الله تعالى وقد قال صلى الله عليه وسلم «من رزق من باب فليزمه» وهو عليه السلام ما يرشد بشيء إلا وهو أشد الناس حرصاً على عمله ﴿وبترتب على ذلك من الفقه﴾ لنا أن يلتزم الشخص الأشياء المنهجية من الأنواء التي هي على مقتضى الكتاب والحكمة وإن كان في الوقت موافق في نفسه فإنه لا يأمن ما في الغيب (ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون)

وفيه دليل: على أن اتخاذ الفراش لا ينفي الزهد وهو من السنة لأنه عليه السلام أزهد الناس وقد اتخذ الفراش ولأنه مما إليه حاجة البشر

وفيه دليل: على أن النوم وما تدعو إليه الضرورة كله آخرة لأنه عون عليها يؤخذ ذلك من كونه عليه السلام كل ليلة لا بد له من النوم في فراشه وإنما الشأن في كيفية الفراش كيف يكون وفيه دليل. على أن بقدر رفع المنزلة يكون الخوف يؤخذ ذلك من دوامه صلى الله عليه وسلم على ذلك كل ليلة مع كونه عليه السلام معافى محفوظاً مبشراً بخير الدنيا والآخرة لكن مع علو منزلته عليه السلام كانت شدة خوفه وقد صرح عليه السلام بهذا حيث قال «إني لأخشاكم لله وأعلمكم بما أتق» وقد قال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وهو عليه السلام أعظم العلماء بالله وكذلك كان على رضى الله عنه الذي قال عليه السلام في حقه «أنا مدينة العلم على بابها» إذا كان وقت الأمن والعافية روى عليه أثر الحزن والخوف وإذا كان وقت الشدائد والخوف روى عليه أثر السرور والاستبشار فقواله في ذلك فقال «الدنيا لا تبقى على حال ما من شدة إلا وبعدها فرج وما من فرحة إلا اتبعها ترحة» فهذا مقام العلماء حقاً أن يكون حالهم على مقتضى ما دلت عليه الآي والآثار

وفيه دليل: على أن طمأنينته عليه السلام إنما كانت بالله يؤخذ ذلك من فعله عليه السلام ذلك عند دخول الفراش وحينئذ يأتيه النوم لأن النوم لا يجتمع مع الخوف لأن الخوف مذهب له فإذا تلا كتاب الله تعالى ومسح بأثره ذلك الجسد المبارك ذهب عنه ذلك الخوف الشديد واطمأننت تلك النفس المباركة فأتاه النوم وقد قال عز وجل (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) ولا يطمئن بذكر الله إلا القلوب الخائفة منه عز وجل وأما غيره هؤلاء فأنما يكون طمأنينة قلوبهم بحسب عاداتهم مثل الملوكة ما تطمئن قلوبهم إلا بحسن جيوشهم وكثرتها والتجار بكثرة مالهم وتديبرهم وأهل كل نوع بما جرت به عاداتهم في ذلك وأهل التقوى إنما يكون اطمئنان قلوبهم بذكر مولاهم وسيدنا صلى الله عليه وسلم رأسهم وأصلهم وفيه دليل: على دوام حاله عليه السلام متردداً بين الخوف والرجاء يؤخذ ذلك من دوامه عليه

السلام على ذلك كل ليلة وهي حالة أولها يدل على الخوف وآخرها يدل على الرجاء وأما كونه عليه السلام يفعل ذلك ثلاثاً فذلك أنه دال على أنه ليس على طريق الرقي ولا التداوى بدليل ما جاء عنه عليه السلام في الآثار أن الأشياء التي كان عليه السلام يفعلها على طريق التداوى والرقي يعيدها سبعاً والذي يفعلها لغير هذين الوجهين يكون له بها اعتناء ويكون في ذاتها لها بال يعيدها ثلاثاً واحتمل أن يكون فعله عليه السلام ذلك عند النوم لما أن كان النوم الموتة الصغرى فجاء هذا النوع من الإبلاغ في التبعيدات والاستكثار من أثر بركة الله تعالى حتى أنه بعد ما يتعبد ويأوى إلى الفراش حيث تكون الراحة يجري العادة غالباً يجعل فيه تعبد أولئك التعبد أثر يبقى على بشرية بدنه المبارك بعد النوم وهو أثر ذلك التمسح بذكر الله تعالى والريق المبارك وفيه وجه من التشبه بالموت الحقيقي كما أن الميت يظهر حتى يكون قدومه على مولاه بأثر عبادة على بدنه كذلك في هذا وجعلها وترا كما هو غسل الميت وترا وقد جاء «أن الذي ينام على طهارة أن روحه تسجد بين يدي مولاه» فكيف إذا كان مع الطهارة هذه الزيادة

وفيه دليل : على حب سيدنا صلى الله عليه وسلم في التبعيدات يؤخذ ذلك من كثرة اشتغاله عليه السلام بها على أنواع مختلفة وهي لم تفرض عليه مثل هذا وما أشبهه وإذا تأملت وتبعت أثره صلى الله عليه وسلم تجده كذلك لأن من أحب شيئاً أكثر منه

وفيه دليل . على فضل ما جاء به عليه السلام يؤخذ ذلك من كونه مأمناً من أوصاف البشرية إلا ظهرت عليه حتى يحقق عليه ذلك ومع ذلك الصفات الملكية قد تحلى بها أتم تحل (منها) دوام العبادات وتنوعها مثل ما نحن بسبيله من هذا الحديث ولم يكن عليه السلام يتحرك حركة إلا بذكر الله عز وجل ولا أكل ولا شرب ولا جامع ولا لبس ثوباً إلا بذكر الله تعالى عند ذلك كله ويجد للطاعة حلالة ويتنعم بها وقد صرح عليه السلام بهذا المعنى بقوله عليه السلام «وجعلت قرت عيني في الصلاة» ويقول عليه السلام «أرحنا بها يا بلال» وقد وصفه واصفه حيث قال كان كثير الذكر طويل الفكرة لا يضحك إلا تبسماً فهذه أوصاف ملكية اجتمعت فيه وله السكامل في أوصاف البشرية مأمناً خطة محمودة من أوصاف البشرية إلا أنه عليه السلام فيها التقدم وكذلك في التحلى بالأوصاف الملكية صلى الله عليه وسلم وجعلنا بجرمته من صالحى أمته

(٢٠٣) (حديث جواز قراءة القرآن المراكب على الدابة)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَغْفَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ أَوْ جَمَلِهِ وَهِيَ تَسِيرُ بِهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفَتْحِ أَوْ مِنْ سُورَةِ الْفَتْحِ قِرَاءَةً لَيْتَهُ وَهُوَ يَرْجِعُ

ظاهر الحديث يدل على جواز قراءة القرآن للراكب وهو يسير والكلام عليه من وجوه

(منها) قوله (على ناقتة أو جملة) شك من الراوى

وفيه دليل على صدقهم وتحريرهم في النقل وكذلك قوله (سورة الفتح أو من سورة الفتح) وقوله (قراءة لينة) أى فيها ترسل وتطويل وهو أحسن أنواع التلاوة وهو النوع الذى يمكن معه التدبر وقد جاء فى صفة قراءته صلى الله عليه وسلم لو شئت أن تعد حروفها لعددتها وهى حالة تدل على الوقار والهيبة لما هو يتلو وأما قوله (يرجع) فقليل الترجيع ترديد القراءة وقيل هو تقارب ضروب الحركات فى الصوت وفى صحيح البخارى كيف كان ترجيعه فقال أأثلاث مرات وهذا إنما حصل منه صلى الله عليه وسلم لأنه كان راكبا فجعلت الناقاة تحركه فتحصل هذا من صوته وقد جاء فى حديث آخر أنه كان لا يرجع قيل لعله لم يكن راكبا فلم يلجأ إلى الترجيع وليس ذلك كترجيع الغناء وقد قال عليه السلام «زينوا القرآن بأصواتكم» ذكر فيه غير واحد من العلماء أن معناه زينوا أصواتكم بالقرآن والمعنى اشغلوا أصواتكم بالقرآن والهجوا ربكاته واتخذوه شعارا وزينة وليس ذلك على تطريب الصوت وقال آخرون لا حاجة إلى القلب وإنما معنى الحديث الحث على الترتيل الذى أمر به فى قوله تعالى (ورتل القرآن ترتيلا) فكأن الزينة للمرتل لا للقرآن كما يقال ويل للشعر من رواة السوء فهو راجع إلى الراوى لا إلى الشعر فهو حث على ما يزين من الترتيل والتدبر ومراعاة الاعراب وقيل أراد بالقرآن القراءة أى زينوا قراتكم بأصواتكم وقوله عليه السلام «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» قيل فى ذلك معان فمن جملة معانيه أنه يجعله هجيرا وتسلية نفسه وذكر لسانه فى كل حالاته كما كانت العرب تفعل ذلك فى الشعر والحداء فى قطع مسافاتها وحروبها فيجد القارئ من الأنس وانشراح النفس بتلاوة القرآن كما يجد أهل الغناء بغنائهم ولا يفهم من ترجيعه عليه السلام أن يكون كترجيع الغناء لأنه صلى الله عليه وسلم قد نهى عن ذلك بقوله «اقرأوا القرآن باحون العرب وأصواتها وإياكم ولحون أهل العشق ولحون أهل الكتاب وسيأتى بعدى أقوام يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنوح لا يجاوز حناجرهم مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم» واللحون جمع لحن وهو التطريب وترجيع الصوت وهذه القراءة المنهى عنها لا يمكن معها فهم ولا تدبر وهى منافية للخشوع وهذه الصفة ليست المقصودة من التلاوة

وفيه دليل : على إظهار التعبد وهى السنة يؤخذ ذلك من قراءته عليه السلام وهو يسير على ناقتة لأنه صلى الله عليه وسلم لما كان شأنه دوام التعبد وجاءته ضرورة السير لم يترك القراءة التى كان عليه السلام يفعلها سرا لأنه فى النوافل أفضل ففعله الآن جهرا أفضل من أجل تععيد هذه القاعدة الشرعية (ويترتب عليه من الفقه) لأهل الأعمال أن المندوب كله الأفضل فيه الاخفاء ما لم يكن بموضع

لا يمكن فيه الإخفاء كالجهاد وتدريس العلم وما أشبه ذلك فإذا لم يقدر على الإخفاء فيه فإظهاره هو الأولى لأنه إن لم يكن إظهار آل الأمر إلى الترك (وفيه دليل) على أن الجهر في التلاوة أولى من طريق الأفضلية يؤخذ ذلك من كونه صلى الله عليه وسلم جهر بها في هذا الموضع (وفيه دليل) على أنه إذا تعارض في العبادة أمران أخذ بالأعلى يؤخذ ذلك من أنه لما تعارض هنا لسيدنا صلى الله عليه وسلم فضل الجهر بالقراءة وفضل إخفاء العبادة أثر الجهر في التلاوة على إخفاء العبادة وينبغي عند الإظهار أن يزيل عن قلبه حب الميل إلى المدح لأن ذلك هو الداء العضال وقد نص أهل التوفيق على أن طالب المدح مفتاح فقر الأبد أعاذنا الله من ذلك بمنه وكرمه

(٢٠٤) (حديث الأمر بحضور القلب عند قراءة القرآن)

عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقْرَأُوا الْقُرْآنَ مَا تَلَقَّتُمْ عَلَيْهِ قُلُوبُكُمْ فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فَمُورِعُوهُ

ظاهر الحديث يدل على أن لا يقرأ القرآن إلا بجمع القلب على قراءته وإذا كان القلب مخالفا لما أنت تتلوه فلا تتله والكلام عليه من وجوه

(منها) أن يقال هل هذا الأمر هنا على الوجوب أو على الندب وما حد إلتلاف القلب المجزئ في ذلك وهل هذا أيضا عام فيما قراءة القرآن فيه واجب أو مندوب أولا (فأما قولنا) هل الأمر على الوجوب أو الندب فاللفظ محتمل لكن أقل ما يكون ندبا (وفيه دليل) على أن الاعظام لجناب الربوبية هو أرفع العبادات يؤخذ ذلك من طلبه عليه السلام حضور القلب عند التلاوة واجتماعه على ذلك وهذه حالة الاعظام والاحلال وقد نص عليه السلام على ذلك بقوله وإن الله لا يقبل عمل امرئ حتى يكون قلبه مع جوارحه، فعلى هذا الحديث فيكون الأمر هنا على الوجوب

(فيقرب عليه من الفقه) الأجور التي جاءت لمن يتلو الكتاب العزيز أنها ما تصح إلا لمن يتلوه على هذه الصفة ويبقى البحث هل من يتلوه على غير هذه الصفة يكون مأثوما أولا لقوله عليه السلام (فإذا اختلفتم فهو راعنه) فإن حمل هذا الأمر الثاني على الوجوب فيكون مأثوما وإن حملناه على الندب فيكون مكروها وهو أقل الوجوه والظاهر في الموضع عدم الإثم وذلك راجع إلى ما انفصله به إن شاء الله تعالى فنقول هل ذلك النهي يتناول من قصد ذلك ومن لم يقصد أعنى أنه يقرأ وهو يقصد التفكير في شيء آخر والذي لم يقصد هو الذي يدخل بنية القراءة ثم ينظر على قلبه الغفلة والخروج إلى الفكرة في شيء آخر يستدرجه العدو في ذلك أو النفس أما الذي يدخل بنية أنه يقرأ ويفكر في شيء آخر الملائك أن ذلك مكروه من الفعل مثاله إذا كان إنسان يكلمك فتزد ظهرك إليه

وهو مخاطبك فهذه هي تلك الحالة وليس هذا من الأدب ويخاف عليه وأما الذى يدخل بنية الأدب فى التلاوة وتعرض له الغفلة أو الفسكرة فلا يخلو إما أن يدفع ذلك أو يتمادى معه فإن دفعه فيرجى أنه لا يضره لقول الله سبحانه وتعالى (إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) وقد قال أهل التوفيق إنما نحن مكلفون بدفع الخواطر السيئة لا بأن لا تقع ويؤيد ما قالوه قول سيدنا صلى الله عليه وسلم حين قال له الصحابة رضى الله عنهم إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال «أوجدتموه فقالوا نعم قال ذلك صريح الإيمان» يعنى فى دفع ذلك الشيء وتعاظم أن يتكلم به فإن تمادى مع تلك الخواطر فلا يخلو أن يكون تماديه بغفلة ونسيان أو تعمد فإن كان بغفلة ونسيان فيرجع عند استفاقته لذلك ويرجى أن لا شيء عليه لقوله صلى الله عليه وسلم ورفع عن أمى الخطأ والنسيان» وإن كان تماديه الفسد والذكر هو الذى دخل بالية المتقدمة سواء (ومما يشبه ذلك) الذى يكون يعمل شغلا وهو يقرأ فإن كان قلبه مجتمعاً على القراءة فلا يضره عمل ذلك الشغل لأن يده فيه هاربة وقلبه مشغول بعبادته وذلك بشرط أن يكون الشغل مما ليس فيه فساد ولا نجاسة ويكون المحل طاهراً ولا يكون فيه لغف ولا شيء مكروه وإن كان قلبه متعلقاً بالشغل فمنوع له القراءة والمنع على أحد الوجوه المتقدم ذكرها وأما حد تألف القلب المجزىء فى ذلك فأقله أن تسمع بقلبك ما تتلوه بألسانك كأنك تسمع لغيرك يقرأ عليك وألا أن تفكر فى معناه حتى تفهم ما أنت تتلوه ويكسوك من كل معنى يرد عليك حال يناسبه تأسيساً بالنبي صلى الله عليه وسلم فى تهجده كان إذا مرت به آية رحمة سأل وإذا مرت به آية عذاب استعاذ وإذا مرت به آية تنزيه سبّح وإذا مر به مثل تدبر واعتبر فن كل آية يتلوها تصدر عنه عليه السلام حال تناسبها (وإذا قلنا) هل هذا على عمومها فيها هو قراءة القرآن فيه واجب أو مندوب كالصلاة الواجبة مثلاً وصلاة النافلة والتلاوة فى غير صلاة فلا احتمال واقع لكن الأظهر أنه فى صلاة الفرض أشد لاسيما مع الحديث الذى أخرجه أبو داود وهو أنه صلى الله عليه وسلم «صلى صلاة وأسقط من قراءة السورة التى قرأ فيها بعض آيات فلما سلم سأل بعض الصحابة هل أسقطت من هذه السورة شيئاً فقال لا أعلم ثم أخرج ذلك فاما فى الثانى والثالث قال هنا أى قال نعم قال هو لها فجئنا بين يديه فسأله هل أسقطت من هذه السورة شيئاً فقال نعم آية كذا وكذا فقال له لم لا فتحت على قال ظننت أنها نسخت فقال صلى الله عليه وسلم «أقرأ كتاب الله بين أظهركم ولا تعلمون ما قرئ» ومالم يقرأ هكذا كان بنو إسرائيل حتى أزال الله الخشية من قلوبهم إن الله لا يقبل عمل امرئ حتى يكون قلبه مع جوارحه» أو كما قال صلى الله عليه وسلم وقد قال صلى الله عليه وسلم «ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها» أو كما قال عليه السلام فيكون المعنى هنا والله أعلم كما قال مالك رضى الله عنه حين سئل عن الركعتين بعد الطواف أفرض هي أم لا فقال

«هي من جنس الطواف فان كان فرضا فهي فرض وإن كان ندبا فهي ندب» (وفيه دليل) لا لاهل الصوفة الذين يجعلون الحرمة آكد أحوالهم حتى أنه ذكر عن بعضهم أنه دخل المسجد وقعد فوجده رجله فجاء أن يمدّها ثم قبضها واستغفر الله تعالى فقال له بعض أصحابه يا سيدنا ليس في هذا شيء فقال لك ليس فيه شيء وأما أنا فلا يمكنني ذلك أخاف على نفسي من العقاب وكان بعضهم باحدى رجليه أثر فاذا نظر إليه يبكي ويستغفر فسئل عن ذلك فقال كان خراج له بها فغلبني شدة الوجع حتى رقيتها فشفيت من حيني فجعلها من جملة الذنوب كونه لم يصبر ويرض بجرى القضاء فتلك الحرمة والاحترام أوجبت لهم الحرمة والاكرام فهناهم من أعطاهم ولحقنا بفضلهم بأعلام لارب سواه

(٢٠٥) (حديث الخوف من الوقوع في الزنا)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي رَجُلٌ شَابٌّ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَى نَفْسِي الْعَنَتَ وَلَا أَجِدُ مَا أَتَزَوَّجُ بِهِ الدُّسَاءَ فَسَكَتَ عَنِّي ثُمَّ قُلْتُ مِثْلَ ذَلِكَ فَسَكَتَ عَنِّي ثُمَّ قُلْتُ مِثْلَ ذَلِكَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ جَفَّ الْعِلْمُ بِمَا أَنْتَ لَاقٍ فَاحْتَصِصْ عَلَى ذَلِكَ أَوْ ذَرَّ

ظاهر الحديث يدل على نفوذ الذي جف به القلم ولا ينفع معه حيلة من الحيل والكلام عليه من وجوه (منها) أن من السنة شكوى الشخص ما به وما يتوقعه من الأذى لمن يرجو بر كته يؤخذ ذلك من شكوى أبي هريرة ما يخاف على نفسه من العنت إلى النبي صلى الله عليه وسلم (ومنها) أن المسترعى عليه ما يشكو ما به إلى راعيه (وفيه دليل) على أن النكاح لا يمين إلا ههنا القدرة على الصداق يؤخذ ذلك من قوله (ولا أجد ما أتزوج به) (وفيه دليل) على جواز تكرار الشكوى للراعي ثلاثا وكذلك لذوى الفضل ممن يرجو بر كتهم (وفيه دليل) على أن سكوت ذوى الفضل عن الجواب دليل على عدم نجاح ما قصده في ما شكاهم فان اجتزا السائل بذلك السكوت في أول مرة أو ثانية والاجاوبه المسئول في الثالثة ولا يترك جوابه في الثالثة يؤخذ ذلك من شكوى أبي هريرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثا فسكت عنه عليه السلام في الأولى والثانية وجاوبه في الثالثة لأن من خلقه عليه السلام الحياء وهو من شعب الإيمان فلهالم يكن له عنده مما سأل مخرجا أعرض عنه في الأولى لعله يقنمه ذلك وكذلك في الثانية فلما بلغ الثالثة جاوبه من أجل تقرير الحكم (وفيه دليل) على أن من الأدب أن يقدم طالب الحاجة عذره قبل طلب الحاجة يؤخذ ذلك من ذكر أبي هريرة عذره أولا وهو قوله (إنى رجل شاب) والشاب هو أشد في شهوة النكاح من غيره ولذلك جاء تعجب ربك من الشاب ليست له صبرة لقوة الدواعي عليه في ذلك (وهنا بحث) وهو أن يقال لم أمر عليه السلام بأبى هريرة بالتوكل والاستسلام للقدر وأمر غيره بعمل السبب في هذا للثمان نفسه حين أمر عليه السلام بالصوم لمن لم يطق النكاح وقال «هو له رجاء» والجمع بينهما هو أنه

صلى الله عليه وسلم طيب الدين يعطى لكل إنسان ما يصلح به كما يفعل طبيب الأبدان لما كان للذين أمرهم بالصوم فيه فائدة وقمع لتلك الشهوة الرديئة أمرهم به ولما كان الغالب هلى أبى هريرة الصوم لأنه كان من أهل الصفة وقد كان كما أخبر عن نفسه أنه يفشى عليه من الجوع ولا يعرف أحداً به وعند الحال أشد ما يكون من المجاهدة في الصوم ولم نزل عنه تلك الشهوة الباعثة أمره بالتوكل خالصاً (ويترتب على هذا من الفقه) أنه مهما أمكن المكلف عمل شيء من الأسباب الذى هو أثر الحكمة بشرط أن يكون على لسان العلم فلا يتوكل إلا بعد عملها ولا يتوكل ويترك أثر الحكمة فإنه يخالف للحكمة الشرعية وإذا لم يقدر على شيء من أثر الحكمة فليتوكل على مولاه وليوطن نفسه على الرضى بما جرت به الأقالم ولا يتعب نفسه فى أن يعمل شيئاً من الأسباب ولا بد ويرى أن ذلك منج له بما يخافه أو مبلغ له لما يرجوه فإن ذلك يخالف للسنة نعوذ بالله من ذلك وهذا القسم هو الذى أهلك كثير من الناس (وفيه دليل) على أن أقوى الأسباب أو أكثرها إذا لم يكن بموافقة القدر لا ينفع يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم (فاختص على ذلك أودر) لأن أقوى الأسباب فى منع النفس من أن يقع الشخص فى العت الذى هو الزنا أن يقطع الجارحة التى بها تقع الفاحشة لأن الفعل من البهائم إذا خصى لا يمكن له نكاح ثم مع ذلك لا يمنعه من وقوع ما قدر عليه من ذلك وفى هذا تسليية عظيمة للعاجزين عن الأسباب فيما يرجون نيله أو يخافون وقوعه وقوة فى الإيمان بأن الله على كل شيء قدير وأن الأمور تجري بمقتضى إرادته بأسباب وبغير أسباب كيف شاء لا تتوقف إرادته على شيء بلزوم يلزمه فعله أو تركه بل إرادته تنفذ كيف شاء

وفيه دليل : على أن ما جبل عليه طبع المكلف ليس بعذر له فى ترك ما أمر بتركه أو فعل ما أمر بفعله يؤخذ ذلك من أن أبا هريرة شكى ما طبعت عليه البشرية فى حين شببته عسى يكون له فى ذلك عذر فلم يعذر فيه لأنه أخبر أن ما قدر عليه يلحقه فإن قدر عليه الوقوع فيما نهى عنه وجب عليه الحد الذى حد له نعوذ بالله من شر ما جبلنا عليه بمنه وكرمه

(٢٠٦) (حديث جواز التحلل من الحج لعذر)

عَنْ هَاشِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حُبَاعَةَ بِنْتِ الزَّيْبِرِ فَقَالَ لَهَا لَعَلَّكَ أَرَدْتَ الْحَجَّ قَالَتْ وَاللَّهِ لَا أَجِدُنِي إِلَّا وَجَعَةً فَقَالَ لَهَا حُجِّي وَأَشْتَرِيْ وَقُولِي اللَّهُمَّ حَبِّسْنِي حَبْسَتِيْ وَكَانَتْ تَحْتَ الْمُقَدَّادِ بْنِ الْأَسْوَدِ

ظاهر الحديث أن الممرض عذر يجوز للحاج أن يتحلل من إحرامه حيث أصابه ولا شيء عليه وفيه حجة لمن يقول بذلك من العلماء فإن العلماء اختلفوا فى معنى قوله عز وجل (فإن أحصرتم) فقال

بعضهم لا يكون الحصر الذي يكون عذراً إلا أن يكون بعدوا كما فعل سيدنا صلى الله عليه وسلم حين منعه أهل مكة الدخول وصالحوه أن يدخلها العام القابل ومنهم من قال أن الحصر يكون بالعدو والمرضى لا غير وله في هذا الحديث الذي نحن بسبيله حجة ومنهم من قال العذر أى عذر كان عدواً أو مرضاً أو غير ذلك من جميع الأعذار فهو حصر لكن حصل الاتفاق على أن العدو حصر وبقى الخلاف بينهم فيما عدا ذلك وكذلك اتفقوا أيضاً أنه إن كان ضرورة لم يوجب فعله حجة الإسلام ﴿وهنا بحث﴾ وهو أنه لا يخفى هذا الحديث أن يكون بعد هذه الآية أو قبلها فإن كان الحديث قبل الآية فتكون الآية ناسخة للحديث على مذهب الجمهور لأن الناس قد اختلفوا في هذه الآية هل نزلت بعد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يفسخوا الحج في العمرة كما أمر الله سبحانه وتعالى في رادى العقيق حين قال عليه السلام «أتانى الليلة آت من ربى وقال لى صل فى هذا الوادى المبارك» على قولين وقد قال ابن عباس رضى الله عنه إن إتمام الحج هو أن يفسخ فى عمرة ونهى عنه عمر بن الخطاب رضى الله عنه وإن كان الحديث جاء من طريق أنه صلى الله عليه وسلم دخل عليها وهى تبكى فمن أجل ذلك سألهما (وفيه دليل) على جواز الحكم على الشخص بقرينة الحال يؤخذ ذلك من سؤاله صلى الله عليه وسلم لها لما ظهر له من حالها لم كان بكاءها لغواتها الحج من أجل ما لحقها من كونها وجمعة أو غير ذلك لئلا يتحقق ما ظهر له من حالها (وفيه دليل) على فضل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يؤخذ ذلك من أنهم ما كانت هممتهم إلا لدين عليه كان بكاءهم وبه كان فرحهم ويقوى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم إن المؤمن تسره حسنة وتؤسره سيئة أو كما قال عليه السلام فهم كانوا أكثر الناس بعد نبينهم عليه السلام إيماناً وكذلك كان فرحهم بالإيمان وحزنهم على إفاقاتهم منه مع العذر فما بالك بغير العذر والأمر اليوم على الضد سواء ما يجد الفرح إلا بزيادة الدنيا ولا أهم إلا على نقصها فى الغالب إلا أهل التوفيق وقليل ما هم فانا لله وإنا إليه راجعون على ضعف الدين

وفيه دليل : على أن مساق اليمين فى درج الكلام لا شىء فيه إلا إذا كان باراً فى يمينه يؤخذ ذلك من قولها ﴿والله لأجعلنى لإوجعة﴾ وأقرها النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك ولم يقل لها فى ذلك شيئاً وفيه دليل : على أن ما يكون من الأشياء بغير واسطة أثر الحكم ينسب إلى الله سبحانه وتعالى يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم ﴿قولى اللهم محلى حيث حبستنى﴾ فلما كان حبسها بالمرض وليس لأحد فيها من أثر الحكمة شىء وهو التسبب بسبب الحبس به إلى الله تبارك وتعالى

وفيه دليل : على أن من فصيح كلام العرب تسمية بعض الشىء بالكل يؤخذ ذلك من قول سيدنا صلى الله عليه وسلم ﴿حجى واشترطى﴾ ولم يعين عليه السلام بحجى إلا حرمى بالحج فسمى الإحرام وهو ركن من أركان الحج وجزء منه حجاً (وهنا بحث) وهو أن يقال ما فائدة إخبار

الراوي عنها أنها كانت تحت المتمدن (والجواب) أن فيه من الفقه أن المرأة لا تشاور زوجها في الحج لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال حجني واشترطي ولم يأمرها بأن تشاور زوجها فدل ذلك على أنه ليس له أن يمنعها من الحج وإنك نسي العلماء على أنه ليس للزوج أن يمنع زوجته من الحج إذا كانت ضرورة وفي منعها من التطوع خلاف ولأهل الصوفية أسوة في الصحابة رضي الله عنهم لأن ما فرحهم إلا بالدين ولا غمهم إلا على ما فاتهم منه وقال من كان فرحه بحسن دينه ففرحه في الدارين لا ينقض ومن كان فرحه للدنيا فمن قريب عاد الفرح هما

(٢٠٧) (حديث كراهيته ﷺ أن يأتي الرجل أهله طروقاً)

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكْرَهُ أَنْ يَأْتِيَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ طَرِيقًا

ظاهر الحديث يدل على أن كراهية النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتي الرجل أهله على غفلة وهم لا يعلمون بمجيئه وذلك إذا كان في سفر والكلام عليه من وجوه

(منها) أن يقال هل هذه الكراهية لحكمة تعلم أم لا ومن فعل ما كرهه النبي صلى الله عليه وسلم هل يكون على بابه من أن فاعل المكروه لاشئ عليه والتارك له مأجور أم لا وهل يتعين ذلك إذا فهمنا العلة أم لا (فأما الجواب) على قولنا ما الحكمة فيه فقد بينها صلى الله عليه وسلم في غير هذا الحديث فقال «حتى تمتشط الشمة وتستجد المغيبة» لأنه صلى الله عليه وسلم ينظر لكل ما يكون فيه صلاح وتوادر بين أمته فيرشدهم إليه فلما كانت غيبة الرجل عن أهله توجب لمن ترك التطيب وترك التزين في الغالب من عاداتهن والطيب لبعض النسوة إذا لم تفعلن منه شيئاً يبدو منهن شئ لا يعجب الزوج وربما يكون من أجلها الفراق بينهما أو تقع في النفوس كراهية وربما تسوء العشرة بينهما من أجل ذلك فأرشد صلى الله عليه وسلم إلى ما فيه ستر العيوب وسبب إلى التوادر وحسن العشرة التي هي من الإيمان (وهنا بحث) وهو أن زينة المرأة لزوجها لا تكون إلا بما هو على لسان العلم من التطيب بالطيب المشروع لمن وبحسن الثياب على قدر حالهن من جدة أو غيرها ولا يكون بتغيير خلق الله تعالى ولا بمكروه ولا بتدليس فإن ذلك كله ممنوع شرعاً ومن حاول أمراً بمحبة فهو أبعد له مما يرجوه وأقرب إليه مما يكرهه (وأما قولنا) هل على من فعل ذلك المكروه شئ فقد روى أن بعض من كان في زمانه صلى الله عليه وسلم وسمع تلك الكراهية أنه لما قفل من بعض أسفاره حمله الشوق إلى أهله أن أتاهم طروقاً فوجد مع عياله غيره قد خلفه فيهم واشتهرت قصتهم واقترضوا في المدينة قال العلماء هذا عقاب له لمخالفته السنة أهاذا الله من مخالفتها بمنه ولا عقاب أشد مما جرى على هذا المذكور مع العذر فكيف حال من يفعله دون عذر (وأما قولنا) هل يتعدى الحكم فهذه العلة التي ذكرناها حيث وجدنا وجهاً

من الوجوه يكون فيه سبب إلى التوادد وحسن العشرة أو ستر العيوب ولا يكون فيه مخالفا للسان العلم ندبا إلى فعله ومن هذا الباب نص الفقهاء على أنه لا يدخل الرجل بيته حتى يتنحى أو يتكلم أو يحمل حركة ما ينبيء بها أهله أنه داخل عليهم من أجل أن تكون على حال لا تريد أن يراها زوجها عليها وبما يقوى ذلك أنه جاء بعض الصحابة فقال للنبي صلى الله عليه وسلم «أستأذن على أمي قال نعم» فقال يا رسول الله وأنا أخدمها فقال له صلى الله عليه وسلم «أحب أن تراها عريانة» قال لا قال فاستأذن عليها إذا ومن طريق النظر أن البشرية لها ضرورات بعضها لا يجب أحد أن يطلع عليه وهو فيها وفيه دليل : على ستر العيوب ما كانت يؤخذ ذلك من كونه عليه السلام كره دخول الرجل على أهله طروقا وقد جعل بين الزوجين من المكاشفة ما بينهما وإطلاع بعضهم على جميع جزئيات صاحبه باطنة وظاهرة مالا خفاء بها على أحد حتى أنه لا يمكن أن يخفى عليه من عيوب صاحبه في الغالب شيء فكيف به في الغير فذلك من باب أخرى فالشأن أن يكون المرء شأنه ستر عيوبه في الدنيا والآخرة ومن الحق أن يسترها في الدنيا ويفضح نفسه في الآخرة وقد قال صلى الله عليه وسلم «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس» فان شغله بعيبه هو اهتمامه بزواله وتغطيته في الدنيا والآخرة وطوبى شجرة في الجنة من أحسن شجرها ﴿ وفيه دليل ﴾ لأهل السلوك الذين يقولون «إنما الصديق الذي يهدي إليك عيوبك أى ينهك عليها فصلاحها ومثل ذلك ما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يكتب لعماله رحم الله من أهدى إلينا عيوبنا فكتب إليه بعض عماله أنه بلغني أنك لبست ثوبين وأكلت بادامين فقال له أما ما كان من اثوين فأبرد أصابني وأما الادامان فكانا خلا وزيتا ولا أعود وجزاك الله خيرا فذوا المهمم السنية والفحولة العالية نسجوا على منوالهم واستنوا بسنتهم واخو التحنيت ملعذته من حال القوم وازع ولا يربعه من حسيس

(حديث جواز الشفاعة)

(١٠٨)

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن زوج بريرة كان عبدا يقال له مغيث كفى أنظر إليه يعاؤف خلفها يبكي ودموعه تسيل على لحيته فقال النبي صلى الله عليه وسلم للعباس يا عباس ألا تعجب من حب مغيث بريرة ومن بغض بريرة مغيثا فقال النبي صلى الله عليه وسلم لو راجعته قالت يا رسول الله أأمر أن قال إنما أشفع قالت فلا حاجة لي فيه

ظاهر الحديث يدل على إعداره ﷺ لذوى الابتلايات وشفاعته لهم والكلام عليه من وجوه ﴿ منها ﴾ جواز شفاعة الحاكم إن تمت أياته والشفوع عنده بالخيار في قبول الشفاعة ووردها

لعذر يكون به بخلاف الحكم فانه ليس له فيه اختيار على أى حال كان يؤخذ ذلك من قولها ﴿أنا أمرني﴾ فقال لها صلى الله عليه وسلم ﴿إنما أشفع﴾ فلم تقبل الشفاعة لما كان بها من عذر شدة بغضها له ويعلمها بشفقة النبي صلى الله عليه وسلم على الجميع على حد سواء (وفيه إشارة) إلى أن الشافع بنفس الشفاعة يحصل له الأجر وليس من شرط ذلك قضاء الحاجة يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام إنما أشفع بقوة الكلام تعلى أنه ما كان قصده عليه السلام الانفس الشفاعة لا غير وقد بين ذلك الكتاب العزيز والسنة الواضحة بالتهريج أما الكتاب فقوله تعالى (من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها) ولم يشترط فيها قبول الشفاعة وأما السنة فقوله صلى الله عليه وسلم واشفعوا تؤجروا ويخلق الله على لسان نبيه هاشم وفيه أيضا دليل على أن يشفع الفاضل عند المفضول يؤخذ ذلك من أن سيدنا صلى الله عليه وسلم هو الفاضل وقد شفع عليه السلام عند أمة معتقة ﴿وفيه دليل﴾ على أن من حسن الصحبة تنبيه صاحبك على أن يعتبر في آيات الله تعالى وأحكامه ليحصل له من قوة الايمان ما حصل لك يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم يا عباس ألا تعجب من حب مغيث بريرة ومن بغض بريرة مغيثا ﴿وفيه دليل﴾ على أن نظره صلى الله عليه وسلم كله كان بحضور وفكرة يؤخذ ذلك من تنبيهه عليه السلام للعباس على ما كان من بريرة ومغيث ﴿وفيه دليل﴾ على أن مخالفا العادة من أى الوجه كان فانها آية ينبغي التعجب منها والاعتبار فيها يؤخذ ذلك من أنه لما كان العرف بين الناس أن من أحب شخصا وأكثر من خدمته فان نفسه تميل إليه وقد يكون من أجل ذلك الحب له وقد قال صلى الله عليه وسلم وجبات القلوب على حب من أحسن إليهم والاحسان عام من وجوه فقد يكون بالمحسوس من حطام الدنيا وقد يكون بالتخدم أو حسن الكلام أو ما يكون به ادخال سرور ما على النفس فانها بذلك تميل إلى فاعله وقد تميل بمجرد المدح لها فلما كان حب مغيث بريرة وتخدمه لها وبكاؤه عليها وهشيه خلفها وذلك كله مما تستمال به النفوس لا تزيد فيه بذلك إلا بهضا كان موضعا للتعجب والاعتبار في قدرة الله تعالى ولذلك قال بعض أهل التوفيق إذا كانت حسناتى سيئاتى فماذا أتقرب، ومن هنا اعتبر أهل التوفيق وخافوا مع ما هم عليه من حسن الحال أن يقال لهم لا أقبل منكم شيئا أعاذنا الله من ذلك بمنه وكرمه ﴿وفيه دليل﴾ على حسن أدب جميعهم أحرار وعبيد يؤخذ ذلك من حسن جوابها في مراجعته عليه السلام بأن ابدت عذرها بقولها فلا حاجة لى فيه ولم تفصح برد الشفاعة بعد أن سألت هل ذلك أمراً لا (ويترتب عليه) أن من حسن الأدب إلتماس العذر إلى أهل الفضل ولا ترد لهم شفاعة مواجهة بل يكون بدل ذلك تبين العذر المانع لقبول شفاعتهم ﴿وفيه دليل﴾ على أن كثرة الحب تذهب بالحيا من الغير ولا يرى إلا ما هو فيه يؤخذ ذلك من حال مغيث كونه يمشى خلف بريرة ودموعه تسيل ولا يخفى ذلك من

هناك ولا يمن ينظر إليه لما غلب على قلبه من كثرة حبهها وهذه الطريقة أعنى كثرة الحب بالشئ تميز أهل الدنيا والآخرة فلما أن كان أهل الدنيا قد غلب دلي قلوبهم حبهالم ينفعهم ما نليت عليهم من الآيات والمواظط ولا ما جاءهم من البلايا فيها كل ذلك تد تعاموا عنه ولم يروا سوء ما هم بسبيله أعاذنا الله من ذلك بمنه ولما أن كان أهل الآخرة قد حصل لهم من المعرفة بها وحبههم لمولاهم ما حصل لهم لم يروا من الدنيا شيئاً وإن كانوا فيها ومع أهلها (ومما يذكر) عن بعض سادات أهل السلوك أنه كان مارا مع أصحابه على بعض الجبانات ونسوة ينحن على ميتهن فترك أصحابه ودخل معهم فتعجب أصحابه وتركوه وانحرفوا عنه حتى راحت النسوة وبقي هو في حاله في ذلك الموضع فأناه أصحابه وجعلوا يعتبون على ما وقع منه فقال لهم مارأيت مما تقولون شيئاً وإنما رأيت قوماً يكون على ذنوبهم قد خلت أبكى معهم على ذنوبى وخلفونى وراحوا فتعجب القوم من غلبة حال الخوف عليه حتى لم يبق له ميز إلا ما كان فيه ولذلك يروى عن رابعة العدوية في قولها فيما غلب عليها من حب مولاهما

أحبك حبين حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاكا

فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عن سواكا

وأما الذى أنت أهل له فكشفكلى الحجب حتى أراكا

وقد قال صلى الله عليه وسلم «حبك الشئ يعنى ويصم» لكن شتان ما بين الحين وقد قال بعض أهل التوفيق فى الترجيح بين الأشياء المحبوبات فمن سره أن لا يرى ماسوء فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقدا فكل ما سوى مولاه مفقود وهو سبحانه الواحد الموجود فى كل حال جعلنا الله من أهل محبته فى الدارين بفضلته

(حديث جواز ادخار قوت السنة)

(٢٠٩)

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبيع نخل بنى النضير ويحبس لأهله قوت سنتهم

ظاهر الحديث يدل على جواز ادخار قوت العيال سنة والكلام عليه من وجوه

(منها) ادخار قوت العيال سنة لا يخرج فاعله عن طريق الزهد لأن سيدنا صلى الله عليه وسلم رأس الزاهدين وسيدهم وكان عليه السلام يعطى لعياله قوت سنة بسنة ولأن إعطاء قوت العيال هو من باب إعطاء الحقوق التى عليه (وفيه دليل) على أن معاملة الغير وإن كانوا أقرب الأقرباء إنما تكون بمقتضى الحكمة إذا قدر عليه يؤخذ ذلك من فعله صلى الله عليه وسلم لأنه لما أن فتح الله عليه بنخل بنى النضير وأجرى الله حكمته أن النخل لا يستغل إلا مرة فى السنة كان إذا جاء وقت

غناها يعمل صلى الله عليه وسلم في حق الغير وإن كانوا أقرب الناس إليه وهم عياله صلى الله عليه وسلم على مقتضى الحكمة فكان عليه السلام يعطيهم نفقتهم إلى مثلها من قابل فذلك سنة وكان عليه السلام يعطي لكل واحدة منهم ثمانين وسقا من تمر وعشرين وسقا من شعير وكان عليه السلام في خاصة نفسه المسكرمة لا يدخر شيئا وكان رضى الله عنهم على حسب ما يفتح الله تعالى لهم فكان يؤثرن بما يفتح الله عليهم حتى أنه قد ذكر عنه صلى الله عليه وسلم أنه أتى له بكبش ففرقه ما حبس لعياله إلا رأسه فمالت له إحداهن ذهب الكبش كله إلا الرأس فقال عليه السلام مجاوبا لها «بل بقي كله إلا الرأس هو الذى ذهب» أو كما ورد ﴿ويترتب﴾ على هذا من الفقه أنه لا يحمل الراعى من له عليه رعاية على الزهد بالجبر ولا بأن يجبس له من حقه شيئا لعله يزهد بل يوفى له حقوقه ويندبه بعد إلى الزهد ويرغبه فيه في خاصة نفسه يحملها على ذلك على ما يختاره ﴿وفيه دليل﴾ على أن الزهد ليس من شرطه خروج المال عن اليد وإنما الزهد خروج المال عن القلب وأن لا يتعلق به وأن يصرفه فيما يرضى به ربه يؤخذ ذلك من مسك سيدنا صلى الله عليه وسلم نخل بنى النضير ولم يخرج عنها حتى مات وبقيت بعده وكان تصرفه فيها كلها على ما يرضى ربه ويقربه إليه وقد زاد ذلك بيانا بقوله عليه السلام في حديث غيره هذا «ليس الزهد بتحریم الحلال وإنما الزهد بأن تقطع الایاس مما فى أیدی الناس» أو كما قال عليه السلام فتكون بما فى يد الله أو ثق بما فى يدك وقد قالت السادة رب تارك وهو آخذ ورب آخذ وهو تارك لأن مدار الأمر على ما تحويه القلوب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم» ﴿وفيه دليل﴾ على أن التصرف أيضا فى مصالح المال لا ينافى فى الزهد يؤخذ ذلك من بيعه صلى الله عليه وسلم نخل بنى النضير لأن البيع من جملة التصرف فى المال وقد كان عليه السلام يبعث من يحرص عليهم وينظر فى مصالحها وقد قال بعض أهل المعاملات المحققين إن أعلا المراتب الذى يشارك الناس فى الظاهر على لسان العلم ويكون فيما بينه وبين مولاه على الكمال من حسن الزهد والخدمة المرضية فان الخروج عن العادة الجارية بين الناس هو من الضعف فى الحال لأن المخالطة خيرها متعدد وهو فى ذلك متبع للسنة وهى أعلا الطرق ولكن بشرط أن يقدر على ذلك فان وجد ضعفا فالهرب بالسكينة أو يكون لا يجد كيف يمشى فى ذلك على لسان العلم فالهرب الهرب ويبقى كما أخبر سيدنا صلى الله عليه وسلم حين أخبر عن الفتن فقال له بعض الحاضرين ما تأمرنى به إن أدر كنى ذلك الزمان قال يازم إمام المسلمين وجماعتهم قال فان لم يكن لهم أئمة ولا جماعة قال يعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تقض بأصل شجرة حتى يدر كك الموت رأيت على ذلك أو كما قال عليه السلام ﴿وفيه دليل﴾ على أن ما زاد على ادخار قوت السنة للعيال فليس من التوكل ويكون ذلك من باب الادخار يؤخذ ذلك من كونه لم يجىء عنه عليه السلام فى هذا الحديث ولا فى غيره أنه زاد

عياله على قوت السنة شيئاً ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن اتخاذ العيال لا يخرج عن الزهد بل هو عون على الطاعة إذا كن من أهل التوفيق يؤخذ ذلك من اتخاذ عليه السلام العيال وقد زاد ذلك بيانا بقوله عليه السلام « النكاح من سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني » وقد كان عمر رضى الله عنه يقول إني لأتزوج النساء ومالي إليهن حاجة رجاء أن يخرج الله من صلبى من يكثر به محمد صلى الله عليه وسلم الأمم يوم القيامة لكن بشرط أن يقدر على القيام بحقهم وإلا فلا يجوز له ذلك ووظيفته المتعفف والصبر والصوم والصون حتى يلهف الله تعالى به ويكون نيته أنه إن قدر على الزواج أنه يتزوج اتباعا لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فيكون مأجورا على نيته

(٢١٠) ﴿ حديث جواز عمل الرجل في البيت مع أهله ومحافظة على الصلوات ﴾

عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ يَزِيدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَأَلْتُ عَائِشَةَ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْمَلُ فِي الْبَيْتِ فَقَالَتْ كَانَ فِي مَهْنَةِ أَهْلِهِ فَإِذَا سَمِعَ الْأَذَانَ خَرَجَ

ظاهر الحديث يدل على دوام محافظة النبي صلى الله عليه وسلم على أوقات الصلوات والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن في هذا دليلا على أن خلقه عليه السلام وسيرته على مقتضى القرآن لأن الله عز وجل يقول (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) أى ملزمة بذلك الوقت فلا يؤخرها عنه فكان حاله عليه السلام بمقتضى هذا الحديث كذلك ﴿ وفيه دليل ﴾ على أن الضروريات مع أوقات الصلوات لا يلتفت إليها وإنما يشتغل بالصلاة يؤخذ ذلك من قولها كان في مهنة أهله فإذا سمع الأذان خرج أى اشتغل إذ ذاك بالخروج فلم يلتفت عليه السلام إلى شغل ولا غيره ﴿ وفيه دليل ﴾ على حسن خلقه عليه السلام وتواضعه يؤخذ ذلك من اشغاله عليه السلام بنفسه الكريمة في بيته بمهنة أهله وفيه دليل : على أن من السنة التواضع مع الأهل والتصرف لهم ومعهن في الأشياء الممتهنة وإن حقر قدرها فإن في ذلك تطييبا لنفوسهن ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز السؤال عن بواطن أحوال أهل الفضل لمن يعلمها لأن يقتدى في ذلك بهم يؤخذ ذلك من سؤال الأسود بن يزيد عائشة رضى الله عنها عما كان يصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته فجاوبته ولم تنكر عليه ﴿ وفيه دليل ﴾ على فقه عائشة رضى الله عنها ونبلها يؤخذ ذلك من حسن جوابها بأن قالت كان في مهنة أهله لأن هذا اللفظ يعم جميع أنواع ما يحتاج البشرية إليه مما يحسن قوله وبما يستباح ذكره فأبدعت في حسن الجواب

وفيه دليل : على أن من عرف من أحوال بواطن أهل الفضل شيئا ويسأل عن ذلك يخبر به لأنه من الدين إلا أنه يحتاج إلى أدب ومعرفة في الجواب كمثله هذه السيدة حتى تحصل الفائدة للسائل

ولا يكون فيما يذكره إلا ما أن لو كان الشخص حاضرا لم يكره ذلك (وفيه دليل) على ما فضل الله تعالى به سيدنا صلى الله عليه وسلم من القوة في الدين وسعة الصدر لذلك وحمله ذلك على الدوام يؤخذ ذلك من كونه عليه السلام إذا خرج إما للصلاة كما أخبرت هنا أو لما يصلح لأصحابه ولأئمة على ما تقرر من نقل أحواله عليه السلام فإنه لم يحى عنه عليه السلام أنه خرج سدا ولا فعل شيئا عبثا فكان عليه السلام في بيته حيث يستريح الناس مشغولا بمهنة أهل بيته كما أخبرت هنا وبالليل في التمجيد فهذه مجاهدة دائمة لا يحملها وضع البشرية إلا بمادة ربانية (وفي هذا دليل) لأهل الطريق الذين جعلوا طريقهم دوام المجاهدة وأن لا فترة لا باطنا ولا ظاهرا فنعم ما به اقتدوا فسمعوا وسمعنا ففهموا ما عنه عجزنا فأحسنوا فيما قالوا وفعلوا فمن أجل هذا فضلوا علينا

(٢١١) (حديث الأمر بذكر اسم الله تعالى على الطعام والأكل مما يلي الآكل) عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ وَلْيَأْكُلْ كُلُّ رَجُلٍ مِمَّا يَلِيهِ

ظاهر الحديث الأمر بذكر الله تعالى عند الأكل والأمر أيضا بأن يأكل كل رجل مما يليه والكلام عليه من وجوه

(منها) أن يقال هل هذان الأمران على حد سواء في الوجوب أو الندب أم لا وقوله اسم الله هل هو اسم مخصوص أو أي اسم ذكر من أسماء الله عز وجل أجزأ أو هل من شرط الاسم أن يكون متصلا بالأكل أم لا وقوله صلى الله عليه وسلم (مما يليه) هل في كل الأطعمة فيكون الأمر عاما في جميع أنواع الأطعمة أم لا وإذا كانت أطعمة مختلفة هل يجزى فيها تسمية واحدة أو لكل طعام تسمية وهل هذا الأمر يتناول الرجال دون غيرهم أو هو للرجال وغيرهم على حد سواء (فأما قولنا) هل الأمران على حد سواء في الوجوب أو الندب فليس على حد سواء في الطلب لأن التسمية على الطعام عند الأكل سنة والأمر بأن يأكل مما يليه مندوب إليه والتسمية على الطعام مما شرع في هذه الأمة المحمدية بمقتضى هذا الحديث وأحاديث كثيرة وهو من السنة الإبراهيمية وقد قال عز وجل (ملة أبيكم إبراهيم) وذكر عن الخليل صلى الله عليه وسلم أنه جاءه ملكان على صورة ضيوف يختبرانه بماذا اتخذ الله خليلا فقدم إليهما الطعام فتوقفا عن أكله فقال لهما كلا فقالا لا نأكل إلا بالثمن فقال ثمنه أن تسميا الله تعالى عند ابتداءه وتحمداه عند فراغه فنظر أحدهما إلى الآخر وقال يحق أن يتخذ خليلا وقد قال سيدنا صلى الله عليه وسلم بعد ما أمر بالتسمية عند الأكل والشرب فيمن لم يسم أكل الشيطان معه وشرب معه قال تعالى (ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا) (وأما قولنا)

هل هذا الاسم الذي يذكر على الطعام أو الشراب هو اسم مخصوص أو أى اسم ذكر من أسمائه سبحانه أجزأ ظاهر اللفظ لا يعطى تخصيصاً فأى اسم ذكر من أسمائه سبحانه أجزأ وأما الذى جرى الاستعمال به فذلك بسم الله ومن زاد الرحمن الرحيم فهذه جملة أسماء فقد أنى بما أمر به وزيادة والزيادة من الخير خير ولم أر أحداً ينكر ذلك إلا عند الذبح لأنك تذكر الرحمة وتذيق المهيمة العذاب وليس ذلك من خلق الإيمان لأن الله عز وجل يقول (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) ولا يعتقد أيضاً أن ذكر الرحمن الرحيم فى التسمية على الطعام مما أمرت به فتزید فى الدين ما ليس فيه وهو لا يجوز فإن زدتها تبركا فلا بأس لأنه لولا رحمته عز وجل ما أطعمك وسقاك ولا سيما مع المخالفة لأمره وارتكاب نهيه فما بقى ما به من عليك من ذلك إلا من طريق الرحمة والفضل والتزامها أيضاً بدعة وإنما الشأن إن أردت اتباع السنة أن تقول كما جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان عند الأكل يقول « بسم الله اللهم بارك لنا فيما رزقتنا، وحيتئذ تأكل فتحصل لك بركة الاسم الأعظم وبركة السنة المحمدية » (وأما هل) من شرط التسمية أن تكون متصلة بالأكل أم لا فظاهر الحديث يعطى ذلك لأنه أنى بالواو التى لا تعطى رتبة والنقل من سلف إلى خلف على أن العمل على اتصالها إلا إن كان نسياناً فلا يؤخذ به لقوله عليه السلام « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان » إلا أنه قد أحكمت السنة فى الذى ينسى التسمية عند أول أكله وشربه إذا ذكر أن يقول عند ذلك بسم الله أوله وآخره فإنه قد روى أن شخصاً أكل بحضرته النبي صلى الله عليه وسلم ونسى التسمية فلما ذكر قال كما قدمنا فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم وقال رأيت الشيطان أكل معه أولاً فلما قال بسم الله أوله وآخره قاء الشيطان كله أكل (وأما قوله) عليه السلام « وليأكل كل رجل مما يله » هل هو فى كل طعام أى نوع كان فظاهر اللفظ يقتضى العموم لكن قد قال العلماء إن ذلك فى الثريد وما أشبهه لأنه كله سواء وأما إذا كان الطعام على غير ذلك وفيه أنواع مختلفة فلك أن تجيل يدك حيث تريد لكن بأدب مع الإخوان لأن الأدب من السنة وأما إن كان الطعام يابساً مثل التمر والفواكه فلك الخيار أن تأخذه من حيث شئت وإن كان مائفاً فلا يخلوا أن يكون على صفة واحدة أم لا فإن كان على صفة واحدة فحكمه حكم الثريد تأكل مما يليك لا غير وإن كان فيه اختلاف فلك أن تجيل فيه إلا أنه بأدب وقد جاء أنه قدم له صلى الله عليه وسلم لحم فيه دباء فجعل عليه السلام يتبع الدباء فى القصعة (وأما قولنا) إن كان الطعام يختلف به أى يؤتى بطعام بعد طعام هل يجزىء فيه تسمية واحدة أم لا فلا يخلوا أن تكون تعانیه وتعلمه ويكون الأكل متصلاً ببعضه ببعض أولاً فإن كنت تعانیه وتعلمه والأكل متصلاً فتسمية واحدة تجزىء ما لم تعين نوعاً واحداً من ذلك تفرد به من غيره كما تفعل عند رميك على الطير إذا كانوا جماعة أو الأطباء وعينت الجميع فأى شيء أخذت منها

تناوله تسميتك وإن قصدت واحدا بعينه وأخذت غيره لم تناوله التسمية وقد نص الفقهاء أنه إذا دخلت حديقة وفيها أنواع من الثمار ونويت عند دخولك أن تأكل من كل ثمرة لقيت وسميت بهذه النية أجزأتك التسمية عن كل ما تأكل في تلك الحديقة في وقتك ذلك وإن كانت أشجارها متباعدة بعضها عن بعض وذلك يقتضى تعيين الأكل أيضا وإن أنت لم تسم عند دخولك إلا على الثمرة التي لقيت ولم تعين غيرها فتؤمر إذا انتقلت إلى غيرها أن تسمى عليها (وأما قولنا) هل هذا الأمر خاص بالرجال لا غير أو الرجال موجهون بالخطاب وهو تناول الكل (فالجواب) أن تقول ليس في الدين تخصيص لبعض دون بعض بل اشترك الكل في جميع الأوامر إلا ما دل دليل على تخصيصه ولا دليل هنا على التخصيص فهو عام في الكل وفي هذا الحديث وأشباهه دليل على بذل جهده صلى الله عليه وسلم في النهج والتعليم (ويترتب) على ذلك من الفقه فيما يخصنا أن من علامة السعادة للشخص أن يكون معتنيا بمعرفة السنة في جميع تصرفه والذي يكون كذلك هو دائم في عبادة في كل حر كاته وسكناته وهذا هو طريق أهل الفضل حتى أنه ذكر عن بعضهم أنه بقى سنين لم يأكل البطيخ فقليل له في ذلك فقال لم يبلغني كيف السنة في أكله فلا آكله حتى أعلم كيف ذلك وكيف لا والله سبحانه يقول في حقه (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) والاتباع الكاملة إنما تصح بأن تكون عامة في كل الأشياء جعلنا الله من أهلها في الدارين بمنه وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

٢١٢

(حديث ما خصت به العجوة من المنفعة)

عن عامر بن سعد عن أبيه رضي الله عنهم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصبح كل يوم سبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر

ظاهر الحديث يدل على أن من أكل في يوم سبع تمرات عجوة لا يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر والكلام عليه من وجوه

(منها) أن يقال هل هذه العجوة من أى بقعة كانت سواء أوهى من بقعة معينة وهل تكون في حين طراوتها أو أى وقت أكلت كانت طرية أو مدخرة وهل يحتاج في أكلها إلى نية أم لا وهل تعرف الحكمة في كونها خصت بالنفع في هذين الشيتين أم لا وهل هذا عام في المؤمن والكافر والطائع والعاصي أو ذلك خاص بالمؤمنين لا غير فأما قولنا هل تلك العجوة تكون من بقعة مخصوصة أم لا (فالجواب) أنه قد جاء حديثان أحدهما أنها المدينة والآخر أنها من العوالي فإن حملنا هذا الحديث المطلق الذي نحن بسبيله على هذين الحديثين فتكون من عجوبة العوالي أو المدينة وإن قلنا إن لكل حديث حكما فتكون مطلقة من حيث كانت نفعت فيجىء النفع إذا كانت من العوالي أو المدينة

بلاشك ويبقى النظر إذا كانت من غيرها ﴿وأما قولنا﴾ هل يكون أكلها عند جناها أو أى وقت أكلت لأن الاسم يتناولها ﴿وأما قولنا﴾ هل يحتاج فى ذلك إلى نية أولا فشكل ما كان متلقى من الرسول صلى الله عليه وسلم فالأصل فيه النية وما يدل على ذلك قول الله سبحانه وتعالى (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) لأن المؤمن إذا أخذ ما أمر به موقنا بذلك وجد الفائدة كما وعد وزيادة وإذا أخذه بغير نية فقد يبطل الأمر قليلا فيقع له تردد فيحصل فى بحر التلاف وما روى مثل هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج مرة إلى غزوة من غزواته فأمر السحابة رضى الله عنهم بالتزود فتزود بعضهم وعجز البعض ولم يجدوا ما يشتررون فأمر صلى الله عليه وسلم أن يأخذوا رواحلهم ويخرجوا معه فخرجوا فلما بلغوا إلى أحد الأودية وهو كثير الخنظل أمرهم أن يمتاروا منه فكلهم فعلوا ما أمرهم به إلا شخصا واحدا فقال فى نفسه وما جاء بنا إلا إلى الخنظل وما عسى أن أفعل به فلم يأخذ منه إلا خمس حبات ورجعوا إلى المدينة وكان للشخص الذى لم يأخذ غير خمس حبات من الخنظل غلام تركه بالمدينة فى ضرورياته فلما سمع برجوعهم إلى المدينة خرج لأن يعين سيده فوجد الناس محملة رواحلهم وليس لسيده حمل فسأله عن ذلك فقال له ما جرى فقال له الغلام أمرك وبقي عندك شك وكيف وقع ذلك وما أخذت منه شيئا قال ما أخذت إلا خمس حبات وقد ذهب عني بعضها فى الطريق فقال لها تها فاعطاه إياها فأكل الغلام منها فاذا هى مثل الشهد سوء فقال كل ترى ما حرمت فاكل فوجد مثل ما وجد الغلام فندم ندامة السكسجى والحديث الثالث حين جاء بعض الصحابة فشكى للنبي صلى الله عليه وسلم أن أخاه به بطن فأمره أن يسقيه عسلا فسقاه ثم رجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكوا إليه ثانية فأمره أن يسقيه عسلا كذلك فى الثالثة أو الرابعة فقال له عليه السلام صدق الله وكذب بطن أخيك اسقه عسلا فسقاه فشفى أخيه ﴿وأما قولنا﴾ هل تعرف الحكمة فى كونهاتنفع فى هذين الشئتين ﴿فالجواب﴾ أنه لا طريق لنا إلى ذلك بل الله يخص من يشاء بما يشاء من جماد ونبات وحيوان إلى غير ذلك من جميع خلقه فمنها ما يعلم من طريق التجربة مثل صنعة الطب وقد يخيب ويصيب ومنها ما هو من طريق إخبار الرسل صلوات الله عليهم وهذا لا يختلف أصلا لكن الغالب على الناس أنهم قد ركنت أنفسهم إلى قول الأطباء بلا تأويل وقد عاينوا منهم فى الغالب عدم النجح وهذا الذى لا شك فيه لأنه من طريق الرحمة للعباد لقوله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) فقليل منهم من يقبله وذلك علامة للحرمان فنسأل الله العافية وبعضهم يتأول ويقول هو حق لكن لا نعرف التأويل فى كيفية العمل وهذا حيد عن الصواب لأنه لو كان فى أحد الأشياء التى أخبر بها صلى الله عليه وسلم وجه من الوجوه فى الكيفية فى عمله ما نرك عليه السلام بيانه إلا أخبر به (قل أبا الله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون) ﴿وأما قولنا﴾ هل ذلك خاص

بالمؤمنين أو عام في المؤمن والكافر إن صيغة اللفظ تعطى العموم وأما ما قدمناه من قوله عز وجل (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) تعطى الخصوص ((وفيه دليل)) على أن السحر حق يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام «لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر» ((وفيه دليل)) على عظم قدرة الله تعالى وأنها لا تدركها العقول يؤخذ ذلك من كون السحر من فصلا من الشخص لا يراه ثم يصل إليه منه ضرر حتى يجد ذلك الضرر في بدنه محسوسا وبما يزيد ذلك إيضاحا قوله تعالى (وما هم بضارين به من أحد إلا بأذن الله) ((وبقي بحث)) في قوله عليه السلام «لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر» هل يكون معناه العموم أو الخصوص فمعنى العموم أن الذي استصحب بالعجوة لا يضره سم إن شربه في ذلك اليوم ولا سحر إن سحر ولا سم تقدم شربه على ذلك اليوم ولا سحر تقدم على ذلك اليوم عمله فتكون تلك العجوة توقفت عنه ضرر ذلك السم الذي تقدم شربه في ذلك اليوم وكذلك السحر أيضا وتحميه عن ضرر ما يفعل منهما في هذا اليوم ومعنى الخصوص أنه كل سم أو سحر يكون في ذلك اليوم بعدأ كلسه تلك العجوة لا يضره احتمال الوجهين معا لكن الأظهر الخصوص من طريق أنه أقل الاحتمالات فهذا مقطوع به ومن طريق النظر إلى أن هذا ورد من طريق الرحمة من الله تعالى ببركة هذا النبي العظيم صلى الله عليه وسلم فيكون الأظهر العموم لأننا نرى الترياق الكبير الذي هو من تأليف الأطباء الذي طريقه التجربة يدفع من السموم ما قد حصل منها في البدن وما يأتي بعده فكيف بما هو طريقه طريق الرحمة والتفضل إلا أنه لا بد في ذلك من قوة يقين ونية حسنة كما ذكر عن عمرو بن العاص أنه جاءه رسول من العدو ويده قارورة فلما دخل عليه سأله عن تلك القارورة التي هي بيده فقال له سم ساعة فقال وما عسى أن تفعل به فقال له إني رسول لقومي لم يوجهوني قط في أمر إلا جئتهم بما يحبون وهم قد وجهوني إليك فخفت منك أن لا تسعفني فيما طلبوا فجيئت بهذا السم فإن لم تسعفني بما طابوا شربته فأموت ولا أرجع إليهم بما يكرهون فقال له ناولني إياه فأعطاه القارورة وقال رحمه الله بسم الله إن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا وشرب ذلك السم فعرق من جبينه ساعة ثم أفاق وما به بأس فرجع الرسول من حينه إلى قومه وقال لهم اسلموا عن آخركم فإن هذا رجل لا طاعة لكم به شرب سم ساعة فلم يضره فلتسميته بتحقيق النية ظهر ذلك الخير عليه وكذلك كل من قصد الله تعالى صادقا وجده حيث أمسه وزيادة لأنه يقول جل جلاله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ومن يتوكل على الله فهو حسبه ومن أصدق من الله قبلا ومن أصدق من الله حديثا) لكن من عين يقينه خفاشى لا يستطيع أن يبصر شمس الهدى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) من غذى قلبه بالحرام لا يبصر إلا ظلاما في ظلام (ظلمات بعضها فوق بعض) أعاذنا الله من الحرمان ومن كسب الاثم بمنه

(٢١٣)

﴿حديث الأمر بلعق اليد من أثر الطعام قبل غسلها﴾

عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا فَلَا يَمْسَحُ
بِيَدِهِ حَتَّى يَلْعَقَهَا أَوْ يَلْعَقَهَا

ظاهر الحديث النهي عن أن يمسح أحد يده إذا أكل طعاما - حتى يلعقها أو يعطى غيره يلعقها
والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال هل هذا من كل الطعام وهل هذا لعلة مفهومة أو تعبد لا غير وهل ذلك
خاص بالمسح أو عام في المسح والغسل وقوله يلعقها هل يكون ذلك من جنسه لا غير أو من جنسه
وخلاف جنسه إن أمكنه ذلك وفي المسح كيف يكون وفيما يكون ﴿وأما قولنا﴾ هل من كل طعام
فليس على عمومته لأن من الأطعمة ما لا يتعلق بيد الآكل منه شيء وما لا يتعلق منه شيء ولا يحتاج
إلى مسح فلا يحتاج إلى أن يلعق ﴿وأما قولنا﴾ هل هو تعبد أو لعلة مفهومة أو لفظ لا يفهم منه
ذلك لكن قوة الكلام تعطي أنه لعلة مفهومة وهي حرمة الطعام والتعظيم لنعم الله تعالى لأنه
صلى الله عليه وسلم قد شدد في هذا الباب أعنى تعظيم نعم الله تعالى واحترامها كثيرا وقد ورد أن
ترك ذلك سبب إلى زوالها وقل ما أزال الله تعالى نعمته من قوم فردها إليهم وقد كان صلى الله عليه
وسلم إذا أكل في أهله وشبهه تركوا القصعة حتى يأتي من يلعقها ﴿وقد حكى﴾ أبو هريرة أنه كان
يوما به جوع شديد فلقى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له أراك شديد خلوف الهم فقال نعم فأمره
عليه السلام أن يأتي معه إلى منزله فلما دخل أخرج له قصعة ليس فيها إلا لعقها قال فقات في نفسي
وماذا تغني هذه فلعقتها وشبعت أو كما قال ولقي صلى الله عليه وسلم وهو صائم لبابة خبز في قدر
فغسلها وأمر بلالا أن يرفعها له حتى يفطر وقال عليه السلام «إن القصعة تستغفر للأعقاء» أو كما قال
والأحاديث في هذا النوع كثيرة ﴿وفي هذا دليل﴾ لأهل الصوفة الذين يفرغون من الآكل ويغسلون
أيديهم ثم يشرّبونه تعظيما لنعم الله وتبركا بأثار شيء أكل عونا على طاعة الله تعالى ﴿وأما قولنا﴾
هل ذلك خاص بالمسح أو عام فيه وفي الغسل ﴿فالجواب﴾ أنه إذا كان في المسح الذي قد ينتقل الطعام
إلى تراقيب اليد الشيء الممسوح فيه فكيف بالماء الذي يذهب عين الطعام فهو من باب أولى ﴿وفيه دليل﴾
على أن السنة الممسح من الطعام وإنما الغسل من فعل الأعاجم أعنى إذا كانت اليد نظيفة فغسل إذا كان
من فعلهم وإن كان قد جاء أن الوضوء قبل الطعام ينفي الفقر وبعده ينفي اللبس ويصح البصر
فيكون الجمع بين هذين الحديثين بأحد وجهين ﴿أحدهما﴾ أن يكون الغسل لموجب له فقبل الطعام
تكون اليد غير نظيفة والذي بعده يكون الطعام مما يدهم كثيرا لا يزال به المسح أو رائحة يكون فيها

٩٨ حديث كراهية الأكل في أواني الكفار وجواز أكل ما صيد بالكلب المعلم وغيره

تأذ وذلك مكروه أن يصلى به أو يكون فعليه ذلك غبا لا يتخذها دائما فإنه مخالف للسنة أو يكون الغسل لعدم الشيء الذى يسمح فيه والشأن أن يخرج من التشبه بأهل الكتاب الذى قد نبهنا عن التشبه بهم ((وأما قولنا)) هل يلحقها من جنسه أو من خلاف جنسه إذا أمكن ذلك فإذا فهمنا العلة كما قدمنا وهى من أجل حرمة الطعام فكل من يجوز لنا أن نعطيه طعاما يأكله ويأتى منه اللعق على وجهه جاز لنا ذلك ما عدا أهل المال ((وأما قولنا)) فيما إذا يكون المسح وكيف يكون أما فيما إذا ففى كل شيء طاهر لا حرمة له وأعنى بقولى لا حرمة له تحرزا من الخنزير والكتاب وما أشبه ذلك أو مال الغير فإن مسحك فيه ممنوع إلا باذن مالكه وقد جاء أنهم كانوا يمسحون تحت أقدامهم وأما الكيفية فإن يكون الفعل برفق بحسب حالة الشيء الممسوح فيه وإنما ذكرنا الرفق فيه لقوله صلى الله عليه وسلم « ما كان الرفق فى شيء إلا زانه » حتى يكون فى فعلك أثر من السنة لأن الشأن فى هذا جعلنا الله من أهلها بفضله لارب سواه

(٢١٤) ((حديث كراهية الأكل فى أواني الكفار وجواز أكل ما صيد بالكلب المعلم وغيره))
عن أبى ثعلبة الخشنى رضى الله عنه قال قلت يابى الله إنا بأرض قوم أهل كتاب أفأكل فى آيتهم وبأرض صيد أصيد بقوسى وبكلبى المعلم فما يصالح لى قال أما ما ذكرت من آية أهل الكتاب فإن وجدتم غيرها فلا تأكلوا فيها وإن لم تجدوا فاغسلوها واكلوا فيها وما صدت بقوسك فذكرت اسم الله عليه فكل وما صدت بكلبك فذكرت اسم الله عليه فكل وما صدت بكلبك فغير المعلم فادركت ذكاته فكل

ظاهر الحديث يدل على ثلاثة أحكام ((الأول)) جواز الأكل فى آية أهل الكتاب بعد الغسل إذا لم يوجد غيرها ((الثانى)) جواز أكل ما صدته بقوسك أو بكلبك المعلم إذا ذكرت اسم الله تعالى أدركت ذكاته ولم تدركها ((والثالث)) ما صدت بكلبك غير المعلم فلا تأكل منه إلا ما أدركت ذكاته والكلام عليه من وجوه

((منها)) التزهد عن استعمال أواني أهل الكتاب مع وجود غيرها ((الثانى)) أنه إذا لم يجد غيرها جاز استعمالها بعد غسلها بالماء يؤخذ ذلك من أنه صلى الله عليه وسلم لم يبيع له الأكل فى آية أهل الكتاب بعد الغسل إلا عند الضرورة وهو عدم غيرها وأهل الضرورات لهم حكم خاص بهم وقد اختلف العلماء فى الآية المتنجسة ما عدا الزجاج فإنه لا يداخله مما جعل فيه شيء فالغسل يطهره وما عداه من الأواني التى قد يحتاط ما جعل فيها، ص أجزاءها مثل آية الحشب والحشم وما أشبههما على

ثلاثة أقوال قول بأنها لا تطهر وبأنها تطهر وبأنها يطول مكث الاناء في الماء الزمان الطويل فتطهر وإن كان قليلا لا يطهر ((وفيه دليل)) على أن الحكم في الأمور للغالب عليها يؤخذ ذلك من أنه لما كان الغالب من أحوال أهل الكتاب أن النجاسة تحل في أوانيهم أعطوا حكم النجاسة يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ((فإن رجعتهم غير ما فلا تأكلوا فيها)) ويلاحظ هذا في الحكم أهل البطالة وتحمل ثيابهم على النجاسة لأنها الغالبة عليهم في كثرة أحوالهم وقد عد الفقهاء هذه العلة في ثياب شارب الخمر أنه لا يصلح بها حتى تغسل ((ومنها)) وجوب النسيئة على الصيد يؤخذ ذلك من تسكرارها في كل نوع من أنواع الاصطياد وإفصاحه عليه السلام في جميع الأنواع بقوله وذكرت اسم الله ومنها قوله بقوسى وأباح له عليه السلام أكل ما صاده إذا ذكر اسم الله عليه أدرك ذكاته أولم يدرك وهل هذا خاص بالقوس دون غيره من السلاح أو يحمل جميع السلاح عليه فإن قلنا يتعدى الحكم بوجود العلة فجميع السلاح المحددة التي تفرى وتنهر الدم يجوز ذلك بها مثل الرمح والسيف والسكين وما أشبه ذلك وقد نص على جواز ذلك أهل الفقه في كتبهم على ما هو هناك مذكور وكذلك نقول في قوله عليه السلام ((وما صدت بكلك غير المعلم فأدركت ذكاته فكل)) يتعدى الحكم إلى غير الكلب المعلم من جميع الحيوانات التي تنترس أنه إذا كانت غير معلمة وصيد بها الحكم فيها كالحكم في الذي صيد بالكلب غير المعلم وكذلك ما صيد بالآلة التي ليست بمحدودة مثل الحجر والعصى وما أشبه ذلك إذا صيد بها ما يدرك ذكاته من ذلك أكله إلا لم يؤكل منه شيء وفيه دليل : على أن الحكم إذا نيط بعلة فعدمت ارتفع الحكم يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام في الكلب غير المعلم أنه لا يؤكل ما صيده إلا إن أدرك ذكاته فدل على أن التعليم في الجارج يبيح ما صيده وإن لم تدرك ذكاته ((وفيه دليل)) على أن من حسن جوابك للسائل أن تعيد صيغة لفظه فيما سألك عنه وتحاول به على كل نوع على حدة يؤخذ ذلك من تكرار سيدنا عليه السلام باللفظ ما سأله السائل عنه وجاوبه على كل نوع منها على حدة بقوله عليه السلام أماما ذكرت من آية أهل الكتاب إلى آخر الحديث ((وفيه دليل)) على أن ما لم يتحقق نجاسته يكره استعماله من غير ضرورة ويجوز استعماله عند الضرورة بلا كراهية يؤخذ ذلك من كون سيدنا عليه السلام منع الأكل في آية أهل الكتاب مع وجود غير هالان تلك الآية التي أكل فيها ليست النجاسة متحققة فيها بل هي مظنونة فمنع عليه السلام استعماله مع وجود غير هال أو أباحه عند الضرورة وهو عدم غيرها وفي هذا الوجه دليل لأهل الصوفة لأنهم يظنون في أنفسهم كل مكر وخديعة فلا يستعملون ما نشير به عليهم شيئا إلا إن كان موافقا للكتاب والسنة بعد ما يلجئون في ذلك إلى مولا ثم يخشون أن يكون تحت ذلك من وجه ما كما ذكر عن بعضهم أن نفسه رغبت في الجهاد ووكدت ذلك عليه فقال لها هذا عندى محال أن يكون هذا منك علي وجهه لأن الجهاد من أقرب القرب ما أفعل ذلك حتى أسأل الله تعالى في

أمر ك فسأل مولاه سبحانه أنه يطلعه على ما أبطلته ففعل له في النوم أنها قد سئمت من القيام والصيام فأرادت أن تموت في الجهاد لكي تستريح من التعب ويبقى لك حسن الثناء بعد الموت فقال لها مالي جهاد إلا فيك ولا أزال أقتلك بالقيام والصيام حتى تموتى لأنهم سمعوا فيها قول مولاهم حيث قال (إيا النفس لأسارة بالسوء إلا مارحم ربى) فمن رحمته عز وجل بهم أن ألهمهم مخالفتها رتبتهم لها إلا حيث جاء الأمر بالنظر لها في وجه ما فنظرهم لها في ذلك الوجه ليس لها وإنما هو من إجلال الأمر بذلك فمن أنتم الشجاعة والرجولية مقاتلة العدو ومن أدب الجهاد قتال من يليك من الأعداء وأفر بهم إليك نفسك وهو ك ففهمهما فجاهد إن كنت ذا بأس وشطارة وإلا فوصف الخنوية بك أولى

(٢١٥) (حديث جواز أكل لحم الخيل)

عَنْ أَسْمَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ ذَبَحْنَا عَلَى عَمْدٍ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَسًا وَنَحْنُ بِالْمَدِينَةِ فَأَكَلْنَاهُ

ظاهر الحديث يدل على جواز أكل لحم الخيل بغير كراهية والكلام عليه من وجوه

(منها) أن السنة في ذكاة الخيل هو بالذبح لا بالنحر يؤخذ ذلك من قولها ذبحنا وقد جاءت رواية نحرنا فعلى هذا يجوز أكله بالذبح ويجوز بالنحر وقولها ونحن بالمدينة (فيه دليل) على أن ذلك كان لغير ضرورة ويؤخذ ذلك من قولها فأكلناه إن ذكاته ما كانت لعلة بالفرس وإنما كانت بمجرد الأكل لا غير وفي هذا دليل للشافعي رحمه الله في إجازته أكل لحوم الخيل مطلقا والدليل معه في ذلك وأما الإمام مالك رحمه الله فلم يقع منه مخالفة للحديث فإنه لم يحرمه وإنما كرهه وبيان كراهيته أنها ما تستعمل ولا فائدتها غالبا إلا للجهاد فإذا كثر استعماله أكلها كان سببا إلى قتلها وقتلها يؤل إلى نقص من الأرواح للعدو (وفيه وجه آخر) لأكل لحمه على ما قيل يقسى القلب وما يقسى القلب ينافي أوصاف أهل الإيمان فجاءت كراهيته فيه من باب سد الذريعة التي هي أصل مذهبه (ووجه آخر) أن أكله في زمان النبي صلى الله عليه وسلم كان قليلا وإن كان جائزا فدل على قلة استعماله فعمل في ذلك على العمل بأن كرهه حتى يكون استعماله قليلا كما كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فجاء فيه متبعا للسنة بطريقة حسنة وفي قولها ونحن بالمدينة فائدة أخرى وهي أن ذلك كان بعد تمكن الإسلام وظهوره وفرض الفرائض وتحديد حدود الشريعة لأنه ما فرض من الفرائض بمكة إلا الصلاة لا غير وجميع الفروض إنما كانت بالمدينة فيما أعلم

(٢١٦) (حديث النهي عن قتل الحيوان صبرا)

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْهَى أَنْ تُصْبَرَ بَيْمَةٌ أَوْ غَيْرُهَا لِلْقَتْلِ

ظاهر الحديث يدل على منع الحيوان كله عاقلا كان أو غير عاقل من أن يصبر للقتل والكلام

عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن من السنة الرفق بجميع الحيوان عاقلا أو غير عاقل ﴿وفيه دليل﴾ على رحمة الله تعالى بعبده على اختلاف أجناسهم وأنواعهم يؤخذ ذلك من نبيه صلى الله عليه وسلم عن أن يصبر بهمة للأنزال أو غيرها وما يقوى ذلك أنه جاء من قتل عصفورا عبثا جاء يوم القيامة العصفور مستجيرا يقول يا رب سل هذا لم قتلتني عبثا وفي هذين الحديثين دليل على قرر الله سبحانه وتعالى لجميع خلقه يؤخذ ذلك من كونه عز وجل لم يترك لأحد التصرف في شيء من الأشياء دقت أوجات إلا وقد حوله كيفية التصرف فيه وإنه يحاسبه عليه دق أو جل جمادا كان أو غير جماد عاقلا أو غير عاقل ﴿وفيه دليل﴾ على عظيم عدل المولى سبحانه يؤخذ ذلك من اقتصاصه عز وجل للعصفور على دقته من العاقل الكبير إن فزاه لغير منفعة أو صبره للقتل ﴿وفيه دليل﴾ على عظيم إحاطته عز وجل بجميع مخلوقاته يؤخذ ذلك من كونه عز وجل لا يخفى عنه مثل هذه على دقتها وبحصيتها وبمغاباها ولذلك هي الإشارة بقوله عز وجل (وكنى بناها سبين) ﴿وفيه دليل﴾ على أن صفاته عز وجل ليس كمثله شيء يؤخذ ذلك من كون صفة الانتقام مع صفة الرحمة معا وفي فعل واحد لأن القتل دال على صفة الانتقام ثم في نفس فعل القتل الرحمة وهو منعه أن يصبر حيوان عاقلا أو غير عاقل للقتل فرقى به في نفس العذاب والانتقام وقد قال صلى الله عليه وسلم إذا قتلتم فأحسنوا القتلة « وصفة المحدث إذا وقع منه انتقام لا يرحم ولو قدر على أكثر لفعل فبان بمقتضى أحكامه سبحانه وتعالى بوحيه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم لأنه ما يحكم إلا عن الله كان بواسطة المالك بالوحى أو من تلقاء نفسه بما يلهمه الله عز وجل إليه فالكل عن الله وفي هذا دليل على أن صفاته جل جلاله ليس كمثله شيء فانه ليس كمثله شيء (سببرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) فسبحان من تبدى بالدليل لذوى البصائر واحتجب بمظلم قدرته مع إيضاح دلائله عن أهل الجهالة والشقاوة جعلنا الله ممن عرفه به ودله به عليه وتغمده في الدارين برحمته بمنه وكرمه

(٢١٧) ﴿حديث تحريم أكل لحم الحمر الأهلية وجواز أكل لحم الخيل﴾

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ خَيْبَرَ عَنْ لُحُومِ الْحُمْرِ وَرَخَّصَ فِي لُحُومِ الْخَيْلِ

ظاهر الحديث يدل على تحريم لحوم الحمر الأهلية والرخصة في لحوم الخيل والكلام عليه من وجوه ﴿منها﴾ أن ترخيصه عليه السلام في لحوم الخيل يوم خيبر إنما كان من أجل الضرورة لأنه جاء

من طريق آخر في هذا الحديث أنهم رضى الله عنهم لم ينحروا الخيل يوم خيبر إلا من أجل المجاعة التي لحقتهم ﴿ وفيه دليل ﴾ لما لك كما قدمناه في الحديث قبل أنه وافق السنة في كراهية أكل لحوم الخيل لأن المظن خاص عند العذر تقتضى المنع أو الكراهية عند عدم العذر ﴿ وهذا بحث ﴾ وهو أن يقال هل تحريمه صلى الله عليه وسلم لحرم الحمر وترخيصه في لحوم الخيل تعبد لا يعقل له من جهة الحكمة معنى أو تعقل الحكمة في ذلك ﴿ فأما قراننا ﴾ هل تعقل الحكمة في ذلك فقد قال بعض العلماء إن الحكمة في تحريم الحمر الأهلية هو أن الحمر ليس في الحيوانات أبلد منها فأكل لحمايكرب منه ذلك فلا شفاء عليه السلام على أمته منهم من كل ما عليهم فيه ضرر في الدنيا والآخرة كما حرم مولانا سبحانه الميتة وأحياها بعد ثلاث فذكر بعض العلماء من الحكمة في ذلك أن الميتة فيها سمية كثيرة فنعنا من أكلها لأجل الضرر الذي يعود علينا من سمها فإذا بقي المرء ثلاثاً اشتدت سميته في بدنه حتى عادت أشد من سم الميتة فأبيح لنا إذ ذاك أكلها لعدم الضرر لأكلها بل يحصل له بها قوى ومنافع في إبقاء رمقه رحمة من الله تعالى بعبيده ﴿ وفيه دليل ﴾ على أنه إذا اجتمع ضرران أخذ أقلهما يؤخذ ذلك من أنه لما كانت الحمر تكسب البلادة ولحوم الخيل تكسب القساوة كما ذكرنا في الحديث قبل رخص في لحم الخيل التي هي أقل ضرراً في قوله ﴿ يوم خيبر ﴾ وجهان الواحد أنه دال على تشبته في النقل لأن ذكر المواطنين الذين جرت فيها النازلة دال على حقيقة العلم بما أخبر به والوجه الآخر وهو كون القضية في موطن مشهور بجمع كثير قد يرويه غيره فيحصل فيه تصديق له والتواتر في الحديث يزيد قوة لأنه ينقله من كونه خبر أحاد إلى التواتر وهو أعلى درجة وينبغي من جهة الفقه أن يعرف الحكم بحيث ما قدر المرء أن يزيد في إخباره على ما أخبر به قرينه حال تصديق مقالته فعل وفيما ذكرناه دليل على لطف الله تعالى بعبيده فيما أحل لهم وفيما حرم عليهم وفيه دليل : على أنه عز وجل لا يحل ولا يحرم إلا عن حكمة وفائدة لنا عقلاً من عقلاً وجهلاً من جهلاً ﴿ وفيه دليل ﴾ على استغناء عز وجل عن جميع خلقه وعن تعبداتهم إذ كل ذلك عائد بالنفع لهم وهو الغنى المستغنى ولذلك تنعم أهل العقول والمعاملات بكل حكم يصدر عن الله تعالى لعلمهم بأن ذلك رحمة منه عز وجل إليهم لم يشكوا في ذلك فرجع لهم بقوة يقينهم بالتنعم بالنعماء والبلاء على حد سواء وكذلك روى عن بعضهم أنه قال لا أبالي على أى حالة أصبحت وأمسيت إنما هي حالة شكر أو صبر وكلاهما رحمة من الله تعالى هؤلاء فهموا قوله عز وجل (ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون) وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « والله ما يقضى الله لمؤمن قضاء إلا كان خيراً له فمن عرف عفو واستراح ومن جهل تكالب وما نهج ومن طلب العز بالجهل وقع الهوان به وما عز

(٢١٨) (حديث النهي عن أكل لحوم كل ذى ناب من السباع)

عَنْ أَبِي ثَعَالَةَ الْخَثَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَكْلِ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ

ظاهر الحديث النهي عن أكل كل ذى ناب من السباع والكلام عليه من وجوه

(منها) أن يقال هل هذا النهي نهى تحريم أو نهى كراهية اختلف العلماء في ذلك فذهب الشافعي رضي الله عنه ومن تبعه أنه نهى تحريم ومذهب مالك رحمه الله ومن تبعه أنه نهى كراهية وهل نية لعله أو تعبد الظاهر أنه لعله لأنه لو كان تعبد لم يكن العلماء يختلفوا فيه (وبقي البحث) في العلة فنقول والله أعلم لسكونها تأكل الجيف فانها إذا افتست فالذى تفتسه جيفة لأنه غير مذكى فيكون شأنها مثل البقرة والابل الجلالة التي تأكل العذرة وقد اختلف العلماء أيضا في أكل لحماؤها والحالة هذه فذكره مالك ومن تبعه وأما رجميعها فهو نجس على المعروف وكذلك رجميع الطير المفترس نجس بلا خلاف ذكر فيه وهنا (علة صوفية) وهي لعنة نفسه وضرره ذل حتى لم يصلح أن يكون قوتا للمؤمنين (ويترتب عليه) من طريق النظر من أعز نفسه فذلك ذل لها ومن ذلها فقد أعزها وما يقوى هذا البحث ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم ما من أحد من بني آدم إلا برأسه حكمة بيد ملك فان تواضع رفع الملك رأسه بتلك الحكمة وقال له ارتفع رفعك الله وإن ارتفع ضرب الملك رأسه بتلك الحكمة وقال له اتضع وضعك الله أو كما قال عليه السلام فعلى هذا الوجه ظاهر الحكمة في جميع الحيوانات طاب التواضع بينهم وتدم ضرر بعضهم لبعض وهم داخلون تحت عموم قوله تعالى (أمم أمم السكم ما فرطنا في الكتاب من شيء) (وفيه إشارة) لمن فهم لعله يتصف بصفة من صفات أهل الخير لأن يدخل في طريقهم ويكتب معهم يؤخذ ذلك من عموم قوله عليه السلام «كل ذى ناب من السباع» فيدخل تحت ذلك الأسد والهرّة والفأرة وما بينهما ومنهم القوى والضعيف فكذلك أنت اجعل في نفسك شها ما بالموذير لعل تلك البركة تشملك معهم مثل ما إذا نودى باحضار التجار حتى بأصحاب الآلاف وبأصحاب الدينار الواحد فإن لم تكن من أصحاب الآلاف فكن صاحب الدينار الواحد لعل الواحد يفضل إذا خلع عليهم خلع القرب والرضا يخلع عليك معهم واحذر أن تشبه بصفة من صفات أهل الشر فتكتب معهم فيحققك وبالهم وقدجا «من تشبه بقوم فهو منهم» فكيف من عمل ببعض أعمالهم وقد قال تشبه بالقوم فإن تشبه بالكرام فلاح

(٢١٩) (حديث جواز الانتفاع بجلود الميتة)

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِشَاةٍ

مَيْتَةٍ فَقَالَ مَا لَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا قَالُوا إِنَّهَا مَيْتَةٌ فَقَالَ إِنَّمَا حَرَّمَ أَكْلَهَا

ظاهر الحديث يدل على جواز الانتفاع بجلود الميتة والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ في كيفية الانتفاع به هل ذلك عام في جميع وجوه الانتفاع أو انتفاع خاص بالعموم في الانتفاع من كل الوجوه ممنوع لأن من جملة الانتفاع بيعه وأكل ثمنه ولم يجزوه ومنها الصلاة عليه ولم يجزوه ومنها جعل الطعام فيه ولم يجزوه لأنه يعود فعله لأكل الميتة فإن الطعام إذا جعل فيه تنجس به وإنما يكون انتفاعا خاصا من حيث لا يلحق منه نجاسة في شيء من الأشياء ولا مخالطة في طعام بوجه من الوجوه ﴿وفيه دليل﴾ على تحريم أكل الميتة يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام «إنما حرم أكلها» وفيه دليل : على أن ألفاظ العموم إذا ورد الأمر بها يحمل على عمومها ولا تخصص إلا بمخصص من الشارع عليه السلام يؤخذ ذلك من أنه لما أن حرمت علينا الميتة فماتت تلك الشاة التي رآها سيدنا صلى الله عليه وسلم استعمل أصحابها عموم الأمر بالعموم فرموها بأها بها وصوفها وكل اجزائها فخصص صلى الله عليه وسلم عموم الأمر بقوله عليه السلام «إنما حرم أكلها» ﴿وفيه دليل﴾ على أن عموم القرآن يخص بالسنة يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام «إنما حرم أكلها» ﴿وفيه دليل﴾ على جواز مراجعة الأمر إذا أمر ولم يفهم السامع ما قصد بالأمر وبقي عليه في بعضه التباس يؤخذ ذلك من قولهم بعد ما قال لهم صلى الله عليه وسلم «هلا انتفعتم بأها بها» إنها ميتة كأنهم يقولون يا رسول الله تأمرنا بالانتفاع بأها بها وقد حرمتها علينا بأمر الله لك وهذه الشاة ميتة فكيف يكون ذلك وفيما ذكرنا من معنى مراجعتهم دليل على حسن اختصارهم في الخطاب وبلاغتهم في المعنى يؤخذ ذلك من كونهم جمعوا تلك الألفاظ كلها في متضمن قولهم إنها ميتة ﴿وفيه دليل﴾ على أن الصفقة إذا خالطها حلال وحرام فإن كل واحد منهما يعطى حكمه لأن العلماء اختلفوا في صفقة إذا خالط فيها حلال وحرام فمنهم من قال إنها كلها حرام ومنهم من قال إنها كلها حلال ومنهم من قال إن قدر ما فيها من الحرام حرام وقد رما فيها من الحلال حلال لأن الخلطة لا تنقل حكما من الأحكام إلا في الخليطين في الماشية على خلاف أيضا يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام «هلا لا انتفعتم بأها بها» وقوله عليه السلام «إنما حرم أكلها فجعل للحكم حكما وهو التحريم والجلاد حكما وهو التحليل والشاة واحدة

وفيه دليل : على أن الأحكام الشرعية لا يكون تقريرها إلا بعد نفي كل المحتملات يؤخذ ذلك من جوابهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد رؤيته الشاة الميتة ولا يخفى حالها على أحد أنها ميتة فكيف على من كانت تمام عينه ولا ينام قلبه صلوات الله عليه وسلامه لكن من أجل استقرار الحكم وطريق الاحتمال أن يكون قوله عليه السلام «هلا انتفعتم بأها بها» من طريق الاستفهام لهم كيف معرفتهم بحكم الله تعالى في الميتة جاوبوه بقولهم إنها ميتة لينظروا ما قصده صلى الله عليه وسلم بتلك المخاطبة ﴿وفيه دليل﴾ على أن من النبل أن يكون جواب المارة عما سئل عنه على قدر ما يعلم فيه لا يتعانا خلاف ذلك بزيادة ونقص يؤخذ ذلك من جوابهم لسيدنا صلى الله عليه وسلم بما سبق

لهم من العلم في أمر الميتة لا غير (وهنا بحث) وهو أن يقال هل أمره صلى الله عليه وسلم بالانتفاع باهابها يطهره أو هو باق على النجاسة لفظ الحديث لا يفهم منه شيء من هذا لكن من حديث غيره يفهم أنه باق على نجاسته وهو قوله عليه السلام «أيما إهاب دبغ فقد طهر» فإذا لم يدبغ فهو باق على نجاسته (وبحث ثان) وهو أن يقال هل لنا أن نتعدى الحكم بالانتفاع من غير ذلك من أجزائها لقوله عليه السلام «إنما حرم أكلها» فيما عدا الأكل أم لا (وبحث ثالث) وهو كونه صلى الله عليه وسلم أباح لنا الانتفاع باهابها وهي ميتة هل يجوز الانتفاع بغير ذلك من سائر النجاسات انتفاعا خاصا مثل الإهاب أم لا (فالجواب) على البحث هل يجوز لنا الانتفاع بباقي أجزائها مثل الإهاب أم لا فأمره صلى الله عليه وسلم بالانتفاع باهابها لا يتعدى الانتفاع من غير ذلك إلى غيره من أجزائها لأحد وجهين الأول منهما لأن الحظر والاباحة والتحريم والتحليل لا يكون إلا على نحو ما نص عليه صلى الله عليه وسلم لا يتعدى ذلك بالقياس إلا في الموضع الذي عاق صلى الله عليه وسلم بعله كانت العلة أيضا منه عليه السلام أو مشارا إليها على نحو ما تكلم الفقهاء في أنواع العلة الشرعية وتعداد أنواعها على ما هو مذکور في كتبهم وما لا يفهم له علة فينقض الحكم فيه على ما نطق صلى الله عليه وسلم به مثل هذا الموضع وما أشبهه (ولو جره آخر) لأن هذا منه صلى الله عليه وسلم رخصة لأمنه والرخص لا يقاس عليها ولا يتعدى محلها ونص بعض الفقهاء أنه إذا كان للمرء ميتة وله علاج أو كلب لصيد أو ما يجوز اقتناؤه أنه لا يعطيه الميتة ولا يأمر العلاج بأكلها فإن ذلك من جملة أنواع الانتفاع بها وإنما يأمر بالعلاج أو بالكلب على موضع الجيفة فإنهما تصرفا فيها من تلقاء أنفسهما فلا بأس وإلا فلا يرشد هما إلى ذلك ولا يأمرهما به (وأما الجواب) على البحث الذي معناه هل نقيس على الإهاب غيره من أنواع النجاسات أم لا فالجواب عليه كالجواب على البحث قبل

حديث الأمر بطرح الطعام المتنجس

(٢٢٠)

عن ميمونة رضي الله عنها أن فارة وقعت في سمن فماتت فسل النبي صلى الله عليه وسلم عنها فقال القوها وما حوّلها وكأوه

ظاهر الحديث يدل على تنجيس الموضع الذي ماتت فيه الفارة من السمن وطرحه مع ما والكلام عليه من وجوه

(منها) أن يقال هل يتعدى الحكم في كل الأطعمة وفي كل الميتة من جميع الحيوان وكذلك ما عداهم من جميع النجاسات وهل يكون حكم الجامد من الطعام كحكم المائع وهل يكون طول مقام الشيء المتنجس

من جيفة أو غيرها في الطعام الذي وقعت فيه بالسواء من قرب الزمان في ذلك أو بعده وهل يجوز الانتفاع به فيها دون الأكل وهل يمكن تطهير ما وقعت فيه من الطعام أم لا ((وأما قولنا)) هل يتعدى الحكم إلى جميع الطعام ما عدا السم أم لا فقد عدى ذلك الفقهاء لوجود العلة وهي تنجيس موضع حلول الميتة ولا فرق أن يكون سمنا أو غيره إذا كان طعاما جامدا فإن كان مائدا فلا يخلو أن يكون ماء أو غيره فلا يخلو أن يكون جاريا أو راكدا وتفصيل هذا في كل الفروع وأما إن كان طعاما مائعا فهو نجس ((وأما قولنا)) هل ذلك في كتب الميتات في أي نوع كانت من الحيوانات ((فالجواب)) أنه لا فرق بين موت الفأرة في ذلك أو غيرها من جميع الحيوان الذي له نفس سائلة ولا يؤكل إلا بذكاة لوجود العلة فيه وهي كونه جيفة وأما ما عدا الميتة من أي نوع كانت كما ذكرنا قبل من أنواع النجاسات فلا فرق بينهما وبين الميتة إذا كانت جامدة باردة في جميع أحكامها ، إن كانت سائلة باردة أو حارة فتتبع الحكم فيها في كتب الفروع أيضا ((وأما قولنا)) هل حكم الجامد من الطعام الذي وقعت فيه الميتة كحكم المائع ((فالجواب)) أنه ليس حكم الجامد كالمائع فإن المائع من حين وقوع الميتة فيه أو الشيء النجس يتنجس جميعه فيطرح جميعه ما عدا الماء فيه تقسيم كما هو في كتب الفروع أيضا ((وأما قولنا)) هل طول مكث الميتة سواء مع قرب أو بعده فقد اختلف العلماء في ذلك وإيس في الحديث من أن يستدل عليه بل هي مسألة نظرية فمن العلماء من جعل الحكم واحدا ومنهم من قال إذا طال مكثها في الطعام طرح جميعه ومنهم من فرق في ذلك بحسب الأزمنة فإن كان زمان الحر طرحت وجميع الطعام وإن كان زمان البرد طرحها وما حوطا ومنهم من فرق بين كبر الاناء الذي وقعت فيه من صغره وفي طول الزمان الذي يطلق عليه هذا الحكم مع صغر الدابة وكبرها وذلك كله مستوعب في كتب الفقه وهذا البحث في الطعام الجامد وأما المائع فكما تقدم الكلام فيه وحكم النجاسة كما ذكرنا في الميتة سواء ((وأما قولنا)) هل يجوز الانتفاع بالشيء الذي وقعت فيه الميتة أو الشيء النجس من الطعام فظاهر الحديث محتمل لكن الأظهر عدم الانتفاع والله أعلم وفي ذلك بين العلماء خلاف وهذه أيضا نظرية ((وأما قولنا)) هل يصح تطهير ما وقعت فيه الميتة من الطعام ((فالجواب)) أنه لا يخلو أن يكون دهنا أو غيره فإن كان دهنا ففي تطهيره بين العلماء خلاف وهي مسألة نظرية أيضا وما عدا الدهن من الطعام الجامد فلا يخلو أن يكون مطبوخا أو مملحا أو على غير هذين النوعين فلهذا في ثلاثه أقوال بتطهيره وعدمه ((والثالث)) هو أن يكون قد استوى في توفية طبخه ونضجه في المالح ولم يقبل زيادة في ذلك فإن كان استوى فإنه يغسل ويؤكل فانما تنجس ظاهره ولم تدخل النجاسة باطنه وإن كان لم يستو نضجه فلا يتطهر ويطرح فإن النجاسة دخلت باطنه لأنه يجذب من الخارج إلى الباطن والذي قالوا بغسله وتطهيره يقولون أنه يغسل أولا

بماء حار ثم ثانية ببارد ثم ثالثة بحار ثم ببارد فان كان على غير هذه الصفة فلا يطهر وأما ما عدا هذين النوعين فكما هو مذكور في كتب الفقه (وفيه دليل) على أن لا يتصرف إلا بعلم يؤخذ ذلك من كونهم لم يتصرفوا في السمن ولا في نزع الفأرة منه إلا بعد ما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عليه السلام الأصل وقد اختلف العلماء فيمن عمل عملاً بغير علم ووافق عمله لسان العلم هل يكون مأجوراً أو مأثوراً على ثلاثة أقوال وقد ذكرناها في أول السكتاب وقد قال بالعلم تزين إذا أردت جمالا به إن عملت زدت كمالا

(٢٢٩) (حديث بيان وقت ذبح الأضحية)

عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ بِهِ فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نَصَلِّيَ ثُمَّ نَرْجِعَ فَنَنْحِرَ مَنْ فَعَلَهُ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلَ فَاثِمًا هُوَ لَحْمٌ قَدِمَهُ لِأَهْلِهِ لَيْسَ مِنَ الذُّبْحِ فِي شَيْءٍ

ظاهر الحديث يدل على أن السنة في يوم الأضحية تقديم الصلاة قبل الذبح ومن ذبح قبل الصلاة فانه لحم ليس بذبح والكلام عليه من وجوه (منها) التأكيد في صلاة العيد يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي) فجعلها عليه السلام مفتاح الأعمال في ذلك اليوم وهل هي فرض أو سنة قولان للعلماء في ذلك (ومنها) التأكيد في شأن الأضحية يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام بعد ما قال نصلي ثم نرجع فتنحرج ثم زادها عليه السلام تأكيداً بقوله (من فعله فقد أصاب سنتنا) وقد اختلف العلماء هل هي فرض أو سنة على قولين والذي قال منهم بأنها سنة هي عنده من أكد السنن ويزيد ذلك تأكيداً بقوله عليه السلام في حديث غيره « ما عمل آدمي عملاً يوم النحر أعظم من إراقة دم » (وفيه دليل) على أن النية وإن كانت حسنة والعمل الذي يعمل بها لا يصححان إلا إذا كانا موافقين للسان العلم يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (ومن ذبح قبل فاثمًا هو لحم قدمه لأهله) ويزيد ذلك بياناً بقوله عليه السلام « من أحدث في أمرنا ما ليس فيه فهو رد » وقوله عليه السلام « إن الله لا يقبل عمل امرئ حتى يتقنه » قيل يا رسول الله وما إنقائه قال - يخلصه من الرياء والبدعة - فتخلصه من الرياء أن يكون لله خالصاً لقوله تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) وتخلصه من البدعة أن يكون على نحو ما أمر صلى الله عليه وسلم به لقوله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وفيه دليل : على أن اتباع الصحابة رضي الله عنهم هو الحق الذي لا ينبغي العدول عنه يؤخذ ذلك

من كونه عليه السلام لم يترك لهم شيئاً من الأعمال إلا بينه لهم وحملهم فيه على سنته الواضحة مثل هذا الحديث وما يشبهه (وما) يؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم «أصحابي مثل النجوم بأيهم اقتديتم اهديتم» وقد قال العلماء رضى الله عنهم مثل يمين بن رزق وغيره وأنا أوصيك باتباع السنة في عملك وآكد من ذلك اتباع السلف فانهم أعرف بالسنة منا وقد قال مالك رضى الله عنه إذا كان حديثان ووجدنا الخلفاء أو الصحابة عملوا بأحدهما دل على أن الآخر منسوخ وإن لم يعرف النسخ وإذا كان الحديث معنيان وعملوا بأحدهما دل على ذلك هو الحكم في ذلك الحديث وأنه الظاهر من ذنبك الوجهين ((وفيه دليل)) على جواز أكل اللحم في يوم العيد ما عمدا لحم الأضحية يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ((فانما هو لحم قدمه لأهله)) فأجازه عليه السلام ولم يمنعه وفيه دليل: على أن نفس الأضحية عبادة يؤخذ ذلك من تسميتها نسكاً بقوله عليه السلام ((ليس من النسك في شيء)) في الذي ذبح قبل الصلاة فدل على أن الذي ذبح بعد الصلاة هو نسك والنسك هو ما يتعبد به ((وفيه دليل)) على تأخير الذبح في يوم النحر عن وقت الصلاة يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم ((ثم نرجع)) لأنه عليه السلام أتى بهم التي تقتضى المهمة .

وفيه دليل: على استغناء المولى سبحانه عن عبادة العابدين يؤخذ ذلك من كونه عز وجل قد شرع بمقتضى هذا الحديث ذبح الأضحية وهى مما للنفس فيها شهوة وراحة لأنك تأكل وتدخر وأنت في الصدقة منها بالخيار إن تصدقت أجرت أجراً آخر وإن لم تصدق لم تأثم وثبت لك أجر الأضحية بنفس الذبح والأكل زيادة راحة لك ((وفيه دليل)) على عظيم لطفه عز وجل بعبيده ورحمته لهم يؤخذ ذلك من كونه عز وجل أمرهم بذبح الأضحية كما تقدم الكلام فيه وجعلها في هذا اليوم من أعظم القرب إليه ويزيد ذلك بياناً قوله عليه السلام ((تنافسوا في أثمانها فانها مطاياكم إلى الجنة)) . ((وفيه دليل)) عظيم على ما أعطى صلى الله عليه وسلم من أحسن البلاغة يؤخذ ذلك من جمعه عليه السلام في الحديث الواحد والحكم الواحد بين النحر والذبح لأنه لو ذكر صلى الله عليه وسلم أحد الوجهين إما النحر وإما الذبح لكان دليلاً على ترجيحه على الآخر فلما ذكرهما معاً دل على جوازهما بحسن عبارة واختصار صلى الله عليه وسلم وحشرنا في زمرة غير خزايا ولا نداما بفضلته

(٢٢٢) (حديث جواز تأخير الطواف في الحج لعذر)

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا وَحَاضَتْ بِسَرَفٍ قَبْلَ أَنْ تَدْخُلَ مَكَّةَ وَهِيَ تَبْكِي فَقَالَ مَالِكُ أَنْفَسْتَ قَالَتْ نَعَمْ قَالَ إِنَّ هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ فَاقْضِي

مَا يَقْضَى الْحَاجُّ غَيْرَ أَنْ لَا تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فَلَمَّا كُنَّا بِمِنَى آتَيْتُ بِلَحْمٍ بَقَرَفَاتٍ مَا هَذَا قَالُوا ضَحَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَزْوَاجِهِ بِالْبَقَرِ

ظاهر الحديث يدل على أن الحائض تفعل جميع أفعال الحج كلها إلا الطواف بالبيت فانها لا تفعله إلا بعد أن تطهر والكلام عليه من وجوه

﴿ منها ﴾ أن فيه دليلا على أن الطهارة في أركان الحج كلها كبرى كانت أو صغرى ليست بفرض إلا الطواف بالبيت فلا يجوز إلا بطهارة وهي واجبة يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿ فاقضى ما يقضى الحاج غير أن لا تطوف بالبيت ﴾ فإذا كانت بالحديث الأكبر تفعله فمن باب أخرى لغيره ﴿ وفيه دليل ﴾ على فضل هذه السيدة يؤخذ ذلك من بكائها خيفة أن يفوتها الحج وذلك بعذر رباني لا كسب لها فيه فلولا ما كان همها كله في الدين ما كانت تبكي على هذا وهي فيه عند الله معذورة وكذلك كان شأن الصحابة رضي الله عنهم أجمعين ما كانت همتهم إلا في حسن دينهم وكذلك شأن التابعين لهم بأحسان إلى يوم الدين ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن جعل همه ما واحدا » أو كما قال عليه السلام وهو هم الدين

وفيه دليل : على أن يحكم على الشخص بما يعلم من حاله يؤخذ ذلك من كرون سيدنا صلى الله عليه وسلم لما علم من دين هذه السيدة لما رآها تبكي علم أنه من أجل الدين ولا شيء في الوقت يمكن أن يسكنها إلا النفاس فاستفسرها على ما ظننه منها بقوله عليه السلام ﴿ لعلك نفست ﴾ وفيه دليل على أن حال الشخص وإن علم ما هو فلا يحكم عليه بالقطع وفيما يظن به حتى يستفسر

عن ذلك يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ﴿ لعلك نفست ﴾ بعد ما ظن ذلك لما يعلم منها وفيه دليل : لأهل الصوفة الذين يقولون إن المنتهى في السلوك يكون حاله مع مولاد مثل الصبي مع أمه كل شيء رآه بكى عليها لا يعرف غيرها وذلك دأبه معها يؤخذ ذلك من أنها لما جاءها ما أهمها من أمرها بكت على مولاه ولم تذكر من ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم شيئا حتى سألها وفيه دليل : على بركتها وبركة بيتها كما قال أسيد بن الحضير عند نزول آية التيمم ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر ما نزل بكم شيء إلا جعل الله فيه للمسلمين فرجا ومخرجا أو كما قال فلما أهمها ما جاءها جعل الله فيه للمسلمين فرجا بأن سن صلى الله عليه وسلم للمسلمين أن المرأة إذا حاضت لا يتعذر عليها من أفعال حجها شيء إلا الطواف بالبيت ثم لا يفوتها لأنها إذا طهرت فعاته بعد

وفيه دليل : لأهل الصوفة لأنهم يقولون من بكى صادقا شفعت فيه دعوته يؤخذ ذلك مما جاءها أثر بكائها من الفرج لها وللمؤمنين مما تقرر في حكم الحائض في هذا الحديث وقد قال

بعض أهل الطريق في هذا المعنى

بالباب يكون والبكاء إذا كان خلياً من النفاق نفع

تشفع فيهم دموعهم وإذا شفع دمع المتيمين شفع

فبينما هم حيارى من اليأس والطمع همكارى من شراب الخوف والجزع إذ بزغ لهم قمر السعادة من فلك الارادة في جوانب قلوبهم ولمع هو البسموان ملابس الأنس والبسط خلع ورقم العلم الأيمن سبقت لهم منا الحسنى ورقم العلم الأيسر لا يمتحنهم الفرع

وفيه دليل على تصبر المصاب بحرمان القدر يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم لها ﴿ هذا أمر كتبته الله على بنات آدم ﴾ تعزية لها لما أصابها من الحزن على ما توقعت فواته من أمر حجها ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز الأضحية عن أهل الرجل يؤخذ ذلك من قولهم ﴿ ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أزواجه بالبقر ﴾ ﴿ وفيه دليل ﴾ على جواز الأضحية بالبقر وإن كان غيرها أفضل منها في الأضحية يؤخذ ذلك من كون النبي صلى الله عليه وسلم ضحى بها عن أزواجه صلوات الله عليه ورضى عنهن وفي قولها حين أتى لها باللحم ﴿ ما هذا ﴾ أن السنة أن لا يأخذ أحد شيئاً ولا يأكله حتى يسأل عنه فظاهر هذا الحديث يدل على جواز الأضحية بمنى وليس الأمر على ظاهره بل هو محمول عند العلماء على الهدى وإنما ذكر الراوى الأضحية لكونها نسكا لأنه ليس بمنى أضحية وإنما سننهم الهدى وسنة غيرهم الأضحية والله أعلم

(٢٢٣) (حديث وصيته صلى الله عليه وسلم لأمته)

عن أبي بكرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض السنة اثنا عشر شهرا منها اربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان أى شهر هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال أليس ذا الحجة قلنا بلى قال أى بلد هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال أليس البلدة قلنا بلى قال فإى يوم هذا قلنا الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال أليس يوم النحر قلنا بلى قال فإن دماءكم وأموالكم قال واعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا

وَسَلَّمُونَا بِكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ أَلَا فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضَالًّا لَا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ أَلَا لِيَبْلُغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فَعَلَّ بَعْضُ مَنْ يَبْلُغُهُ أَنْ يَكُونَ أَوْ عَى لِمَنْ بَعْضُ مَنْ سَمِعَهُ ثُمَّ قَالَ الْإِهْلُ بَلَّغَتْ مَرَّتَيْنِ ظَاهِرُ الْحَدِيثِ يَدُلُّ عَلَى تَحْرِيمِ دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَالْكَلَامُ عَلَيْهِ مِنْ وَجْهِهِ

(منها) أن يقال هل هذا على عمومه أعني التحريم أم لا فاما أن يكون على العموم من كل الجماعات فلا بدليل الكتاب والسنة أما الكتاب فقوله تعالى (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم) فلا يذكر أحد من المسلمين أخاه المسلم بسوء إلا من ظلم ظلمة فله أن يذكر السوء الذي فعل معه لكن بقدر ما عدا عليه فانه إن زاد على ذلك عاد ظالمًا ثانيًا والله عز وجل يقول (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) وأما السنة فقد قال صلى الله عليه وسلم « لا غيبة في فاسق » ولها شروط (منها) أن يكون متظاهراً بنفسه يحب أن يشهر عنه فلا غيبة فيه إذ ذاك ومن العلماء من قال إنما يكون ذلك إن تذكر حال فسقه عند من يقدر أن يغير عليه أو يستعين به في ذلك أو يحزره عنه فاما إن كان لغير هذه الوجوه فمتنوع وتأولوا الحديث بأرقاؤه معناه ولا تغتب فاسقا وقد قال صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها » فإذا أخذ واحد منها بحقه فلا يتناول التحريم وقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يملك مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس منه » فان كان عن طيب نفس منه فلا يتناوله التحريم والآي والأحاديث في هذا كثيرة فما بقي أن يكون التحريم إلا خاصا فهو إذا لم يكن عليها حق من وجه من الوجود يا هذا قد ثبت لك حرمة فأن وافقت زادت الحرمة حرمة أخرى وهي قوله عز وجل « من أهان لي وليا فقد آذنتي بالحاربة وأنا أسرع إلى نصر عبدي المؤمن » وزادها تأكيد بقوله تعالى (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) فان أثبت النفس هوأما أذهبت مالك من الحرمة وعاد مكانها محنة أعاذنا الله من ذلك بمنه وقد ورد رب مكرم لنفسه وهو لها مهيمن (وفيه دليل) على أن تسمية المشهور وعددها بمقتضى الحكم الرباني لا عرفي ولا لغوي يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض إلى قوله وشعبان) قوله صلى الله عليه وسلم قد استدار أي استقر الأمر فيه ورجع مثل ما كان يوم خلق السموات والأرض لأن العرب كانوا يحجون في كل عام شهرا ثم ينقلونه إلى شهر ثان ففرض الحج وكان الحج في تلك السنة على ما ذكرنا من عادتهم في ذي القعدة فاقام الحج بالناس في تلك السنة أبو بكر رضى الله عنه بأمر النبي صلى الله عليه وسلم

فلما كان في سنة عشرة من الهجرة وهي التي حج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الحج على عادتهم إلى ذي الحجة وهو الشهر الذي جعل الله فيه الحج يوم خلق السموات والأرض وفيه حج إبراهيم وجميع الأنبياء عليهم السلام فلذلك قال عليه السلام قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض أى على وضعه الذي اقتضته الحكمة الربانية عند خلق السموات والأرض وفيه دليل : على أن دوران الأشهر تسمى زمانا يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام الزمان قد استدار وهي الأشهر كما ذكرنا وقوله عليه السلام (حرم) أى جعل لها حرمة ليست لغيرها وفائدة الاخبار لنا بذلك الحرمة أن نحترمها بتعميرها بالطاعات وترك المخالفات يشهد لذلك قوله عز وجل في كتابه (فلا تظلموا فيهن أنفسكم) (وهنا بحث) وهو أن يقال ما الحكمة في أن جعلت على هذا الموضع مفرقة تفريقا مختلفا الوضع وجعلت في آخر السنة أكثر من أول السنة هل هذان البحثان تعبد لا يعقل لهما معنى أو لهما معنى معقول من جهة الحكمة فان قلنا تعبد فلا بحث ولا ندبنا إلا لبحث الاعتبار وإن قلنا لحكمة فما هي فنقول والله أعلم في البحث الأول وهو كون رمضان لم يسم هذه التسمية وفيه من الخير العظيم ما هو فيه بحيث لا يخفى وأما من الأجر قد عرف ولولم يكن فيه إلا قوله صلى الله عليه وسلم «من قامه إيمانا غفر له ما بينه وما بين رمضان» وكون أول ليلة منه تفتح أبواب الجنان وتغلق أبواب النيران وتصفد الشياطين وذلك أن الفرق بينهم حرمة رمضان من أجل العمل الخاص به وهو الصوم وحرمة هؤلاء من الله تعالى وتفضل بغير شيء يوجب ذلك والله عز وجل يتفضل على من يشاء من عباده حيوانا كان أو جمادا بسبب أو بغير سبب الحكمة أو غيرها لا يعلمها إلا هو عز وجل لكن إن اتبعناها بمقتضى أدلة الشرع تجدها رحمة لنا وتفضلا علينا لأنك تجد كل شيء فضله المولى سبحانه من الزمان والمكان والقول والجماد أو أى شيء كان من جميع المخلوقات تجد الفائدة في ذلك تعود علينا وهو الغنى المستغنى ومما يؤكد هذا قوله تعالى (وسنخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (ومنها) ما جاء بتخصيص الأجر بنهص الشارع عليه السلام في الأعمال التي للآزمة المعظمة والأمكنة المحترمة والجمادات المباركة فالنصر في كل واحد منها مثل قوله صلى الله عليه وسلم في الحجر الأسود «أنه يمين الله في الأرض يشهد يوم القيامة لمن يستلمه» ومثل صوم يوم عاشوراء يكفر السنة إلى غير ذلك إذا تتبعته تجد الخير كله في ذلك بفضل الله علينا جعلنا الله من سعد بذلك في الدارين ﴿وأما الجواب﴾ عن البحث الثاني فهو كونه عز وجل وصفها في هذا الموضع فاما من طريق حكمة النظام فإن الأفخر من الأشياء يزين به أول النظام ووسطه وآخره فلما نظمت القدرة درر الأشهر في سلك الاجتماع جعلت لاستفتاح النظام بشهر حرام ووسطه شهر حرام وهو رجب ثم ثالثها في مناظرة الحسن شهر رمضان وفصل بينهما بدرة

شهر شعبان الذي فهم سيدنا صلى الله عليه وسلم حسن نظم القدرة في الأشهر فزاد وسطها حسنا بترفع شعبان بكثرة الصوم فيه لقول عائشة رضي الله عنها ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استكمل صيام شهر قط إلا رمضان ولا رأيت أكثر صوما منه في شعبان حتى أضيف الشهر إليه عليه السلام فقبل شهر نبيكم شعبان فجاءت حرمة محمدية وسط حرمين ربانيتين شعبان شهر محمد عليه السلام ورجب ورمضان شهران ربانيان لحسن النظام واستتار وكذلك كانت سابقة الإرادة فيه ولم يظهر لنا إلا عند بروزها في الوجود وفي ذلك دلالة على علو قدره صلى الله عليه وسلم لأنه ما تجد شيئا رفعته القدرة إلا ومن جنسه ما رفعته السنة المحمدية حتى يكون له عليه السلام خصوص في كل نوع وحال من جميع الترفيعات وختم آخر نظام السنة بشهرين حرامين وفي تفضيل آخر السنة بأن كان فيه شهران حرامان وجود من الحكمة (منها) أن الختام له أبدا علم زائد بمقتضى الحكمة الربانية قال تعالى (ختامه مسك) وقال عليه السلام «الاعمال بخواتمها» فإذا حسنت الخاتمة حسن الكل وزاد حسنا على حسن وان كان الكل حسنا فزيادة حسن الآخر ابلاغ في الحسن وإشارة بترفعه صلى الله عليه وسلم لما أن كان عليه السلام خاتم الأنبياء وهو سيدهم جعلت نظام الأشياء على شبه نظام أشخاص الأنبياء عليهم السلام ترتيبا متناسبا وحكمة عظيمة أبدع فيها أحكم وأحكم فيما أبدع ﴿ وفيه إشارة ﴾ إلى اللطف منه جل جلاله له بعبادته لأنه من غفل أو كان له عذر في السنة كلها جعل له في آخرها تكثير في عدد ذوى الحرمة لعله يحصل له حرمة فيا لله ما أحسن نظمه سبحانه وأكثر فضله وأتم على من عقل عنه نعمته وفي قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ أى شهر وأى بلد وأى يوم ﴾ وجوه من الفقه والأدب والحكمة ﴿ فمنها ﴾ أن اجتماع من له حرمة تأكيد في الحرمة وأنه لا تسقط حرمة أحد حرمة غيره يؤخذ ذلك من كونه عليه السلام بعد ما بين تأكيد حرمة الدماء وما ذكر معنا فدل على تأكيد حرمة اجتماع حرمة الشهر والبلد واليوم فابقى لكل ذى حرمة حرمة في الزمن الفرد ﴿ وفيه دليل ﴾ من الأدب أن السيد إذا سأل أو العالم إذا سأل عما قد علم يرد الأمر في ذلك إليه لأنه لا يسأل عن ذلك عبثا وإنما يسأل الحكمة لا يعلمها المسئول يؤخذ ذلك من قول الصحابة رضي الله عنهم ﴿ الله ورسوله أعلم ﴾ وهم عالمون بما سألهم عنه فظهرت بعد الحكمة التي من أجلها سألهم عن ذلك وهي تأكيد الحرمة بخلاف ما إذا سأل عن شيء يحمله كثير من الناس فمن اللبيل إصابة المقصود والافصاح به مثل قوله صلى الله عليه وسلم « أى شيء من الشجر يشبه المؤمن » فوقع الناس في شجر البادية قال عبد الله بن عمر فوقع في قلبى أنها النخلة فاستحييت أن أتكلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هى النخلة » فقلت بعد ذلك لأبى وقع في نفسى أنها النخلة فقال عمر وددت أن قلنها لأن المقصود من هذا الاختبار جودة الخواطر وحدة القرائح

فاذا جابوب بما يصلح في ذلك سر به السائل ومن أجل ذلك قال عمر لابنه تلك المقالة لانه اذا قال ما يعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي النعمة الكبرى وقد يحصل له منه دعوة حسنة فيزداد الخير خيرا (وفيه من الحكمة) ان مثل ما لا يعرف قدره بما يعرف قدره حتى يحصل للسامع معرفة الفائدة التي قصد ان يفهمها يؤخذ ذلك من أنه لما أراد سيدنا صلى الله عليه وسلم أن يخبره عن عظيم حرمة الدماء والأموال والأعراض مثل ذلك لهم بجمع حرمة هذه الثلاثة أشياء التي كانوا يعرفون حرمتها (وفيه من الفقه) ان الأشياء اذا كان الحكم فيها واحدا وان كثرت إن من الفصاحة جمعها بتعدادها واسماؤها ويندكر الحكم مفردا لانها وان كثرت كالشيء الواحد يؤخذ من جمعه عليه السلام تلك المحترمات الثلاثة وفي سكوته عليه السلام بعد قوله الله ورسوله اعلم استدعاء لجلب القلوب لما يلقي اليها بعد ودلالة على الوقار وهو من الشيم المحمودة وفي ذكره عليه السلام هذه المواطن وهو عليه السلام قد بينها في غير ما حديث دلالة على عظيم الأجر فيها لمن احترامها وعظم الوزر على فاعل شيء من المحظور فيها (وفيه دليل) على وجوب تبليغ العلم ونشره يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم (ألا ليبلغ الشاهد الغائب) ومما يقوى ذلك قوله عليه السلام «طلب العلم فرض على كل مسلم» وقوله عليه السلام «ان الله لما أخذ العهد على الجاهل أن يتعلم وأخذ العهد على العلماء أن يعلموا» أو كما قال عليه السلام وقد قال صلى الله عليه وسلم «اذا ظهرت الفتن وشتم اصحابي فمن كان عنده علم فليكتبه فهو كجراح ما أنزل الله على محمد» وقال الله تعالى (لتبينه للناس ولا تكتمونه) وهذا العلم هو الذي واجب نقله وتعليمه هو علم الكتاب والسنة اللذين هما الثقلان الذي أخبر الصادق صلى الله عليه وسلم بقوله «لن تضلوا ما تمسكتم بهما» والآي والأحاديث في هذا كثيرة لمن تتبعها وفهمها (وفيه دليل) على ان الخير في السلف الاول كثير وانه في الآخر قليل وقد عاد أقل من القليل فان الله وانا اليه راجعون يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام (لعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه) فجعل الرجاء في البعض من يبلغه في الواعى له وذلك هو الخير كما جعل عدم الخير الذي هو ترك الوعى في الأقل ممن سمعه وجعل عليه السلام تفضيل من يوعاه في الاخذ وإن بعد على بعض من سمعه ولم يرعه هم الأقل (وفيه دليل) على أنه ليس الفائدة في العلم نفسه وانما الفائدة في العلم به الذي كفى عنه بالوعى لأن العلماء قالوا معنى أوعى له أى اعمل به ومما يقوى ذلك قوله عليه السلام «اتقوا العالم الفاسق والعابد الجاهل فانهما مضلة للمضلين» أو كما قال عليه السلام وفي قوله صلى الله عليه وسلم (اللهم اشهد مرتين) هنا بحث لم جعلها مرتين ولم يجعلها ثلاثا على عادته صلى الله عليه وسلم في الأمور التي لها بال وما الحكمة في قوله اشهد فانما جعلها اثنتين ولم يجعلها أكثر فانه صلى الله عليه وسلم نحى بها فنهى الشهادة بأن قطع بحقوق قد تكون بشاهدين فهذه

شهادتان (وأما الحكمة) في قوله ذلك هو يعلم أنه شاهد ويعلم بذلك لوجوه (منها) الفائدة في الانذار والانهاد (ومنها) موافقة حكمة الكتاب العزيز فان الله عز وجل يقول فيه (والله يعلم أنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) لأن إعلامه عز وجل بأنه يعلم أنه لرسوله شهادة له برسالته أو تحقيقاً لها فاراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشهد له بالتلبية كما يشهد له بالرسالة وفيه دليل : على أن من رفع له قدراً فهو في امتثال الأوامر أشد من غيره رداعلى بعض الذين يدعون الأحوال ويقولون قد سقطت عنهم الأعمال لأنهم في الحضرة وهذا هذيان وخبال عارض في الدماغ يؤخذ ذلك من توصيته عليه السلام في الابلاغ والانهاد وهنا إشارة وهي إذا كان هذا السيد ﷺ الذي قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وطبع على الرحمة والشفقة حتى أنه عليه السلام في المواضع الموهولة يقدم حق أمته على نفسه المكرومة لعظم ما طبع صلى الله عليه وسلم عليه من الرحمة وجاء عليه السلام في هذا الموطن الذي هو موطن الوداع أجمل لهم في الانذار والتبيين ما قد صرح لهم في جميع مدة صحبتهم ثم بعد ذلك رجع إلى النظر في ما به يخلص نفسه المكرومة مما كلفه الله تعالى به بقوله عليه السلام ((ألا هل بلغت)) لأن معناه أنى لم أترك شيئاً مما أمرتني به إلا بلغته مفسراً ومجملأ فبالك بالكثير الاتقال منا كيف يشتغل بغيره عن خلاص نفسه لاسيما مع كبر السن وقرب الحمام ((وفي هذا دليل)) على فضل أهل الطريق الذين عملوا في أمر الدنيا على الاغضاء والتجاوز عن الاخوان وفي الدين على الشح عليه والاهتمام حتى أنه ذكر عن بعضهم أنه شكى له أهله الجوع فقال لهم لأن أموت وأدخل الجنة وأتم جيعاً خير عندي من أن أترككم شباعاً وأدخل النار وقال بعضهم على دينك فشح كما يشح صاحب الدرهم على درهمه وفي قوله صلى الله عليه وسلم ((وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم)) إرشاد إلى تحقيق الايمان والتخصيض على توفية جميع الاحكام من تحليل وتحريم وغير ذلك فجمع عليه السلام في إجماله في هذا اللفظ اليسير كل ما جاء به وشرحه في الزمان الطويل فسبحان من أيده بالفصاحة وحسن اختصار الكلام والابلاغ في توفية بديع المعاني مع بديع الاختصار وقد قال أهل البلاغة في الكلام إن البليغ يطول ليعين ويختصر ليحفظ وقد أنى صلى الله عليه وسلم في هذين الوجهين أتم مراد وأحسن مساق ولا يعرف ذلك إلا من عرف سنته وتبعها ((وفيه إشارة)) إلى التخويف والترهيب يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام ((فيسألكم عن أعمالكم)) فإذا كان الحاكم العدل يسأل المقصر المسكين فأى تهديد أكبر منه لمن عقل وهو عز وجل يقول في محكم التنزيل (وكفى بنا حاسبين) وقال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ومن أكبر الدلالة على أن كلامه عليه السلام بتأييد من الله تعالى وإلهام منه وقد قال ذلك جماعة من العلماء في معنى قوله تعالى (لتحكم بين الناس بما أراك الله)

فقالوا معنى أراه أى أطمه فهو وحى إلهام فالجميع من عند الله تعالى إما وحى بواسطة الملك وأما وحى إلهام يشهد لذلك أنك إذا تأملت كلامه صلى الله عليه وسلم تجده يحذو حذو الكتاب العزيز (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) مثل كلامه عليه السلام الذى نبهنا عليه آنفا كيف هو صيغته صيغة الاخبار وضمنه أكبر التهديد كقول الله جل جلاله (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) ظاهره الاباحة وفى ضمنه عظيم التخويف والتهديد يؤخذ ذلك من أنه عز وجل قد قال فى كتابه العزيز (ولا تمش فى الأرض مراحا) وقال عز وجل (إن الله لا يحب كل مختال فخور) إلى غير ذلك من الأحكام التى بينها عز وجل لنا كيف تتصرف بها فى المشى وغيره بمضمن قوله تعالى (ما فرطنا فى الكتاب من شئ) ثم أباح عز وجل لنا المشى فى مناكبها بعد التبين والتعليم حتى لا يبقى لأحد حجة ثم ختم الآية بقوله تعالى (وإليه النشور) فيعرفكم كيف كان مشيكم من حسن أو قبيح فانه أخبرك بقوله تعالى (ولا تعملون من عمل إلا كننا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه) بقوله تعالى (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) وقوله عز وجل (وقال قرينه هذا ما لدى عتيد) كما كذبتة عليك حاضر فانظر لم يغادر منه شيئا فحسبك حالك إن عنيت به فالأمر والله عظيم وقوله عليه السلام ﴿لا ترجعوا بعدي ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض﴾ (هنا بحث) هل يكون على ظاهره فيكون حسيا أو يكون معنويا أو المجموع احتمال والأظهر والله أعلم أنه المجموع فانه المناسب لوضع الحديث لأنه أجمل ما قد فسرته وبينته فهما بينا فالمحسوس منه على ظاهره مثل قوله عليه السلام «حتى يكون بعضكم يسب بعضا وبعضكم يقتل بعضا» وقد قال صلى الله عليه وسلم «لا تقوم الساعة حتى لا يعرف المقتول فيما قتل ولا القاتل فيما قتل» أو كما قال والأحاديث فيه كثيرة متنوعة وأما فى المعنى فمثل قوله عليه السلام «قطعتم ظهر الرجل» حين مدحوه فى وجهه ومثل قوله عليه السلام «لا يسب الرجل أباه قالوا وكيف يسب الرجل أباه فقال صلى الله عليه وسلم يسب أباه الرجل فيسب الرجل أباه» وأى قطع عنق أكبر من العقوق وهذا النوع أيضا فى الآثار كثيرة وأنواعه متعددة ومعنى قوله عليه السلام ﴿ضلالا﴾ خارجين عن الطريقة المحمدية جعلنا الله من خير أهلها بمنه ﴿وفيه دليل﴾ على أن الرجوع إلى الضلالة فى حياته عليه السلام مستحيل يؤخذ ذلك من قوله ﴿بعدي﴾ وبما يقوى ذلك قوله عليه السلام فى حديث الشفاعة حين يقال له أنهم قد بدلوا بعدك فيقول «فسحقا فسحقا فسحقا» عافانا الله من ذلك بمنه وقد قال

نفسك بالعلم فزينها ان كنت عاملا وان خالفته قد شنتها به عاجلا وآجلا

(٢٢٤) (حديث جواز الشرب قائما)

عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ أَتَى عَلَى بَابِ الرَّحْبَةِ بِمَاءٍ فَشَرِبَ قَائِمًا فَقَالَ إِنَّ نَاسًا يَكْرَهُ أَحَدَهُمْ أَنْ يَشْرَبَ وَهُوَ قَائِمٌ وَإِنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَلَ كَمَا رَأَيْتُمُونِي فَعَلْتُ

ظاهر الحديث يدل على جواز الشرب قائما والكلام عليه من وجوه

(منها) أنه ينبغي للعالم إذا رأى شيئا يكره الناس وهو جائز في السنة أن يبين ذلك ويوضحه بالفعل والقول يؤخذ ذلك من فعل علي رضي الله عنه ما هو نص الحديث (وفيه دليل) على أن عليه أن يبالي في التعليم ما أمكنه يؤخذ ذلك من فعل علي رضي الله عنه وقوله لأنه لا يحتز إلا بمجموعهما وذلك هو الغاية في التعليم ويؤخذ منه أنه ينبغي للعالم عند ظهور البدع أن يعلم قبل أن يسأل لأن عليا رضي الله عنه فعل ذلك قبل أن يسأل وهو أحد الخلفاء الذين قال صلى الله عليه وسلم في حقهم «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء بعدي وعضوا عليها بالنواجذ» أو كما قال عليه السلام (وفيه دليل) على اتباعه رضي الله عنه في التعليم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤخذ ذلك من قوله إن ناسا يكره أحدهم يشرب وهو قائم ولم يسم أحدا وكذلك كانت عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قيل له عن أحد شيئا لا يعجبه يقول ما بال أقوام يقولون كذا أو يفعلون كذا ولا يسمي أحدا وهذه العادة اليوم قد كثرت في الناس أعني من أنهم يكرهون الشرب قائما حتى أن بعضهم يتغالي في ذلك ويجعله من قبيل المحرم وهذا مخالف لسنة النبي صلى الله عليه وسلم وفيه دليل: على أن الصحابة رضي الله عنهم كان شأنهم اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أفعاله وأقواله يؤخذ ذلك من قول علي رضي الله عنه وإني رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فعل كما رأيتموني فعلت ولم يذكر عنه عليه السلام في ذلك قولاً (وفيه دليل) على أن مهما كان من الشارع صلى الله عليه وسلم في شيء فعلا أو قولاً فلا مجال للعقل والرأي بأن ينظر أو يحتج وليس له وظيفة إلا أن يتبع فقط لأنه لو كان الشأن عندهم غير ذلك ما فعل علي رضي الله عنه مانص في الحديث عند ما باخه قول من ظهر له كراهية الشرب قائما وما يؤيد هذا ما فعله معاذ بن جبل مع معاوية بالشأم حين قال معاذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال معاوية الرأي عندي كيت وكيت فقال معاذ من يحيرني من معاوية أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول رأيي والله لا أقيم معك في بلد فخرج وأتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكتب عمر إلى معاوية أن يقف عند ما قال له معاذ وكيف لا يكون كذلك والله سبحانه عز وجل يقول (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) والاتباعية ينبغي أن تكون عامة في الأقوال والأفعال وقد

مضى على ذلك أئمة الدين ومصابيح الهدى غير أنهم اختلفوا هل هذا واجب أو مندوب أو مادل
الدليل عليه على كل قضية قضية بقرينة فهمها واجب ومنها مندوب ولم يقل أحد منهم بالخالفه أصلا
لا في فعل ولا في قول ولا كشرة مخالطة أهل السلوك هذا الشأن سادوا على غيرهم وبلغوا المنازل
المنيفة وقد ذكر عن بعضهم أنه طرقه خوف من واقعة وقعت في الوجود بعد ما امتثل فيها السنة
ف قيل له في إحدى مخاطباته على عادتهم التي عودهم مولا هم أتفرع ونحن قد عطيناك علم الأمان
قال وما علم الأمان قيل له قد هديناك إلى اتباع السنة فهناك سكن ما كان وجده من الخوف ولم
يلق في تلك النازلة إلا كل خير ونعمة فالشأن لمن أريد به الخير الصدق مع الله تعالى واتباع
السنة المحمدية جعلنا الله من أهل هذا الشأن في الدارين بمنه وفضله

(٢٢٥) ﴿حديث النهي عن الشرب من فم السقاء﴾

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الشَّرْبِ مِنْ فَمِ السَّقَاءِ
وَالْقُرْبَةِ وَأَنْ يَمْنَعَ الرَّجُلُ جَارَهُ أَنْ يَغْرِزَ خَشَبَةً فِي جِدَارِهِ

ظاهر الحديث يدل على حكمين أحدهما المنع من أن يشرب أحد من فم السقاء والقربة
والثاني أن يمنع أحد جاره أن يغرز خشبة في جداره والكلام عليه من وجوه ﴿منها﴾ أن يقال
هل منعه عليه السلام عن الشرب من فم السقاء والقربة هل هو عام على أي وجه كان أولا وهل
النهي كراهية أو تحريم وهل ذلك معقول المعنى أولا وهل يتعدى منعه إلى غير السقاء والقربة
أولا وهل إباحة الجدار للجار لغرز الخشبة هو على الوجوب أو الندب وهل ذلك على كل حال
أوفي بعض الأحوال دون بعض ﴿أما قولنا﴾ على الشرب من فم السقاء والقربة هل هو عام أم لا
ظاهر اللفظ محتمل لكن الناس اختلفوا في تأويله فمنهم من جعله عاما على أي وجه كان ومنهم
من قال إنه إذا جعل فم السقاء والقربة موضوعا في الأرض كانه القصة وتناول منه الشرب
فليست تلك الصفة بمنهي عنها وإنما النهي أن يصب الماء في حلقه ولا ينظر ما فيه ولا يقدر أن
يقطع الشرب ﴿وأما قولنا﴾ هل النهي على الكراهية أو التحريم احتمل لكن إذا كانت العلة
معقولة المعنى فيكون بحسب مقتضى العلة فإن لم تعرف العلة فحينئذ يبقى الأمر فيه محتمل الوجهين
ويبقى ﴿فيه بحث﴾ آخر هل النهي يدل على فساد المنهي عنه فالذي يشرب يشرب حراما وإن قلنا أن النهي
لا يدل على فساد المنهي عنه يكون متشابها هل هو حرام أو مكروه موضع خلاف ويبقى فعله ذلك على
أحد الاحتمالين إما أن يكون حراما فيكون آثما وإما أن يكون مكروها فيكون غير آثم ﴿ولما قولنا﴾
هل ذلك معقول المعنى أولا ظاهر اللفظ لا يتحقق منه شيء من ذلك لكن قد قال بعض

الناس أن ذلك معقول وهو خيفة أن يكون في الوعاء حيوان فينزل مع الماء في جوفه وقد وقع للناس من ذلك وقائع فتعجبوا بها كثيرا منها أنه قد ذكر أن رجلا شرب الماء كذلك وكان في الماء ثعبان صغير فابتلعه مع الماء فحصل له منه ضرر كثير وقد يكون أيضا في المساء علق فيباعه فيتأذى به وقد يكون الماء ينصب بمرّة فيكون سببا أن يقطع العروق الضعاف التي بازاء القلب فيكون منها موته ومن أجل ذلك أحكمت السنة أن يكون شرب الماء مصا ولا يكون عبا من أجل الخوف على العروق التي بازاء القلب فهنا من باب أخرى وقال آخرون من أجل ما يتطابق بالسقاء والقربة من رائحة الفم وتد يكون في بعض أفواه الناس بخر فيتعلق بالقربة والسقاء منه شيء فيعافه الغير وقيل من أجل أن بعض الناس لا يحتمل نفسه الشرب من فضل غيره ويتشوش لذلك عند الشرب وقد قيل إن ذلك يعود الفساد على الوعاء فينقل فيكون من باب إضاعة المال وهو منهي عنه نهى تحريم وبحسب هذه التعليقات تعرف النهي على أي وجه هو لكن الذي يعطيه الفقه أن أمرا يكون فيه التعليل على مثل هذا الخلاف تركه أولى لأنه لا يبعد أن يكون لمجموع ما ذكر فيكون مجتمع فيه التحريم على وجه والكرامية على وجه والشأن الأخذ بسد الذريعة التي تدل عليها قواعد الشريعة وقد روى عن الإمام مالك رحمه الله ومن تبعه أن مذهبه في الأمور المحتملة الأخذ بالاشد إبراء للذمة وأما السقاء فهو الوعاء الصغير من الجلد والقربة الوعاء الكبير منه ((وأما قولنا)) هل يمتد الحكم إلى غيرهما فإن قلنا بعدم التعليل فلا يتعدى ويكون مقصورا على السقاء والقربة لا غير وإن قلنا بالتعليل وهو الأظهر والله أعلم فحيث وجدت العلة طردنا الحكم على أحد محتملاته ((وأما قولنا)) هل إباحة الجدار للجار أن يغرز الخشبة فيه على الوجوب أو الندب فجمهور العلماء أنه على الندب لأنه قد روى عن راوى الحديث وهو أبو هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول ما لي أراكم معرضين والله لأرمين بها بين أكتافكم فدل بقوله هذا أنه فهم من النبي صلى الله عليه وسلم إما الوجوب أو التأكيد في الندب لعظم حق الجار على جاره لأنه قال صلى الله عليه وسلم «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورته» والآثار في الجار كثيرة في تأكيد حقه والاحسان إليه وكف الأذى عنه وإدخال السرور عليه ((وأما قولنا)) هل ذلك على كل حال أولا فلا يمكن أن يكون على كل حال لأن الشارع صلى الله عليه وسلم قد قال «لا ضرر ولا ضرار» فإن كان في غرز الخشبة ضرر على صاحب الحائط فلا يجب عليه ذلك ولا يندب فالشارع صلوات الله عليه وسلامه قد منع أن يفعل الشخص بملكه شيئا يضر بجاره فكيف يفعل في مال جاره ما فيه ضرر به هذا لا ينقل وإنما يكون ذلك على أحد محتملاته إذا لم يكن على صاحب الجدار في ذلك كبير ضرر لأنه من جملة الرفق له وقد ورد ما معناه «لا يمنع أحدكم جاره رفده»

(٢٢٦) ﴿حديث عدم التكال على الأعمال والاجتهاد فيها﴾

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لن يدخل أحدًا عمله الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضله ورحمته فسددوا وقاربوا ولا ي تمنين أحدكم الموت إما محسنًا فلعله أن يزداد خيرا وإما مسيئًا فلعله أن يستعذب ظاهر الحديث يدل على أنه لا يدخل أحد الجنة بعمله والكلام عليه من وجوه

اعلم وفقنا الله وإياك أن الناس اختلفوا في معنى تأويل هذا الحديث على وجوه عديدة فمنها قول بعضهم ان الايمان عرض والعرض من شأنه أن لا يبقى زمانين فابقاؤه عليك حتى يتوفاك الله عليه من فضله عز وجل ومنها قول آخرين وهو أنه عز وجل الذي وفقك الى الأعمال وتفضل عليك بقبولها لقوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكي منكم من أحد أبدا) وقيل لولا تجاوزه عز وجل عنا ما قدر أحد على الخلاص لقوله تعالى (ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما) وتأويلات كثيرة لكن الذي يعطيه تقسيم البحث أن تقول قوله صلى الله عليه وسلم بعمله هل هو عموم في جميع الأعمال القلبية والبدنية أو هو خاص بالبدنية فان كان خاصا بالبدنية فكيف الجمع بينه وبين الأحاديث التي وردت في الأعمال وكيف دخول أصحابها الجنة مثل قوله عليه السلام في الصيام « ان في الجنة بابا يسمى الريان لا يدخل منه الا الصائمون » الى غير ذلك من الأحاديث التي وردت في الأعمال وكيف دخول أصحابها الجنة مثل قوله عليه السلام عن العافين عن الناس ينصب لهم لواء أخضر يوم القيامة فيتبعونه حتى يدخلوا الجنة أو كما قال عليه السلام وقوله عليه السلام في اللذين لا يسترقون ولا يتطيرون « انهم يدخلون الجنة بغير حساب » الى غير ذلك وقول الله عز وجل في كتابه (بما أسلفتم في الأيام الخالية) وبما كسبتم الى غير ذلك من الآي وهي كثيرة وإن كان المعنى به العموم في الأعمال القلبية والبدنية فكيف الجمع بينه وبين قوله عليه السلام لمعاذ بن جبل ما حق الله على عباده وما حق العباد على الله ثم أخبره صلى الله عليه وسلم « إن حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وإن حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك لا يعذبهم » وقول جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة وقول الله عز وجل للمؤمنين (لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) والآي والأحاديث في هذا كثيرة والايمان عمل من أعمال القلوب وهو أجلها (فالجواب) عنه أنه إن كان على الخصوص وهو أن يعنى به أعمال الأبدان فلا تعارض بين هذا الحديث ولا ما ذكر من الأحاديث والآي ولا غيرهما بما يشبههما لأن الأعمال لا تقبل

ولا تنفع إلا بشرط الايمان واتباع السنة المحمدية ولأن الكفار مكلفون بفروع الشريعة على أحد القولين ولو فعلوها لم تنفعهم ولا يرون الجنة ولا يشمون عرفها وقد قال الله عز وجل في حقهم (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى نارا حامية) فعلى هذا التأويل يكون للحديث فوائد من الفقه (منها) أنه حجة لأهل السنة على المعتزلة الذين يقولون أن بأعمالهم يدخلون الجنة ويكفرون من وقع في معصية ويوجبون له الخلود في النار (ومنها) زوال رعونة نفوس العابدين الذين تشمخ نفوسهم وتغتر بما وفقوا اليه من الطاعة والخدمة (ومنها) الخوض على تحقيق الايمان ويزيد ذلك بيانا أن الحق سبحانه حض على الايمان أكثر من غيره من الأعمال بقوله تعالى (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) ولا يلزم من هذا الزهد في الأعمال لأن تركها يزيد الكفر وقد قال « جعلت الصلاة فرقا بين الايمان والكفر » ولأن ترك الأعمال أيضا نقص في الايمان يشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم « لا يزنى الزاني حين يزنى وهو مؤمن ولا يختلس الخائسة حين يختلسها وهو مؤمن » لأن حقيقة التصديق توجب اتباع الأهل واجتناب النهي وبذل الجهد في ذلك مع اتقاء خوف لقاء المولى سبحانه وتعالى وهل يحصل له قبول أم لا يشهد بذلك قوله تعالى في صفتهم المباركة (والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون) (وهنا بحث) في الفرق بين خوف عوام المؤمنين وخوف الخواص اعلم وفقنا الله وإياك ان خوف عوام المؤمنين ورجاءهم وعبادتهم كل ذلك له حد ونهاية وأما خوف الخواص ورجاؤهم وعبادتهم فليس له حد ولا نهاية بيان ذلك أما خوف العوام فانهم يخافون العقاب على المخالفة ونهاية خوفهم من دخول النار وخوف ما فيها من الآلام والأمور العظام أعادنا الله منها بنور وجهه الكريم وأما رجاؤهم فقيموا وعدوا من حسن الثواب وجزيل العطاء بحسب الوعد الجليل ونهايته دخول دار كرامته عز وجل والتنعم بما أعد لهم فيها وعبادتهم حدها التزام توفية ما جعل لهم في ذلك ونهايتها ارتقابهم القدرة على خلاف ذلك والاستراحة إلى قوله تعالى (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) وأما خوف الخواص فانه لا حد له لأنهم يخافون عدله عز وجل وعظمته جل جلاله ولا حد لما يخافون ولذلك إذا طرقت لأحدهم طارقات الخوف إن لم يتداركه بتسليم الفضل والرحمة ولا نفطرت كبده ومات وقد روى أن جملة منهم ماتوا كذلك وما يذكر عن بعضهم أنه كان فتح قبره في بيته وكان تعبده على شفيع قبره فدخل عليه يوما بعض الوعاظ يزوره فلما دخل عليه ناداه الأولاد والعيال من وراء الستر ناشدناك الله لا تقتله فلما دخل عنده قال له عظمي قال له إن الأولاد قد ناشدوني الله أن لا أفعل فقال لا بد من ذلك فتلى عليه آية من كتاب الله تعالى فيها شيء من التخويف فوقع مغشيا عليه فأعاد الأولاد الرغبة على الواعظ مثل الأول فلما أفاق قال له زدني قال له ان الأولاد قد ناشدوني « ١٦ — رابع بهجة »

الله فقال له لا بد من ذلك فتلى عليه آية من كتاب الله تعالى فاضطرب مثل الحية ووقع في قبره ميتا فقال الأولاد قتله قتلك الله وعنه مثل هذا كثير وأما رجائهم فهم يرجون محض فضله عز وجل بفضله فما يرجون لاحد له ويحصل لهم بذلك من شدة البسط وقوة الرجاء واليقين ما يفتنون به الجبال ومن الأدلال على فضل مولاهم ما يتصرفون به في الوجود كيف يختارون ومع ذلك محافظتهم على الأمر والنهي لا يقدر غيرهم عليه وما يروى عن بعضهم أنه أتى بئرا بالدلو والحبل فأدلى الدلو فلم يبلغ إلى الماء فرفع طرفه إلى السماء وقال وعزك لمن لم تسقني لأغضبني فإذا به قد أدلى دلوه ثانية فبلغ الماء فاستقى وشرب قال راويه فلما رأيت ذلك منه ناشدته الله أن يسقيني فضله فناولني به فإذا هو سويق بسكر فاتبعته وقلت له ياسيدي قدم من الله عليك بمثل هذا الحال وأنت تسيي الأدب في مخاطبة الربوبية وتقول ان لم تسقني غضبت فتبسم وقال يا بطل على من أغضب كنت أغضب على نفسي فلا أشرب ماء حتى ألقاه وطلبته مستعينا به على ذلك فلا حد لعبادتهم ولا فترة غير أنهم يفرقون بين الأوقات من أجل الأوامر لا غير فعبادتهم دأمة لا فترة فيها ولا التفات (وما يروى) عن بعضهم أنه أتاه بعض الإخوان يزوره فوجده يصلي فقال في نفسه لا أقطع عليه أتركه حتى يفرغ من صلاته فبقى ينتظره لأن يفرغ حتى أذن الظهر فصلى الظهر وبقي يتنفل حتى أذن العصر فصلى العصر ثم قعد يذكر حتى أذن المغرب فصلى المغرب ثم بقي يتنفل حتى أذن للعشاء فصلى العشاء وبقي يتنفل حتى طلع الفجر فصلى الصبح ثم قعد يذكر حتى كان وقت الضحى الأولى فقام فصلى ثم قعد يذكر والزائر في ذلك كله يقول في نفسه لا أقطع عليه حتى يفرغ هو من تلقاء نفسه فلما قعد يذكر وهو ينتظر الضحى الأعلى جرت سنة على عينه وهو قاعد لم يتحرك لها فمسح النوم من عينه وقال أعوذ بالله من عين لا تشبع من النوم فقال الزائر في نفسه لا يحل لي الكلام مع مثل هذا وتركه وانصرف ومثل هذا عنهم كثير والفائدة أن تنظر من أي الأصناف أنت وما حالك أمن العوام أو الخواص وهل بينك وبين أحدهم نسبة أم لا وإلا فدارك نفسك قبل ذهابها واغلق الباب فالأمر والله قريب وقد يكون للحديث (بحث ثان) وهو أن الأحاديث التي أتت بمقتضى الأعمال وما لفاعلمها وما على تاركها فذلك مقتضى الحكمة والتكليف ويكون هذا يدل على مقتضى التوحيد والتخصيص يشهد لذلك ما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه خرج يوما ويده الكريمتان مقبوضتان فقال للصحابه رضي الله عنهم «أتدرون ما في هذه قالوا الله ورسوله أعلم فقال في هذه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وأجدادهم وقبائلهم إلى يوم القيامة ثم قال أتدرون ما في هذه قالوا الله ورسوله أعلم قال في هذه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وأجدادهم وقبائلهم إلى يوم القيامة قالوا يا رسول الله فقيم العمل فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له أو كما قال عليه السلام فحصل

التخصيص لأهل الدارين بمقتضى الإرادة الربانية لا بموجب الأعمال البدنية لكن بقى للحكمة [معنى لطيف وهو أن الأعمال دالة على المآل كما هو العنوان دال على صاحب الكتاب يشهد لذلك قوله عز وجل في كتابه (فسنيسره لليسرى - فسنيسره للعسرى) وقول زيد الخير لرسول الله صلى الله عليه وسلم لتخبرني يا رسول الله ما علامة الله فيمن يريد وما علامته فيمن لا يريد فقال « كيف أصبحت يا زيد قال أصبحت أحب الخير وأهله وإن قدرت عليه بادرت إليه وإن فاتني حزننت عليه وحننت إليه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك علامة الله فيمن يريد ولو أراذك بغيرها لهماك لها » أو كما قال عليه السلام فلذلك جاء شبه الأعمال البدنية مع ساقية الإرادة الربانية لمن تفتن واعتبر كما أخبر سبحانه عن يوم بدر بقوله تعالى (إلى مدكم بحمسة آلاف من الملائكة مسومين وما جعله الله إلا بشئى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله) فجعل نزول الملائكة اطمئنانا لقلوبنا لما يعلم من ضعفنا فأخبر أن حقيقة النصر من عنده سبحانه فكذلك الأعمال الصالحة فيها للنفوس الضعاف طمأنينة وحقيقة الخلاص ودخول الجنة بفضل الله تعالى والركون أيضا إلى الأعمال كيوم حنين وقد قال عز وجل فيه (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين) فكذلك إذا عولت على أعمالك الصالحة لم تقدر بها على شيء من الخلاص وإن كثرت إلا أن تغمدت بالفضل والرحمة يشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم في العابد من بنى إسرائيل صاحب الرماة وقد تقدمت حكايته قبل في غير هذا الحديث يا هذا اعمل فأصحاب التوفيق إذا رأوا أنفسهم قد وفقوا إلى شيء من أفعال الخير يستبشرون ويشكرون الله على ذلك ولا يغترون ويرغبون الله في أسباب السعادة الدالة عليها من فضله لقوله تعالى (واسألوا الله من فضله) فهو أهل الفضل والانعام ويكون من فرائد هذا الحديث على هذا الوجه أنه حجة على أهل الغفلة والجهل من انتسب إلى العلم وبما انتسب أيضا إلى طريق الصوفية لأنهم يفرقون بين الشريعة وطريقهم وبين الحقيقة وطريقهم وكل طائفة منهما تدعى تفضيل طريقها وليس الأمر كذلك لأن الذى أخبر بالشريعة وبينها لنا أخبر بالحقيقة وبينها لنا أيضا وكفى في ذلك ما كان صلى الله عليه وسلم يفعل في نفسه المكرومة لأنه كان إذا خرج إلى جهاد أو حج أخذ الأبهة لذلك على مقتضى الشريعة وإذا رجع قال آيئون تائبون عابدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده وهذا هو الحق والحقيقة فتراه عليه السلام جمع في العمل الواحد الشريعة والحقيقة لأن المطلوب الجمع بينهما ومن هنا زل من زل وقد قال بعض السادة في الجمع بين ذلك أن تعمل عمل من لا يرى خلاصا إلا بالعمل وتفويض الأمر وتوكل تفويض وتوكل من لا يرى خلاصا إلا بمجرد الفضل لا غير أو كما قال ولقد أحسن

فيما به جمع ﴿ وفيه دليل ﴾ على أنه ليس أحد من العباد يقدر على توفية حق الربوبية على ما يجب لها يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل رحمته ﴾ فإذا كان عليه السلام الذي هو خير البشر وصاحب الشفاعة والمقام المحمود لا يقدر على ذلك فالغير من باب أخرى وأولى لأن صاحب كل مقام يطلب بتوفيته بحسب ما رفع له في مقامه يشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم «أعوذ برضائك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» وإخباره عليه السلام عن قول الملائكة يوم القيامة وهي في العبادة لا يفترون سبوح قدوس ما عبدناك حق عبادتك وإذا تأملت ذلك من طريق النظر تجده مدركا حقيقة لأنه إذا طالبنا عز وجل بشكر النعم التي أنعم علينا عجزنا عنه بالقطع ومنها ما لا نعرفها كما أخبر جل جلاله (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) فكيف غير ذلك من أنواع التكليفات وهي من جملة النعم الواحدة منها نعجز عن شكرها إن لو اشتغلنا بها وذلك أن الانفاس اثني عشر ألف نفس داخل ومثله خارج في اليوم الواحد فأنعم علينا بأن تدخل بغير كلفة وتخرج بغير مشقة مع اليقظة والنوم فهذه واحدة من جملة نعم عديدة في البدن عجزنا عن شكرها وكثير من الناس ما يعرفونه فوق العجز حقيقة ﴿ ومن وجه آخر ﴾ وهو أن العالم كله يحدث فكيف يقدر يحدث على توفية حق القديم الأزلي هذا عن طريق العقل مستحيل فما بقي إلا ما أخبر به الصادق صلى الله عليه وسلم وهو التعمد بالفضل والرحمة فبقى البحث على قوله ﴿ بفضل رحمته ﴾ احتمل وجوها ﴿ منها ﴾ أن تكون إشارته عليه السلام لما أخبر عن مولانا سبحانه أنه قسم الرحمة على مائة جزء أخرج منها في الدنيا جزءا واحدا منها يتراحم الخلق كلهم حتى الفرس ترفع حافرها عن ولدها خشية أن يصيبه وادخر تسعة وتسعين جزءا إلى يوم القيامة فجعل عليه السلام نفسه المكرمة من جملة المؤمنين تواضعا لله تعالى واحتمل أن يشير عليه السلام إلى عجزه عن توفية حقوق الرحمة التي رحمها الحق بها حتى يكملها له سبحانه بفضلها فيكون له سببا إلى دخول الجنة مثل ما ذكره سبحانه وتعالى في كتابه من نعمه سبحانه عليه بقوله تعالى (ألم يجدك يتيما فآوى ووجدك ضالا فهدى ووجدك عائلا فأغنى) إلى آخر السورة ومثل قوله تعالى (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) فكأنه عليه السلام يقول وأنا عاجز عن التوفية بالحقوق التي تجب لله تعالى على بمقتضى الشكر والتعظيم فلم يبق بما أرجوا دخول الجنة إلا برحمة أخرى فاضلة على هذه أي زائدة على هذا يكفر بها عن التقصير ويدخلنا بها الجنة واحتمل أن تكون إشارته عليه السلام إلى الزيادة التي زاده الله تعالى بعد ما أكرمه بما ذكره وهو قوله جل جلاله (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) لأن من

غفر له قد أدخل الجنة لا محالة ولا يخطر بخاطر أحد أن الذنوب التي أخبر مولانا سبحانه أنه بفضله غفرها للنبي صلى الله عليه وسلم إنما من قبيل مانع نحن فيها معاذ الله لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من الكبائر بالاجماع ومن الصغائر التي فيها رذائل وأما الصغائر التي ليس فيها رذائل ففيها خلاف بين العلماء والأكثر منهم على أنهم معصومون من الصغائر كما عصموا من الكبائر وهو الحق لأن رتبهم جليله وإنما ذلك من قبيل توفية ما يجب للربوبية من الاعظام والاكبار والشكر ووضع البشرية وإن رفع قدرها حيث رفع شأنها تعجز عن ذلك بوضعها لأنها من جملة المحدثات وكثرة النعم على الذي رفع قدره أكثر من غيره فتضاعفت الحقوق عليه فحصل العجز للكل كل على قدر حاله وبقيت المنة لله تعالى على الكل والتجاوز بمجرد الفضل والرحمة لاحق لأحد عليه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (بل الله يمين عليكم أن هذا كمال إيمان إن كنتم صادقين) وفيما ذكرنا حجة لأهل الطريق الذين قد أجهدوا أنفسهم في الخدمة ومع ذلك يعترفون بعظم التقصير ويخافون أكثر مما تخاف أصحاب الكبائر (وقد ذكر) عن بعضهم أنه اشتهت نفسه تمرا فبقي يدافعها أياما عديدة إلى أن ظهر له يوما شراه فلما أخذه من البائع وولى وإذا بريح شديدة وبرق ورعد فرمى التمر من حجره ووبخ نفسه وقال لها أهالك الناس بخطيتك وخرج هاربا إلى الله تعالى وما يزيد ذلك بياناً قوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) فإنه بقدر العلم به عز وجل يكون الخوف منه ولا أحد أعلم بالله من رسله وسيدنا صلوات الله عليه وسلم وعليهم أجمعين القدوة فيهم فيخف مثل هذا الخوف له عليه السلام لما به من عليه من المزية وقد قال صلى الله عليه وسلم «أنا أخشاكم لله وأعلم بما أتقى» أو كما قال عليه السلام واحتمل أن يكون عليه السلام أراد بمجموع الوجوه كلها وزيادة لأنه صلى الله عليه وسلم معدن الفصاحة والبلاغة

وفيه دليل : على أن ألفاظ العموم يدخلها التخصيص بمقتضى اللسان العربي يؤخذ ذلك من قولهم «ولا أنت» لأن قوله صلى الله عليه وسلم «(إن يدخل أحدا عمله الجنة)» فقوله أحدا لفظ عام فلو لم يكن ذلك معروفا من لسانهم ما استفسروه حتى يزيل لهم ذلك المحتمل المتوقع من أحكام الحديث النهي عن أن يتمنى أحد الموت كان على أي حالة كان من خير أو شر يؤخذ ذلك من قوله عليه السلام «(لا يتمنى أحدكم الموت إما محسنا فاعله أن يزداد خيرا وإما مسيئا فاعله أن يستعيب)» وقد كان من دعائه عليه السلام «اللهم احيني ما كانت الحياة زيادة لي من كل خير وأمتني ما كان الممات راحة لي من كل شر» أو كما قال عليه السلام «(وهنا بحث)» وهو أن يقال هل هذا النهي على عمومهم أو لا احتمل لكن قد جاء «أن وقعت الفتن بطن الأرض خير لله ومن من ظهرها» وقد جاء عن علي رضي الله عنه أن الفتنة لما طالت قال اللهم ان قومي قد ملوني وملتهم فاقبضني إليك غير

مقصور ومثل ذلك عن عمر رضى الله عنه أنه قال اللهم إن رعيتي قد انتشرت وكبر سني فاقبضني إليك غير مفرط والجمع بين ذلك أنه مهما كان الرجاء في شيء من الخير أو الخوف من شيء من الشر رغب في الأسباب التي يتوصل بها إلى الخير أو دفع الشر وإبقاء حياة المؤمن من أكبر الأسباب التي يرجي بها ذلك وقد قال صلى الله عليه وسلم « بقية عمر المؤمن لا تثن لها يصلح فيه ما فسد » أو كما قال عليه السلام فإذا كانت وقت الفتن خيف على الإيمان في الغالب فبطن الأرض إذ ذلك خير للمؤمن فإنه يقبض على الإيمان وهي النعمة العظمى من الله بها علينا بفضلته وقد قال صلى الله عليه وسلم في الفتن « يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا » أو كما قال عليه السلام فإذا جاءه شيء يخاف به زوال الإيمان فالموت إذ ذلك مع الإيمان خير من الحياة التي يخاف معها زوال الإيمان ﴿ وأما قول ﴾ الخليفتين رضى الله عنهما فإنما طلبا الموت خيفة النقص وأن يكون رجوعهما إلى مولاها على أكمل الحالات سلكا به ما قدمناه من قوله عليه السلام « وأمتنى ما كان الممات خيرا لي » غير أن العبارة اختلفت والمعنى واحد فلا تعارض بينهما وأما قوله عليه السلام « فسدوا وقاربوا » فقد تقدم الكلام على ذلك في حديث إن الدين يسر ﴿ وفيه دليل ﴾ على قوة رجاء المؤمنين في الله تعالى على أى حالة كانوا يؤخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ إما محسنا فلعله أن يزداد خيرا وإما مسينا فلعله أن يستعقب ﴾ أى يعتب نفسه على ما وقع منه ويندم ويتوب لأن الاستغفار لا يكون إلا بعد الندم والندم كما قال صلى الله عليه وسلم توبة ﴿ وفيه دليل ﴾ لطريق القوم لأنهم يقولون ارجع إلى مولاك على أى حال كنت تجده بك رحيمًا وقد قال بعضهم اجعل قلبك خزانة سرّك ومولاك موضع شكواك وما جاء في مثل هذا ما روى في قصة يونس عليه السلام حين كان في بطن الحوت أن الله عز وجل أسمع صوت قارون وهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة لاقرار له فيها وأسمع عز وجل لقارون صوت ذى النون عليه السلام فسأل الملائكة الموكلين بعذابه أن يمهله حتى يخاطبه فأذنوا له في ذلك فناداه فاستجاب له فسأله عن قصته فاخبره بها فقال له ارجع إلى مولاك ففى أول قدم ترجع إليه تجده فقال له ذو النون عليه السلام ولم لم ترجع أنت إليه فقال له إن توبتي وكلت إلى ابن خالتي موسى فلم يقبلها أو كما جرى في القصة فأخرجه الله عز وجل إلى البر بفضلته ورحمته ولذلك قال بعضهم

تقواك تقواك عمدة في رجاك ورجاك رجاك عمدة في تقواك

فإن خليت منهما فمولاك فمولاك ثم مولاك

﴿حديث الشفاء في ثلاث﴾

(٢٢٧)

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشَّفَاءُ فِي ثَلَاثَةِ شُرْبَةٍ عَسَلٍ وَشُرْطَةِ مَحْجَمٍ وَكَيْةِ نَارٍ وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ السَّكِيِّ رَفَعَ الْحَدِيثَ

ظاهر الحديث يدل على حكمين أحدهما إخباره صلى الله عليه وسلم بأن الله سبحانه جعل الشفاء في ثلاث شربة عسل وشرطة محجم وكية نار والحكم الثاني نهي صلى الله عليه وسلم عن السكي بالنار والكلام عليه من وجوه

﴿منها﴾ أن يقال هل الشفاء في هذه الثلاثة المذكورة هو على العموم للمؤمن وغيره أولا وهل الشفاء أيضا يكون هنا عاما من كل الأمراض أو في مرض خاص وهل يحتاج في ذلك إلى نية عند استعماله أم لا يحتاج وهل نهي صلى الله عليه وسلم عن السكي نهي كراهية أو تحریم وهل يعرف أيضا لذلك حكمة أم لا ﴿فالجواب﴾ على قولنا هل هو على العموم في المؤمن والكافر أم لا ظاهره محتمل لكن قد جاء من طريق «شفاء امتي في ثلاث» فإن حملنا عموم لفظ هذا على التخصيص بهذه الطريقة التي أوردناها فيكون خاصا بأئمة صلى الله عليه وسلم وإن تركناهما على مقتضاه فيكون العموم في هذا أظهر وتكون الطريقة الأخرى تدل على أن هذا الخير باق لأئمة صلى الله عليه وسلم ﴿وأما قولنا﴾ هل يكون ذلك شفاء من كل داء أو هو من أدواء مخصوصة فاللفظ محتمل لكن الأظهر العموم لأنه من طريق الرحمة والمن وما هو من هذا الباب فالعموم أظهر فيه وقد تكلم ناس في هذه الأحاديث وعملوا الفائدة فيها بأن جعلوها بنظرهم راجعة إلى التجربة؛ وما يقول فيها أهل الطب فاذا رجعنا إلى بحثهم إلى التجربة وقول الأطباء فلم يبق لقول الصادق صلى الله عليه وسلم فائدة أصلا وهذا لا خفاء في غلط قائله والله عز وجل يقول (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وقال تعالى (وما ينطق عن الهوى) فاذا صدقنا قول أهل التجربة وأهل الطب وكلاهما تقدير وظن غالب فيجب من باب أولى تصديق الصادق صلى الله عليه وسلم الذي يخبر عن جاعل الأشياء كيف شاء واختراعها بقدرته وحكمته فالتوفيق لا ينال إلا من طريق النعم علينا ونما يبين أنه على العموم ما اتفق لبعض العلماء بغرب الأندلس كان من رواة الحديث عاملا به متبعيا للسنة والسنن وكان الناس يجدون برأيه في كل ما يشير به عليهم بركة حين شهر بذلك فكان الناس يقصدونه من الأماكن البعيدة في أخذ رأيه في المعضلات التي تصيبهم وكان في بعض الحصن بعض الفلاحين وكان له رأس بقرة وكان يعيش به فسرق فالحقه منه كرب عظيم فقيل له مالك إلا الفقيه الذي في رأيه البركة هو يخبره عليك فاتاه فأخبره بحاله وهو يبكي ويضرع إليه ويتوسل إليه بكل ما يمكنه عساه يخبر عليه رأس بقره

فقال له اذهب فاحتجم فخرج ليحتجم وعادتهم في البلاد أن المزينين يسترون حوائيتهم بمناديل من صرغ أو كتان فرفع ذلك المنديل لأن يدخل فاذا برأس بقره في داخل الحانوت والحانوت خالية فأخذه ثم رجع إلى الفقيه يخبره بحاله فلما أخبره قال له الحاضرون أى نسبة فى قولك احتجم حين يكون سببا فى جبر رأس البقرة فانك لما أمرته بذلك تعجبنا من بعد النسبة التى بين حاله وما أمرته به ولم نقدر أن نكلمك ثم نجح فيما أمرته به أفدنا ذلك فقال لهم لما رأيته قد أصيب وحاله يقتضى الخوف عليه من شدة كربه ورأيته لا يقبل عذرا ان قيل له فتداركت قوله صلى الله عليه وسلم «شفاء أمتى من ثلاثة شرطة محجم» فأخذت الحديث على عمومه فأمروته بما أخبر به الصادق صلى الله عليه وسلم الذى لا ينطق عن الهوى فبركة السنة التى شففته أو كما جرى وحدثنى بهذا بعض مشايخى من رواة الحديث وكان له العلم والدين المتين وكان من البلد الذى كان فيه ذلك الفقيه وجرت هذه فيه ((وأما قولنا)) هل يحتاج الى نية عند استعماله فكل ما هو من طريق النبوة فالنية أصل فيه وقد يؤثر لمن لم تكن له نية اذا أخذه على وجه التداوى مثل ما يأخذ الذى الدواء يعطيه الطبيب فان ذلك المقدار من النية فيه مجزئ وأما الذى يأخذه على طريق التجربة أو الشك فلا يزيد بذلك إلا شدة بدليل قول الله سبحانه (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) وكل من لم يصدق ما قاله الصادق صلى الله عليه وسلم أو شك فيه فقد ظلم نفسه فلا يزيد ما يستعمل من الكتاب والسنة إلا خسارا ورضى الله عن ابن عباس كان اذا رمدت عينه يتلو قول الله عز وجل فى العسل فيه شفاء للناس ويكتحل به يبرأ من حينه وكان ابن عمر رضى الله عنه اذا طلع له نبت تلى الآية وطلاء بالعسل فيبرأ أيضا فمثل هؤلاء السادة ومن تبعهم بأحسن إلى يوم الدين عرفوا الكتاب أيضا والسنة وما به من عايناه من ذلك ((وأما قولنا)) هل نهى صلى الله عليه وسلم عن السكى نهى تحريم أو كراهية احتمال والأظهر أنه على الكراهية وما يدل على ذلك أن بعض الصحابة كانت الملائكة تسلم عليه فأخذه مرض فقيل له ليس يبريك منه الا السكى فاكثوى فلم تسلم عليه الملائكة حتى تاب وأقبح عن السكى فرجعت الملائكة تسلم عليه كما كانت قبل وقد جاء أن النبي صلى الله عليه وسلم كوى بعض الصحابة فى الحكمة لكنه لا نعلم هل كان كيه لذلك الصحابى بعد هذا الحديث فيكون فعله عليه السلام ناسخا لقوله أو يكون قبل الحديث فيكون فعله منسوخا بقوله فاذا احتمل الأمرين بقى موضع خلاف وفعل هذا الصحابى الذى كانت الملائكة تسلم عليه كان كيه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فبان النهى عندهم هو المشهور فيه الكراهية لأنه روى عنه رضى الله عنه أنه قال اكتبونا فما أفاجئنا فلولا أن النهى كان معلوما عندهم بعد موته صلى الله عليه وسلم وتأوله أنه على طريق الكراهية واكتوى فظهر له غيره أراد ما قال ذلك ولا تاب من السكى وأقبح عنه وحينئذ رجعت الملائكة

تسلم عليه كما كانت وفيما جرى لهذا الصبح دليل على أنه لا تعجل العقوبة إلا للمحجوب لكي يرجع وأما غيره فقد يؤخر له إملاء لقول مولانا سبحانه (إنما نملى لهم لين زادوا إثما) ﴿وأما قولنا﴾ هل نعرف لنبيه صلى الله عليه وسلم علة أم لا أما أن يفعل صلى الله عليه وسلم شيئا لغير حكمة فستحيل وأما ما هي فتحتمل والله أعلم وجوها ﴿منها﴾ أن الجاهلية وأهل الكتاب يفعلون ذلك وهو عليه السلام قد نهى عن التشبه بهم فيكون لأجل ذلك واحتمل أن يكون لما جعلها الله تعالى للعذاب والنقم اتبع عليه السلام فيها حكمة الحكيم وأعطاهما ما هو الغالب من شأنها واحتمل أن يكون عليه السلام كره ذلك من طريق الفأل فهذه سنته عليه السلام يعجبه الفأل الحسن كما فعل عليه السلام حين قال من يحلب هذه الشاة فقام رجل ليحلبها فسأله عن اسمه فلما أخبره لم يعجبه ذلك الاسم فقال له اجلس ثم ثان مثل ثم ثالث فلما أعجبه اسمه قال له احلب فكره هنا أن يكون شفاء أحد أمته بالنار من أجل الفأل ولا يكون لها في لحم مؤمن نصيب لا في الدنيا ولا في الآخرة واحتمل مجموع ما ذكرناه وزيادة لانه عليه السلام معدن الحكم والخير وبقي ﴿سؤال﴾ وهو أن يقال كيف يخبر بشيء أن فيه شفاء ثم نهى عنه ﴿الجواب﴾ اعلموا الله وفقنا الله وإياك أنه لما كان عليه السلام الصادق المشفق على أمته الرحيم بهم لما جاء في التنزيل فأعلمنا بما جعل الله تعالى فيها من الشفاء ونهانا عن استعمالها لما في ذلك من المضار علينا لأننا بنفس نهيه عليه السلام عن ذلك علمنا أنه قد اجتمع فيها الأمران الشفاء والمضار فغلب صلى الله عليه وسلم الذي هو الأصاح في حقا وهو النهي كما أخبر الحق سبحانه في شأن الخمر أن فيها منافع للناس ثم حرمها لما فيها من المضار في العقول والأديان ﴿وفيه من الفقه﴾ أن دفع المضار أكد من تحصيل النفع يؤخذ ذلك من أنه لما كان في السكى النفع والضرر غلب عليه السلام دفع الضرر فنهى عنه وهذا المعنى هو الذى فهمه حذيفة رضى الله عنه حيث قال كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى ﴿وفيه دليل﴾ لأهل الزهد وهو أنه لما كان في الدنيا الوجهان غلبوا الضرر فيها فدفعوه بالزهد فيها فنجوا وربحو الدارين وعاد الضرر على أهلها فتعبوا في الدارين معا ﴿وفيه من الفقه﴾ أنه إذا كان شيء يكون فيه خير وشر ولا يقدر على دفع ذلك الشر الذى فيه يترك خيره من أجل شره ومن أجل هذا الباب كان أطباء الأبدان لما أن كانت عندهم الحمودة فيها السم القاتل وفيها النفع لاذهب الاخلاط وقدروا على أن يحججوا ضررها عن الأبدان بالحجب المعلومة استعمالها بالحجب ولا يستعملها أحد وحدها الا قتلته وكذلك أيضا أطباء الأديان لما كانت النفس وما تشير إليه غالبا سم قاتل في الدين لم يستعملوها إلا بحجاب الشريعة فانهم لا انفكك لهم عنها فلم تضرهم مع ذلك وانتفعوا بها وربحوا عليها الدارين جميعا والذين استعمالوها بغير حجب الشريعة قتلتهم وخسروا بها الدارين معا عاذنا

الله من ذلك ولذلك قال ، اذا كنت متقيا فشر نفسك أولا فاتقه ، فان عوفيت منها فلا شر بعدها

حديث نفع الحبة السوداء

(٢٢٨)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي الْحَبَةِ السَّوْدَاءِ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلَّا السَّامَ قَالَ أَبُو شَهَابٍ وَالسَّامُ الْمَوْتُ وَالْحَبَةُ السَّوْدَاءُ الشُّوْنِيزُ

ظاهر الحديث الاخبار بأن الله عز وجل جعل في الحبة السوداء التي هي الشونيز شفاء من كل

داء الا الموت والكلام عليه من وجوه

وهي كما تقدم في الحديث قبله من التوجيهات في الشفاء والانفصال عنها كالا انفصال عن تلك غير أن هذا زيادة في التوجيه وهي أن عادة العرب إذا أكدت الشيء بالمصدر أو استثنيت من العام بعضه دل على أن ما بقي حقيقة في العموم لا يحتمل التخصيص وقد قال صلى الله عليه وسلم إنها شفاء من كل داء فهذا اللفظ عام وقد يحتمل التخصيص فلما استثنى منه البعض بقوله عليه السلام إلا السام دل على أنه شفاء عام لا يحتمل التخصيص وقد قال بعض العلماء في هذا الحديث ما قدمنا ذكره في الحديث قبل أنه يرجع في ذلك لما يقوله الأطباء وهذا ليس بالبين والجواب عنه مثل الجواب في الحديث قبل وقد قال أهل الطب أن الحبة السوداء تنفع عندهم لسبعة عشر داءً بالتجربة وقد ذكر لي بعض مشايخي في الحديث والفقه وكان قد جمع الله له الحديث والفقه والعمل بهما والتقوى أن شيخه رحم الله جميعهم وإيانا بفضلهم أن بعض أصحابه وكان من الزاهدين المباركين وكان يحضر مجلسه كل يوم فلما قرأ هذا الحديث وتكلم الشيخ عليه بنحو ما أشرنا إليه في الحديث قبله جاء يوم ولم يأت ذلك الزاهد مجلس الشيخ فلما أتاه بعد سأله ما حبسك عنا فقال له إن عيني رمدت فأوجعتني فأخذت الشونيز فمضغته وألقيته داخلها فزادت وجعا فقلت مخاطبا لها اوجعي أو طيري فما أخبر الشيخ إلا عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا يقول النبي عليه السلام إلا حقا فبرئت من لياقي وما بقي لي فيها شيء من الأشياء المؤلمة ولا أثر منها فقال الشيخ للفقهاء مثل نية هذا هي النية المباركة التي تظهر فيها فائدة الحديث ولو استعمله أحد منكم مع الشك الذي في نياتكم لطارت عيناه أو كما جرى وفي هذه الحكاية دليل على ما قلناه في الحديث قبله أما الأمور التي تتلقى من الشارع صلى الله عليه وسلم أن الفائدة في استعمالها إنما تكون بحسن النية وإن لم يكن هناك حسن نية خيف على الشخص من زيادة الضرر وقد بينا الدليل على ذلك من كتاب الله تعالى والله الموفق للخير بفضلته